

الحروب العالمية وما نتج عنها من علاقات
اجتماعية واقتصادية وثقافية بين الحرب والامم

تأليف
زكي النعاش

١٣٦٥ هـ

١٩٤٦ م

مقدمة الكتاب

لقد جاءت دراستي لهذا الموضوع تحقيقاً لرغبتين ، الأولى منهما قديمة وهي
اضمة عزيزة عليّ أن أجمع تاريخاً جامعاً لما كان يُعرف حتى امد غير بعيد "سيرة
الكبرى" وقد طالما دغدغتنى هذه الامنية وطالما حلت بها في البقطة والنام
واما الثانية فجديدة اذ اتخذته موضوعاً لاطروحتي في سبيل نيل شهادة أستاذ
في الاداب M.A. اما اختياري له فجمع بين الغائتين اذ هو جزء منم لما سبق
لي واعدته من اجزاء هذا التاريخ الشامل وهو فوق ذلك تاريخ لحفبة لعلها من
أحلك الحفب في تاريخنا أحببت ان اجلوها ما استطعت الى ذلك سبيلاً .
اما الآن وقد وصلت الى النهاية او كدت فباستطاعتي ان اصبح فخوراً
باني اقدمت على هذا العمل الشاق مع وفرة اعمالى "لأثبت للشباب ان التلمذة
لا نعرف سناً وان الواحد منا طالب علم ما كان في قيد الحياة وانها فضلا من
ذلك للذة روحية لا يثمر بها الا من هانها .

ولا يسعني هنا الا تقديم الشكر الجزيل لمن كانوا لي خيراً معوان
على تخطي ما اعترضني من صعوبات واعني بهم اساتذتي الكرام - الدكتور فسطي
زريش قبا ^{الاطلاع} باعباً منصبه السياسي في الولايات المتحدة . والدكتور غليم
اذ كان لي شرف التلمذة عليه مدة سنة كاملة قبل ان اضطره المرض الى السفر .
اما من كان له الفضل الاوفر في مساعدتي على اتمام الشوط الى نهايته فهو الدكتور
نبيه امين فارس . وكذا لك أحب ان اسجل كلمة شكر لادارة المكتبة في الجامعة الاميركية
ببيروت وموظفيها ^{الذين} اذ كان لي فيهم انصار واي انصار في الوصول الى بعض المراجع
الهامة .

واخيراً لعني ان يكون في جهدي المتواضع هذا حافز لبعض الشباب
والدابات من بني قومي الى عدم الاكتفاء ابداً بما لديهم من معرفة ضئيلة او كثيرة
فان العروبة بحاجة ماسة اليهم والانسان بحاجة امس ولا شك .

(١) في اصداره والتعليم والتأليف المذكوري

(٢) وان ذلك في موضوع: "ما بين الامم المتحدة واليهود" ونشره "الشرق" في اصله

مستتركة بغير

الفصل الأول

- مقدمة تاريخية في ماهية الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة
- ادوارها - ضعف الحكومات الإسلامية
 - فوز الافرنج وناسير مملكة القدس والامارات الثلاث
 - مظاهر القوة والضعف في الممتلكات الافرنجية
 - دور الانتصار او هجوم المسلمين المعاكس
 - شرف الدولة مودود - عماد الدين زكي لو استرجاع الرها
 - الحملة الثانية وفشلها في المزة
 - نور الدين زكي وسياسة تطويق الافرنج
 - ضعف القاطن ونزاع الوزراء - فوز شيركوه
 - صلاح الدين واعادة الخطبة للمسلمين
 - نور الدين بوجسر خيفة من صلاح الدين
 - وفاة نور الدين وترفع صلاح الدين الى السلطنة
 - الافرنج بين راسي الكوفة - خربته لهم في حطين
 - تحطم الملكة في القدس وممتلكاتها في فلسطين
 - تجمع الافرنج في صور - انتقالهم بعد وصول المركيس ككونراد المونغراني
 - متاع صلاح الدين - الملكة الثانية وحصار عكا
 - المعاهدة بين ريشار وصلاح الدين - وفاة صلاح الدين ونجوز السلطنة بعده
 - الصالبيك وانهم في استرجاع البلاد
 - بيبيرس - قلاوون - الاشرف - خليل

الفصل الاول

اختلف الناس في نظرهم الى الحروب الصليبية ، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرف
دعت اليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوروبية ما بين جرمانية وشمالية وفرنجية وابطالية من اقتناع
فحسب بوجوب انتزاع " بيت المقدس " وتخليص " قبر المسيح " والاستيلاء على الاراضى المقدسة في سورية
وفلسطين تسهيلا للطريق امام الكهجاج من اهل الغرب ليقدموا شعائر الدين ، ومنهم من رأى فيها حملات
هوجاء لحمتها الفظافة وسداها الوحشية فاعتبروها كائنها بجملتها حدث غريب نبا عن مجموع مظاهر التطور
العالم .

والحقيقة انها حلقة في سلسلة الاحداث التى بفضلها تمت العلاقات بين الشرق والغرب
منذ ايام التاريخ الاولى عندما امتد في مطلع الالف الاولى ق . م . نفوذ الفينيقي والآرامى من قلب عالم
البحر المتوسط . شرقا وغربا وسط جناحي حضارتها على جميع بلدانه من ^{صناعات} الحضانة السند حتى سواحل
الاطلسي .

ثم عاد ذلك السلطان فانكسر امام بقعة الفرس واليونان في القرن الخامس ق . م . وما ان
استثمر ابناء فارس بقوتهم المادية ونفوذهم العددي على منافسهم من ابناء هلاس حتى سمعوا الى غزو
بلادهم وضمهم في عفر دارهم ولما لم تكن الحركة حاسمة انقلبت الالة واذا بالمكدوني الكبير يقود القوم
سنة ٣٣٢ ق . م . ويحملهم شرقا حتى قلب الهند ، وكان ان امتزجت للمرة الاولى في التاريخ الحضارتان
الشرقية والغربية وكونتا نواة الحضارة الانسانية العامة .

ولكن ما ان دار الفلك دورته وهلت سنة التطور عليها حتى دب الضعف من جديد ففسى
مفاصل حكومات السلاطين والبطاللة ^{المدوية} والفرشيين وهلت في الغرب موجة جديدة هي موجة الرومان تحمل
جحافلهم الى حيث رفعت اعلامها فوق نخم ايران كما ركزت رايانها فوق جنوبى جرمانية وهلى هضاب
بريطانية .

وأظلل المسكران - الشرق والغرب - متقابلين متنازعين ، بقرب من ٧٠٠ سنة حتى
إعتراهم الضعف وسادتهم الفوضى فاطلت عندها كتابات العرب سنة ٦٣٠ من بواديهما صارخة مدوية ان
منحوا ابناء الآريون " فيها هم الساميون قد عادوا وها هي العروة آنية لنسب اجنحتها ونبتت في الشرق
والغرب حيومتها وكان ما كان من جمعها لثبات العالمين من خضرة سهول الصين الى تلاطم امواج الاطلسي

واذا الحضارة واحدة لا شرقية ولا غربية يعمل الجميع تحت راية الضاد ويستظلون بسلامها وينعمون
بعدلها .

وفيما العالم كذلك اذا بشعوب اوربه قد اهتزت وسرت في سرايها دما الحياة فقامت
تشنها غارات على العرب في اسبانية وسردينية وصقلية بخبة التفتت من قبضتهم ، غير انه كان عهدود
ظروف قامت البابوية تغتصمها فرصة للتدليل على عظم سلطانها وكبير نفوذها فسمت الى قلبها حروبا
" دينية " كما رغبها ان تكون . وبقيت هجوما فرنجيا معاكسا كما فهمها على العرب ^{بحسب} وفرضهم منذ
ذاك (ابن الانهرج ١٠ ص ١١٢)

فما هي تلك الظروف يا ترى ؟

من تلك الظروف في الشرق ان كانت الخلافة قد دب في جسمها الضعف بعد تلك
السطوة فاسترخت منها الاحصاب ووهنت عندها القوى فذلت امام الاتراك وثلاثت امام البويهيين (القرن
الخامس الهجري) فلاح في ذلك للمغرب بريق امل خلب وتوهم الروم ان يستعيدوا سطوتهم ولكن ما
لبثت الخلافة ان الفت نفسها متجددة الطاقة منبعثة النشاط بظهور السلاجقة على مسرح التاريخ
العام فعاد قلبها ينبش بالقوة وحيوشها تعمل ، بعد امتلاكها لآية الصخرى على ازاحة الروم من طريقها
وقد وقفوا على ضفاف البوسفور حاجزا دون اجتياحها لاوروبه من الشرق واذا ببزنطية تنادى بالويل
والنبور وتلؤلل مرتعدة خائفة فتستغيث بملوك اوروبه وامرائها وبابا رومية على اختلاف بينها وبينهم
في المذهب وتنازع في السياسة .

ولكن اتى للملوك والامراء ان يلبوا الطلب والاقطاع ملوثهم في حروب دامية وكيف للبابوية
ان تلبى دعوة القيصرية وهي في خطر من الامبراطورية فكان لا بد وان يدبروا لها اذنا صماء تارة ودعوها
بين الباس والرجاء تارة اخرى حتى واثت البابا ظروف اكثر ملائمة واستطاع التغلب على منافيه من أباطرة
الالمان العتاة في الغرب . هذا وكان ان تعظمت ايضا وحدة الاسلام في الشرق بموت ملكة السلاجوقي
سنة ١٠٩٢ فتبعثرت امبراطوريته المتراصة الاطراف اشلاء ونهضت عندها البابوية منتفا باوربان الثاني
سنة ١٠٩٥ تسعى الى توحيد جهود القوم بالقضاء على فوضى الاقطاع وتعنت الفرسان وتوجيههم
بسطر الشرق حيث تبسط سلطانها وترفع رايها فكان دورها في ذلك دور من ينير بالدهايات كوا من النفوس
وبموء بالخطب والمختلفات الحقيقة على السذج من الشعب فيدفع بهم الى تخيل ما ليس بالواقع محركة
فيهم اوتار التعصب الديني طورا ومثيرة عندهم للاحقاد الجنسية طورا آخر ، مصورة لهم قيام مأس في
الشام قد بولغ في وصفها . فكم اوهمنهم نحاسة الحجاج لسوء تصرف الحكام من السلاجقة معهم ولتعسف

الخلافة من الفاطميين بمعاملتهم وكم اظهرت لهم المسلمين قائمين على عبادة الاوثان وهاكفين على السجود امام صنم محمد ومهينين " للغير المسيح " . غير انها لم تستطع مع هذا ان تخفى الحقيقة كلها فلوحت لهم بما في الشرق من كنوز مدقونة وسهول خيره وممالك عظيمة وتجارات رابحة تنظرهم جميعها .

وهكذا ما زالت بهم حتى اندفعوا فوجات متتالية بين فترات متفاوتة لمدة قرنين كاملين من الزمن تكسرت اخيرا على صخور الوحدة في سورية ومصر وثلاث تاركة من الانار ما هو باق الى يومنا هذا وما لم بقو على البقاء مع الايام .

وليس يستغرب ان تلقى تلك الدعاية عند مختلف الطبقات من الشعوب الأوروبية آثارا صافية وقلوبا واجبة الم تكن مثل الحياة عندهم دينية تزهدة كما رسمتها لهم الكنيسة والتقاليد وطبعتهم عليها الطقوس والعراسيم فان لم ينح لافراد الشعب ان يحبوا جميعهم في عزلة الدبارات مع الرهبان والنسك فلا امل من ان يعتاضوا عنها بحمل الصليب وفمس الاكف بدما " الوثنيين " فيكفروا بذلك عن خطايا ارتكبوها وهنالوا رضى الكنيسة ورواسائها . ثم البس^(١) في استجابة الطبقات الدنيا من الشعب تخفيف عن كواهلهم فكم كانوا يلقون في كسب العباك عننا ونصبا . كما انه (٢) كان للفرسان والامراء والملوك فيها سبيل لتحقيق مراميهم في المغامرة وحب الفز والفنح والسيطرة ولسنا بناسين ذلك الشعب الشمالي " النورمان " وتدفع جماعاته من منازلهم في الشمال الى فرنسا وانكلترة وسردينيا وصقلية بعد ما ارتادوا البحار واجتازوا الانهار ثم كيف لا يجيب النداء الابطالون من بنديقيو - وجنوبيين وبهزيين والكل منعك الى اكتساح الشرق واسواقه واملاك طرق تجاراته واخيرا لماذا لا يليق الفرنسيون من اهل الجنوب الدعوة وفي ذلك متنفس لاحقادهم المتراكمة في الصدور . السمع يسبق لهم ان مدوا يد المساعدة الى اخوانهم الاسبان من المسيحيين ضد المراكبيين من العرب المسلمين تلك هي الظروف التي فيها ولدت " الحروب الصليبية " .

ولعلها هي التي جعلت بعضهم يصفونها بالوحشية والفظافة بل والخرابة ايضا متوهمين اسبابها الحقيقية وهي ليست في الواقع بجمليتها من مكوناتها في هي* بل ولا من مميزات البنية . فما هي اذاً العوامل الحقيقية لها ؟ ان الدوافع الحقيقية لها في اعتقادنا انسان لا ثالث لهما . العامل التاريخي وهو ضعف الشرق بعد المنع والسطوة وشعور الغرب بوجود الثقلت منه واسترجاع اراضيه بل والاخذ منه بالنار . العامل الاقتصادي الذي تنتقل به مرافق الحياة الى ابدى القوم مع انتقال المالك لايديهم بفعل الاول . وهي كما ترى حدث طبيعي منطقي

كان لا بد له من ان يقع ولولم يكن هنالك بابوية او خلافة ولا اسلام او مسيحية ايضا وليس ما يتوهم به بعضهم من دور خطير لعبه بطرس الناسك وامثاله في استنارة الفلاحين وقيادتهم لهم في حملات شعواء الا اسطورة الاجبال وبدعة الخيال . هذه هي الحروب الصليبية كما تخيلها بعضهم وكما تصورها البعض الاخر وتلك حقيقة امرها واسبابها ومهداتها نرحوان نكون قد وفقنا الى تبيانها وكشف اللثام عن كنهها حتى نتقدم الان الى درس ادوارها وما تطلبت فيه من ظروف ومناسبات .

مرت الحروب الصليبية في ادوار ثلاثة خلال قرنين كاملين من الزمن اعترض الثاني والثالث منها فترة هدوء نسبي جاءت على اثر وفاة السلطان صلاح الدين وقيام النزاع بين خلفائه من اخوته وابنائهم .

وقد امتد الدور الاول نحو من ٤٠ سنة من ١٠٩٧م الى ١١٤٠م امتازت حملاته بالحمية الدينية عند القائمين بها وبكثرة المشتركين بها من الشعوب والافراد . وقد برز بعض القواد من كان لهم اثر بعيد في سير الحرب ونتائجها . اما الشعوب التي استجابت لدعوة البابا اوربان الثاني في مدينة كليرمون من فرنسة سنة ١٠٩٥ فعديدة منها النorman والابطالون والفرنج ، الا ان وفرة عدد هؤلاء من جهة واتراصطدام العرب بهم منذ ٧٢٣م في بوانيه وتوركان ما جعل العرب يطلقون اسمهم على الجميع فيقولون "حروب الفرنج" رغم تعدد العناصر المشتركة فيها من غير هذا الشعب .

ومن ابرز قوادهم الامراء بوهمن سيد اورانتو وابن اخيه تنكريد وكلاهما من النورمان ثم غودفروا امير بويون في بلجيكا واخوه بولدوين وريمون الطولوزي امير بروفانس في جنوبي فرنسة وغيرهم آخرون ممن كانوا اقل شأنًا وضعف اثرهم .

وكان من نتائج هذه الحملة ان تغلب القمم على المسلمين في آسية الصغرى واضرد قبصر الرم حسب تعهد الفرنج له ^{مضعف} ما كان فقدوه من قبل ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ثم تقدموا الى سورية واسسوا فيها امارتي الرها وانطاكية ثم "مملكة اللاتين" في القدس وكونينطة طرابلس .

وليس باستغرب ان يتساءل الواحد منا متعجبا "كيف استطاع اولئك الفرنج ان يتغلبوا على السلاجقة والفاطميين بتلك السهولة وتلك السرعة مع ما كان بينهم وبينهم من فوارق . / . . .

في العدد والعتاد وفي القوة والاستعداد * الم يكن الفرنج غرباء في بلاد جهلوا منها دروبها وشعابها كما طالت فيها عليهم طرق مواصلاتهم فتعذرت عليهم منها سبل التنوين والإعاضة * اما كان عليهم ان يهاجموا الحصون والقلاع ليدكوا منها الاسوار ويحرقوا الابراج ثم لئن ربطت راية الصليب بهم وحدانهم الم تكن الاحقاد القومية قد باعدت بين قلوبهم كما انهم وان انفقوا على الفتح وكسب المغنم فقد اختلفوا على اقتسام الاسلاب وتوزع المقاطعات فلا عجب وحالتهم ما وصفنا ان يفقد حملتهم طابع الوحدة في الغاية والقيادة ومع ذلك فقد فازت وكان من نتائجها السرعة ما اسلفنا ذكره فما هو تحليل ذلك ؟

الحالة

ليس تحليل ذلك بعسير مني تفهمنا المصلحة في الشرق والرب وربنا ما كانت عليه من ظروف قاهرة ساعدت على ظهور تلك النتيجة المستخرية .

كان سبق للمسلمين في الشرق ان شهدوا في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر م) وحدة في صفوفهم بم قامت اولى امبراطوريات الاتراك على سواعد السلاجقة وامتدت اطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها اراضي الخلافة ايضا وقد رفع قواعدها السلطان طغرل بك سنة ٤٢٥ - ٤٥٥ هـ . ١٠٢٣ - ١٠٦٣ م . فاستولى في سنة ٤٢٥ هـ و ١٠٢٣ م على خراسان وقرمن العمال وخطب له في نيسابور . وما زال امره في علو حتى هابه ملك الروم وهاداء ثم انفذ رسوله الى الخليفة القائم بامر الله * بالهدايا وسار يريد بغداد فدخلها لخمسين بقين من رمضان سنة ٤٤٧ هـ . و ١٠٥٥ م . ولقب بالسلطان ركن الدين وقضى على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده وازال دولة بني بويه واخبر مات بالرى سنة ٤٥٥ هـ و ١٠٦٣ م . وقام بعده بالامر ايلك اخيه ضد الدولة ابن سنجاع محمد ابا ارسلان فسار الى حلب واقهر عليها صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ولقى ملك الروم وهزمه في معركة ملازكرد الفاصلة سنة ١٠٧٠ م . و ٤٦٣ - ٤٦٤ هـ واستولى عندها على جنوبي الاناضول وشمالي سورية ثم تقدمت جيوشه جنوبا ففتحت القدس والرملة وحضرت دمشق غير انه مات في ربيع الاول من سنة ٤٦٥ هـ و ١٠٧٢ م . وقام بالامر بعده ابنه ملكشاه فاستولت جيوشه بقيادة اصغر اخوته تنقضى على دمشق كما فتح آسنقر الموصل ثم قدم ملكشاه بنفسه الى حلب وسلمها الى هذا الاخبر وهاد هو الى بغداد فامتد حكمه سبع عشرة سنة وشهرا وكان يخطب له من اقصى بلاد الترك في الصين الى بلاد اليمن بيد انه ما كاد يلقى حقه سنة ٤٨٥ هـ و ١٠٩٢ م . حتى تغير الموقف في الشرق وتبدلت الطل غير الحال اذ قامت المنازعات بين اخوته وابنائهم فتمزقت وحدتهم وانقسمت الاسرة الى فروع ثلاثة - واحد في بلاد العجم جت تبلى افرادهم واستجموا وآخر في الاناضول

حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم اما الثالث فكانوا في سورية حيث استعربوا وتوطنوا . وكان القوام
تتد سيد سورية فقام بحاول بسط نفوذه على جميع الامراء وقد بلغ في حملته سنة ٤٨٢ هـ و ١٠٩٤ م .
شرقا مركز السلطنة نفسه غير ان السلطان بوكيارق رده من حيث اتى واستخلص السلطنة لنفسه واحتفظ
تتد عندئذ بدمشق وحلب وقين نائبا عنه في الرها نوروس الارمنى كما قبيل سليمان بن ارفش على القدس
وهكذا قامت دولته حاجزا بين السلاجقة في مدينة ^{قونية} الاناضول وبين الفاطميين في القاهرة من مصر .

وما ان توفي الله نبيته سنة ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م . حتى خلفه ولداه رضوان ودقاق
في كل من حلب ودمشق اما في الجنوب فتقدم جنود الملك الافضل شاهنشاه وزير الفاطميين وطرد
الارمن من القدس سنة ٤٨٩ هـ و ١٠٩٦ م . وقد تم ذلك كله دون ان يعبره بركيارق اقل عنابة
او اهتمام بل اكتفى بان يعترف له ابنا نبيته بشي . من النفوذ الاسوي غير انه ساند الامبربريوس
في انتزاع الموصل من بني عقيل العرب ثم اقامه نائبا عنه في الغرب .

تلك كانت حالة المسلمين في الشرق خلال القرن الخامس الهجري او الحادي هو
الميلادي اما حالتهم في الغرب فلم تكن خيرا منها . اذ كانت خلافة الامويين في الاندلس قد هال مال
نجمها الى الافول وشرع النصارى الاسبان يزحفون من الشمال لاسترداد اراضيهم واخراج المسلمين
منها كما ان النورمان كانوا ايضا قد اخذوا في ١٠١٨ يزحفون الى كاتالونية لمظاهرة الاسبان هناك .
هذا فضلا عن ان كفة النصارى من الغرب ^{الفرنجة} في قلب البحر الابيض المتوسط اخذت ايضا في الرجحان
وجعلوا يستردون الجزر القريبة من ايطاليا فاستولى البيزنطيون على كورينثية في ١٠١٦ وبعد حرب امتدت
ثلاثين سنة ١٠٦٠ الى ١٠٩٠ استخلص النورمان من العرب صقلية . فليس عجبا ان يكون هذا وذاك
من مشجعات بوهمند وهو سليل هثولا لان بطمح الى تاسيس ملك له في الشرق او الغرب على حد
سواء . ولذلك نقرر ان حملات الفرنج على الشرق انما جاءت متممة لتلك التي سبقتها في الغرب وهذا
نفسه ما يقول به المؤرخ ابن الاثير صاحب الكامل . المرجع [ج ٢ ص ٨٠ ص ٨٨٢]

في تلك الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين في آسيا واوروپة وصلت جموع الفرنج الزاحفة
من الغرب عن طريق البر والبحر الى القسطنطينية ولكن كان عليهم قبل ان يجتازوا المضيق الى الاناضول
ان يببدوا شكوكا قامت في نفس الكسوبر لدى رؤيته اباهم اذ وجد نفسه بين امرين اما ان يعثوهم
حلفاء قد توافدوا للتعاهد معه على قهر العدو المشترك ثم اقتسام ما ينتزعونهم بينهم بالسوية واما
ان يعتبرهم اتباعا فيكون له وحده الحق فيما يفتحون من ممتلكات العدو وعلى هذا الراس الاخير

استدرجهم الى ان يتعهدوا له بان كل ما يفتحونه من قديم مستلكاته فهو له وكل ما يسمح به لهم بملكوته باسمه فعادوا كانت النتيجة عندها نفتت في الصدور احقاد قديمة زادت في توسيع شقة الخلاف بين الكيستن ان الشرق ظهر بظهور المستبد فلا الامراء اصابوا ما كانوا يتوقعون ولا الابطالون - ما عدا البندقية لما كان بينها وبين القسطنطينية من قبل - كانوا راضين عن سياسة التبصر الاحتكارية ، اضاف الى ذلك ان بقاء القوم في مستلكاتهم الجديدة كان في خطر ان ملوك الروم كانوا ينظرون الى اماره انطاكية مثلا التي اختص بوهمند نفسه بها رغم تعهده لأكسيوس - بعين الحسد ولم يتورعوا عن نُفْرة المسلمين في استردادهم اماره الرها من الفرنج فيما بعد ولعل الكسيوس كان مغدورا فيما ذهب اليه وذلك بسبب سوء تصرف القوم الى حد لم يستطع معه ان يرى فيهم شركاء له في حمل السلاح وهكذا نرى ان الروم والفرنج لم يكونوا على وفاق رغم ما كان يبدو عندهم من وحدة دنية وان اختلفوا مذ هبا وما ان تم الاتفاق بينهم وبين الكسيوس ولو ظاهرا حتى تمت طلائعهم في شهر ايار من سنة ١٠٩٧ الى الاناضول في مستلكات قلع ارسلان السلجوقي وفي اقل من شهر استطاعوا انتزاع نيقية من حاضيتها فتقدموا عندئذ الى سهل بوريلام *Burilam* حيث قضوا على جيش قلع ارسلان في واحد نموز فاسترد الكسيوس نصف ما كان قد انتزعه السلاجقة منه من قبل . اذ كان عليه ان يواجههم ويصد اليهم وحده دون ما محونه بلقاها من حلاجة التراق او سورية .

فما كان من الفرنج الآن الا ان تركوا قلع ارسلان بطمئن الى عاصمته قونية في موقفها الحصين ونجحوا مرفقا بجنوب الى كيليكيا حيث بقوم الارمن والرم على حراسة بعض المدن الامر الذي سهل مهمتهم فانتزعه " تنكرد " طرسوس ثم فيما كان الجيش الرئيسي يسير جنوبا الى انطاكية وعلى راسه بوهمند كان يوفدون بسير شمالا بشرق ثم اتجه عند مرده الى الرها فلم يجد كبير عناء في فتحها وعليها كما راينا ذلك الارضى نوروس وفي اواخر تشرين الاول سنة ١٠٩٧ كانت جموع الفرنج قد وصلت الى جوار انطاكية وكان باعسيان صاحبها عندئذ على طريقة للاشتراك مع رضوان صاحب حلب بمباغنة جناح الدولة امير حمص وذلك لمناداته بنفسه مستقلا عن حلب فما ان سمع باعسيان باقترب الفرنج من اراضيه حتى عاد مسرعا الى مدينته التي كانوا قد سبقوه اليها واقاموا الحصار عليها من ١٢ تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ذاق الفرنج خلالها الامرين اذ ما كاد الشتاء يحل حتى فرسهم البرد وانتشرت بينهم الامراض وهضم الجوع بالرغم من تامين المراكب الراسية في السويدية ، مرفقا انطاكية ، لاهائتهم ومن مساعدة الارمن لهم ايضا . اما السلاجقة فبالرغم من تنازعهم المحلي قد ثابروا الى رشدهم واتفق كل من جناح الدولة وُقُفَاق على مظاهرة

بأغصان لا سيما وقد علموا بان الفاطميين شرعوا بفراوض الفرنج طمعا باستغلال فلسطين منهم فهاجم الحلفاء موقعة الجبل الفرنجي عند بلدة البارة فاخروا بذلك الزحف المبار على المدينة وان لم يردوهم عنها نهائيا . بومعد اسبوعين او اكثر وصلت من احلب النجدات فصدّهم الفرنج عند بذرار وصارم . غير انه بعد اربعة اشهر اخرى من ذلك الحين غدر احد الارمن بأغصان ودلّ بوهمند على منفذ سرى الى المدينة فدخلها رحاله في ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ومات بأغصان فيما كان بطاب النحلة لدى علمه بسقوط المدينة . ولكن الفرنج ما عنوا ان راوا كربوفا ابر الموصى وقد وصل بغتة على رأس جبل كبير مقبم الحصار على انطاكية واستمر على ذلك لمدة ٢٥ يوما سقطت المدينة بعدها وبقيت الحامية في القلعة صامدة حتى اوشك القوم ان يصلوا الى اتفاق مع كربوفا غير ان هذا كان مكروها عند بعض فرقه كما ان الخلاف كان قد دب بينه وبين الفرنج في جيشه بسبب مكابذ رضوان فاخذ الكثيرون يغادرون فرقتهم . واما الفرنج فعداودهم الاما على انزاله نور على " الحرة المقدسة " وصدوا فسر مواضعهم مستبسلين حتى تمت لهم الكلبة . الخلبة

فلما استسلمت لهم الحامية بعد اسبوع ارتار القوي فاجبر الزحف على القدس حتى شمس تشرس الثاني عليهم يستريحون من طول ما اصابهم من الهنا ويستقلون مددا جديدا يفتنون به صفوفهم بعد ما نزل فيها من الخسارة في الارواح بين الفرسان على الاخير . هذا مع ما قام بينهم من نزاع على قضية انطاكية وما اذا كانوا يتخلون عنها للقبرصاء ببقونها في عهدة بوهمند . وفيما هم فسر نزاعهم وترددهم كان بوهمند وشكرد به ملان على نفوية مراكزهما في كل من كليمكة وانطاكية كما ان ريمون تقدم من البارة وانزعجها اما غودفريد فكان يسير الى تابين مركز اخره يحدون في منطقة تل باء رحيب قسروا من الزمان راجعا غاديا بينها وبين انطاكية حسيما كانت تقتضيه الظروف والمصلحة

ولكن ما لبث التامران دب في القوم للتأخر عن الزحف على القدس مما جعل المتنازعين يتفكان على ماغنة المدة وبعد شهر من الحصار سقطت المدينة وكان في ذلك حل لمشكلة اجتمعت كلمة الاكثرية على المسير جنوبا فما كان من ريمون الا ان رصح وساروا جميعهم ما عدا بوهمند ان عاد هو الى انطاكية حيث ثبت قدمه .

وما ان سار ريمون مصعدا في وادي العاصر حتى وجد نفسه اما مقاومة ضعيفة ان فضل الحرب في تلك المدن تقديم الموت لهم وروئيتهم يستسلمون في زحفهم جنوبا على ان يقاوموا او يبرؤوا اراضيهم تتخرب .

فتقدمت اليهم وفود حمص وطرابلس وهم قد ساءلوا حصار الاكراد فكان في ذلك ما اوصى اليهم رمون تاسيس كنيسته له تجاور انطاكية وتفوقها ولعل هذا الامر نفسه ^{او} اليه ان يحاصر عزة القائمة على كنفج لبنان الشمالية على مسافة قليلة من الوادي الواصل بين حمص وحماء والساحل فغضب فيه رمون حياهم في ١٢ شباط بعد مغادرته حصار الاكراد وما ان تقدم من طرطوس حتى غادرتها حاميتها ما جعل الافرنج يتخلون من جديد بالاساطيل البحرية ويتمنون فضلا عن انضمام قوى جديدة اليهم ثم اتخذوا السير على طول الساحل وحاصروا حبله في طريقهم وهكذا اجتازوا سهل طرابلس ومضيق نهر الكلب دون اقل مقاومة وهكذا ظلوا حتى وصلوا الى فلسطين حيث مروا بحكا وحيفا وقسارية وارسون وما ان توغلوا قليلا ففسى الداخا حتى وصلوا الى مدينة الرملة فوجدوها وقد غادرتها الحامية فكانت هذه اولى ممتلكاتهم ففسى فلسطين فاقاموا فيها حامية وفي صباح ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ اطلت عليهم المدينة المقدسة وكانت حاميتها من الفاطميين تقدر ب ١٠٠٠ رجل اما الفرنج فكانوا يقدرون بما يقرب من ٤٠ الفا منهم عسرون الف مقاتل وبعد حصار دام اكثر من شهر سلمت الحامية في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ على ان يسمح لهم بالالتحاق بحسقلان سالفين .

غير ان القوم نكثوا العهد واعملوا السيئ في رقاب المسلمين في مذبحه فظلمة جرت فيها الدماء في الشوارع بل "خاضت فيها الخيول حتى ركب الفرسان" وهذا الشروب كان الفرنج قد نفقوا غل صدورهم فذبحوا يرفعون اكلهم الملطخة بالدماء في الصلاة الى الله شكرا على ما اولاهم من نعمة النصر على "الكفار" غير انهم ظلوا في خوف من الحيف المرباط في حسقلان فما ان علموا ان المصريين يستعقون للكرة عليهم باقتوهم في الغرب من حسقلان وفازوا عليهم في ١٢ آب سنة ١٠٩٩ ثم كادوا يدخلون المدينة لولا ان الخلاف بين رمون وفود فريوا ما جعل المسلمين يتقون ويرفضون التسليم .

وما ان سلم القوم "القدس" حتى اغرضتهم قضايا جديدة منها - الحكومة وشكلها ان برز عندئذ حزب الكنيسة بدعم رمون لاقامة حكومة اكلمريكية . ولما رفض هذا ترشيحهم له بدعوى انه لا يقبل تاحا في مدينة نالم فيها "السيد المسيح" تقدم للمنصب غودفريد مؤنرا لقب "حامي القبر المقدس" على لقب "صاحب التاج" وبعد ايام شغلها احد رجال الدين منصب نائب البابا فكان النائب الاول المنوفى .

غير ان هذه القضية عادت الى الظهور لبدء وفاة غودفريد ان ان يوهند سيد انطاكية قد رشحه للمنصب حزبه وكاد حزب الكنيسة هذا بفوز بامنيه لولا ان وصل بفردوس اخو غودفريد من الرها وتدخل مع حزبه في الامر وفاز بالتاج في سنة ١١٠٠ وعلى هذه الصورة تم تاسيس "ملكة القدس"

ولكن استمر النزاع بين الفكرتين (العلمانية والاكليركية) حتى سنة ١١٠٣ عندما فاز بغداديين بعزل نائب البابا ومع ان الخلاف بعث في عهد بغداديين الثاني (١١٢٨ - ١١٣٠) غير انه ختم بموت النائب البابوي الثالث وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية .

وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة رغم دعوى قيام الوحدة الدينية . الا ان فوز الملكية لم يكن ضربة على الكنيسة فحسب بل كان كذلك على حزب بوهمند النورمانى ايضا اذ ان انطاكية لم تكن اثنا حسدا للقدس من الاكليركيين للعلمانيين . الم يكن بوهمند اكثر نفرا من غودفريد كما ان انطاكية اكثر خضيا من القدس نفسها ، لكن القدس بمركزها الدينى كانت تجعل قلوب الآلاف تهوى اليها سنويا ثم وان لم يستفروا جميعهم فيها فقد كان الكثيرون منهم يبقون وكان في ذلك سبيل دائم من الواقدين الذين كانوا يذنون حيوئها ويقدمون بعدديد دهم فجموه الفرنج . ولا بد من الاشارة الى ان قضية العلمانيين والاكليركيين تدل على صحة ما ذهبنا اليه سابقا من ان " الحروب الصليبية " كانت تنسبر بالصيغة الدينية فقط .

واما القضية الثانية فكان السحر وراء حماية " الملكة الجديدة " من الفاطميين مع العمل على توسيع رقعتها على حساب ما يحيا ورحل المدن والقرى وهذا هو ما اضطلع به غودفريد وبعض خلفائه .

هذا مع العلم ان ذلك التوسع لم يكن الى الداخل لقلعة المحاربين من الفرنج ولتوسيع دمشق وضعف القاهرة من جهة ثانية . ثم لو مداهم القدس ان تلتفت شرقا لتعذر عليها التوسيع لذلك كانت مضطرة لان تلتفت دائما الى الغرب وعليه فبكون الفضل في توسعها يرجع الى الايطاليين واساطيلهم بينما الفرنج الواقدون عن طريق آسية الصغرى كانوا قلما يستطعمون الوصول الى سورية بسبب قوة السلاخقة ولاستكفاف البرم من متابعة الحرب والقتال ايضا .

وكان بين الايطاليين الحنوم والبيزنطيين والبندقيون غير ان الجنوبيين كانوا اكثرهم اثرا في حياة " ملكة القدس " ولا عجب اذ كان قد سبق للقسطنطينية ان منحت البندقيين بعض الامتيازات منذ سنة ١٠٨٠ م . هذا مع العلم ايضا ان البيزنطيين كانوا امداقا انطاكية

بينما كان الجنوبيون حلفاء القدس وسوء ازمته استنطاع بغدوين الاول ان يقزوا ارسون وفسارية وهكذا . لكن الجنوبيين قد ساعدوا ريمون في فتح حبيلا سنة ١١٠٤ كما ساعدوا خلفه في فتح طرابلس سنة ١١٠٩ وكذلك فقد شدد ازر بغدوين في سنة ١١١٠ ملك النوروج في فتح صيدا وفي ايام بغدوين الثاني ظهرت البندقية القدس وذلك عندما رأت ان جمهورية البيزين في سنة ١١١١ قد نالت بعض الحقوق دونها من القسطنطينية وفي سنة ١١١٨ اضطرت ايضا الى ان تومي وجهها لسطر القدس فقدم اسطول لها مؤلف من ١٢٠ مركبا في سنة ١١٢٣ وصّد هجومها للمصريين كما ساعد في فتح صور سنة ١١٢٤ . وكان ذلك مقابل السماح لها بالدخول الى فلسطين والتمتع بامتيازات وصلاحيات عديدة ومع ان الامور اختلفت بينها ومن الريم فقد حافظت على امتيازاتها في القدس وفي القسطنطينية ايضا .

وهكذا فقد اتسعت " مملكة القدس " حتى امتدت على طول الساحل من بيروت (١١١٠) الى الحريث على الحدود المصرية ومع هذا الامداد جنوبا وشمالا فلم تكن لتتسع شرقا الى ابعد من مقاطعة الاردن . اما في الشمال فكانت تحدها امارة دمشق .

لكن بغدوين الاول استنطاع ان يضا في الجنوب الشرقي حتى ابلة على البحر الاحمر وصدا للمصريين في تلك الجهة اقتحم في سنة ١١١٦ قلعة الشوب في منطقة الطريق بين ابلة والبحر الميت وفي سنة ١١٤٠ ايام الملك فلك قد امضى الى ذلك كله الاراضي الواقعة شرق البحر الميت حيث اقاموا قلعة الكرك .

وكان لبعض هذه الفتوحات عوامل تجارية ان كانت تقع على الطريق العام للتجارة البحرية والبحيرة بين دمشق والقاهرة فيكون العاملان الاقتصادي والاستراتيجي قد تضافرا على رفع " مملكة الفرنج " الى مركز السيادة في فلسطين .

غير ان القدس وممتلكاتها لم تكن في الحقيقة سوى النواة التي عليها مدار الامور في المقاطعات الفرنجية الثلاث - الرها وانطاكية وطرابلس - ان الاولى منها وقد تأسست سنة ١٠٩٨ من بلدوين الاول نفسه كانت بحكم الواقع تامة للقدس وقد حكمها بغدوين الثاني قبل حكمه على القدس كتابع لبغدوين الاول من سنة ١١٠٠ - ١١١٨ ثم بعد ذلك تعاقبت على حكمها اميرات تل باشر من اسرة جوسلان حتى فتحها زنكي سنة ١١٤٤ ولما كانت تقع الى الشرق

من الفرات مع انصالحها ببلاد الارمن وبالطرمه التجارى العام الممتد على مجرى الفرات حتى الرقة والمنحه من ثم الى اناككة ودمشق نفوا ولما كانت مقاطعة الرها تقوم في هذا الموقع كانت حباتنا قصيرة الامد .

اما المقاطعة الثانية - كونتين طرابلس - فقد وقعت تحت نفوذ القدس في عهد ميكر من تاريخها ومع انها قد اسمها رمون ما بين ١١٠٢ - ١١٠٥ بمذاهرة الكبوس وبالاتفاق مع الجنوبيين فانها لم تثقل على العاصمة حتى سنة ١١٠٩ وحتى قبل هذا الفتح اندلعت سبب ما قام فيها من نزاع بين ابن ريموند وابن اخيه علو وراينها - الى مساندة القدس لها ومساعدة الملك بن دوين الاول فقام لها فتح العاصمة . وهكذا نرى ان كونتية طرابلس ايضا قد وقعت تحت نفوذ القدس منذ بدء تاريخها .

وفي تلك الاثناء - ايام حكم بلدوين الاول - كانت اماره انطكية - وعلى ادارتها اولا تنكرد ثم روجير بعد سفر بوهمند - مشغولة المدين بالمنازعات مع جيرانها المسيحيين في كل من طرابلس والرها ومع امراء ماردين والموصل من المسلمين . غير انها عند وفاة روجير سنة ١١١٩ دخلت تحت وصاية بن دوين الثاني ملك القدس حتى سنة ١١٢٦ عندما بلغ بوهمند الثاني سن الرشد وكان بوهمند قد تزوج باحدى بنات بن دوين ولدى وفاته سنة ١١٣٠ غدا بن دوين الثاني للمرة الثانية الوصى على المملكة . فبمك اعدار اناككة منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة للقدس . وعلى هذا مستطاعنا ان نعتبر عهد بن دوين الثاني في سنة ١١٣١ الوقت الذي فيه تم نشوء " المملكة اللاتينية " بحدودها المعتدة من بيروت في الشمال الى العريش وابلة في الجنوب وضمها لممتلكاتها الشمالية الثلاثة . وعندئذ قد تيسر سيرة امورها .

الا ان العوامل التي ساعدت الفرنج على تاسيس هذه المملكة حدودها وملحقاتها فترجع بالدرجة الاولى الى ما ساهدناه في سورية من فوضى مما سببته ومنازعات اقطاعية واختلافات جنسية ودينية . اضف الى كل ذلك ما كان السوريون انفسهم قد قدوروا من شهور بالكرامة القومية لتعدد الحكام عليهم وكثرة ما لاقوه من عنف وحسد . هذا مع مساندة الروم والارمن للفرنج . اما القول بيسالنتهم فلا نستطيع رده اذ شهد لهم بذلك خصومهم انفسهم غير ان ما يدهيه سيقنسن من تفوقهم بفنون الحرب والقتال . فنسح لانفسنا ان نفقد منه موقف المردد بقوله اذ ان صح الاخذ به بالاضافة الى الفاطميين وهم في اياك شيوخوتهم فضلا

نستطيع الاخذ به بالاظنة الى السلاجقة وقد كانوا في ارج مجدهم العسكري . وان ننسى
فلسنا بتناسين ما قدم الابطاليون من مساعدات قيمة بغض اساطيلهم بنقلها الحجاج والجنود
وتزويدهم بالاعاشة والمؤن وغيرها من آلات الحار ومواد البناء . واني لأرى من واهي هنا
ان انفي عن مجموع النصارى الوطنيين مهمة ~~هم~~ باراً، اذ كثير ما انهمم بعض المعرضين بانهم
مدوا يد المساعدة للفرنج ضد مواليهم من المسلمين منذ ان اظا القوم على البلاد وانهم
فعلوا ذلك تعصبا للروابط الدينية . اما الحقيقة التي لا بد من ثباتها ان الارض - وهم من
النصارى كانوا اولا من ظا هر الفرنج ولكنهم فعلوا ذلك بدافع قومي وحبا بنيل الاستقلال
لا بدافع التعصب الديني وكذلك لم اقد في مالمعاني على ما يبرهن لي ان مجموع طائفة من
الطوائف في لبنان قد انضمت الى حموم الفرنج وان اكن قد وقفت على ما بوض بصرامة ان بعضا
من الموارنة والمسلمين قد انضموا الى القوم بعد تغلبهم به امل الارتزاق ليس الا . كما ان
الفرنج قد استطاعوا في ابان سلطانهم ان يخربوا البعض للتحند عندهم وتاليف ما قرؤوه بالفرق
الحليفة حتى تسير تلك الفرق في القتال على النظام المعروف اذ ذاك في البلاد .

تلك كانت كثرة العوامل التي مكنت الفرنج من التغلب على اهل البلاد
والفوز بتاسيس ملك لهم في تلك السرعة وذلك بسر . ولهم في اعتقادنا من الاهمية بمكان
ان يستطيع القوم ذلك فحسب بل ما هو اهم منه قدرتهم على المحافظة عليه والاستمرار فيه
طويلا . وهذا ما نحب ان ندرسه ونقيم بين يدي القارى ما توصلنا اليه من نتائج .

لا بد لكل دولة تأسست من طرية النزوال والفتح ورغبة في الاحتفاظ بكيانها
فضلا عن توسعها وتقديمها مهما اتسعت رفعتها او ضاقت نفوذ لا بد لنا هذه الدولة مسن
انظمة داخلية تدعيمها ومؤسسات تدعيمية تشد اجزاءها وتربط اقسامها بعضها ببعض بل ومن
قوة مسلحة تدعيمها من غارات الغير وتعد عنها المعتدين .

فلنتذكرم استطاء الفرنج - وقد اناموا لانفسهم في حزم من سورية خلال
ثلاثين سنة او اقل " دولة لاثنية " تكونت من " مملكة القدس " ومقاطعة الرها وامارة انطاكية
وكونقة طرابلس حتى شملت اراضيها الساحل السوري باحصاه مع تبسط قلبا الى الداخل في الشمال
والجنوب - ان يحتفظوا بها . ولكي نغذ على الحقيقة ليل ان نقررها بجدر بنا ان ندرس اولا

حالتها الداخلية في انظمتها الادارية والقضائية والمالية وثانيا مكانتها الخارجية في قوة جيشها ومختلف فرقها .

واذا توجهنا الى التاريخ بهذا السؤال " الى اي حد استطاع الفرنج الاحتفاظ بدولتهم في الشرق خلال " الحروب الصليبية " الفناء بحسينا على الفور بقوله " الى امد قصير " وذلك لاسباب داخلية وهوامل خارجية تضافرت معا على اهلاكها قبل ان تفرغت للعمل على توسعها والاخذ باسباب التقدم .

اما الاسباب الداخلية لذلك فتتلخص فيما يلي =

(١) - ان انقسام الدولة الى اربع وحدات سياسية هي = مملكة القدس ومقاطعة

الرها ، وامارة انطاكية وكونتة طرابلس كان وحده عائقا هاما ، طريق تقدمها وهد اجزائها وربط اقسامها بعضها ببعض . واذا ما ذكرنا ان هذه الوحدات كانت تتألف ايضا من عناصر مختلفة وان امورها كانت في ابدى زعما متنازعين ، ادركنا كم كان في هذا وذات من اسباب ناعية للتناحر والتباغض . الم تكن الرها والقدس تمان بالنسب الى البوغنديين بينما كانت انطاكية نورمانية الاصل وطرابلس بروفنسية الدم . ثم ان الخلاف الذي نشب بين الزعما المؤسسين قد انهاء بعدهم بالخلفاء ايضا كان ذلك سببا رئيسا في فشلهم وعدم تعاونهم ودم في ارجح الاوقات من تاريخهم فضلا عن انسان بعضهم الحسام احبانا وقتالهم بعضهم بعضا بل وقد اشد الآخرين مع المسلمين احبانا اخرى .

(٢) ثم ان قلة عدد الفهمين من الفرنج في سورية مالاضافة الى سكانها من المسلمين

وغيرهم مع ما كان بين اولئك من الخلاف والفرقة وهشولا من الوفاق والوحدة كانت عاملا هاما اخر في هدم تلك الدولة . فان عدد الوافدين منهم قد بالغ المؤرخون الاوان فيه كثيرا مع ان الذين غادرو منهم اوطانهم فعلا لم يصل منهم الا عدد ضئيل الى سورية ولعللون منهم نوانوا في الشرق جدا . وعليه فيكون سكان " الدولة اللاتينية " من الفرنج مع من كان بينهم من الزرباء ومن المسلمين اقل بين القوى المهاجمة لهم والتي كانت اكثر منهم تماسكا واتحادا .

(٣) - واذا ما امرقنا الى هذا اوذاك ما كان منهم ومن الروم من مداحنا : احبانا

ندرا مبلغ ما كان لذلك من بعد الاثروسو العاقبة . لهذه الاسباب عقب الوقت القصير الذي فيه

أحرزوا ذلك الفوز السريع وقت أطول اضاعوه في المشاحنات والمنازعات بينما استفاد منه المسلمون باستعادة نشاطهم واسترداد وحدتهم .

(٤) ولم يكن ذلك وحده من عوامل فشت في عضو " الدولة اللاتينية " من الداخل بل كان هناك ما هو شر منه ومعنى به حالة كل من تلك الوحدات الأربع نفسها فلو أخذنا " مملكة القدس " ودرسنا مكانة الملك فيها من اتباعه " البارونات " لوجدناه بحكم القانون كأحدهم وأن من سوء " كان يميزه عنهم فهم فهو إجماعهم على اختياره رئيسا عليهم كما كان الحال مع غوفريد وسيدوس الأول لكن اعتلاء العرش ما لبث أن أصبح وراثيا فكان للمجلس الأعلى أن يتدخل فيما كان يفر من اختلاف على وراثته . ولرب هذا فقد ما كان هذا النظام يسوغ للوريث إذا كان أنثى أن تنقل التاج لزوجها وهو ذلك أيضا من أسباب الخلاف ما زاد في حال الدولة سوءا على سوء . لذلك نقرر مع *Barrow* أن الأسباب لانحلال الدولة سنة ١١٨٧ لا يبعد أن تكون قد تجمعت بسبب تلك الحفنة وما نجم عنها من الاختلافات والمنازعات " (ص ٣٩) *The Crusades* وإذا اكتفينا إلى النظام العسكري في " الدولة اللاتينية " راسنا حظ الملك منه كحظه من نظام الحكم إذ كان عليه أن يدفع للمتجندين من إعانات الاقتراعات حملا وأن يقدم لهم الخيول أيضا والا استنكفوا من القتال واضربوا عن اللجاة به في الغارات والمعارك وهناك غير هؤلاء من الفرقة كجماعة المرتزقة ^{كمن} لم يكن لهم قطاع أرضة يتسلمونها من المال ما يتقاضون من الملك إعانات معينة . وكذلك فرق " الفرسان " الخفيفة المولفة من السوريين والمسلمين وكانت في قتالها تسيطر على النظام الدرو في الكر والفر كما أن " الدابة " كانوا من الأرملة أما رماة النشاب فكانوا من " الموارنة " .

أما إلى تلك الفرقة منظمي " السنيارية " " والداوية " وفرسانهم وكانوا جميعهم هم يرحلون إلى رؤسائهم المستقلين بأمورهم كاستقلال أميرى انطاكية وطرابلس ثم إن مجموع هذه الفرقة كلها لم يكن يزيد عن ٢٥,٠٠٠ بل لعل قوة المملكة كانت تستند في الدفاع عن المدن إلى الحصون والقلاع التي بناها " السنيارية " " والداوية " انتمنهم إلى قوة الجيش وقرته . ولا محب فان بقايا تلك الحصون والقلاع ما زالت ماثلة وهي ما هد على ما كان لها من اثرين في الذود عن المملكة .

ثم ان الكبرخلاف في نظام الدولة كان الملك والحكومة يعانسان من جرائه الامرين
فقد انها نظاما ماليا فائثا . اذ مع ان دخل الملك - من الضرائب المفروضة على القوافل
التجارية والمكوير الجمركية في المرافئ - ومن ارباحه من الاحتكارات ورسم المحاكم وضريبة
الرامس (الجزية) على اليهود والمسلمين والتعويضات الحرية من الدول الاسلامية - كان
ضخما . غير ان مصاريفه كانت ايضا ضخمة الى حد يبرز معه تحت عبثها بالرغم مما كان
يتناوله من مساعدات مالية يقدمها له ملوك اوروى بدلا من اشتراكهم في " الصليبيات " .
وما كان ينفقه هو من الغزوات التي كان يفتنها على البلاد الاسيوية المجاورة . وقد كان
دائما في اضطراب مالي اذ كان ينفقه نظام للضرائب الوطنية كالتي حاولوا فرضها فقط في
سنة ١١٨٣ والتي كان يحاول دون ولا حبايتها امتيازات التجار والكهنة . وبغت الكهنة
تمتلك الاراضي الجديدة مع رفضها المساهمة في الدفاع عن المملكة مع انها كانت تنفاني
حصنها كاملة من العشر من كل محصول تملكها اليه يد ها ولو كان ذلك من غنائم الحرب .
وبالرغم من انها كانت اغنى المؤسسات في الدولة فقد كانت باعقائها من الرسم تساهم بطريقة
غير صادرة في تفويت دوائها . ولعل منظمي " المشاركة " و " الداية " التابعين لها
كاننا من اخطر شي على حياة المملكة .

وكذلك لم يكن النظام القضائي في " الدولة اللاتينية " باقل تعقدا وبانثالسي
اضرارا في الدولة من الانظمة السابقة الذكر اذ كان في القدير محكمتان اثنتان = الاولى
المحكمة العليا تقضى بين المتنازعين من الاشراف او بينهم وبين الملك ، والثانية تقضى بين
المخاصمين من عامة الفرنج المدنيين وكان من ملاحباتها النظر في الحرائم ايضا . الا ان
كلنا المحكمين كاننا نعتد ان في حكمها على الحرف اذ لم تكن الشريعة مدونة . ولم يكن
ضرب التجار اقل من ضرر الاشراف ورجال الدين في هذا النظام اذ كانوا على الاغلب عديدين
واثريا مما جعلهم في حسم الدولة وحدة قوية مستقلة بامورها الاجتماعية والسياسية بل
والقضائية وفي ذلك ما فيه من عرقلة لسير الدولة وتقدمها .

وما كان يسود في " مملكة القدير " من المحاكم بفضل هذا النظام كان يسود مثله في

في كل مقاطعة ايضا - فمحكمة للامراف واخرى للمدنيين النصارى ، فضلا عن محكمين آخرين احداها في المدن التجارية الكبرى وتابعتها محكمة " السلسلة " في المرافى . وكانت الاولى تنال من اربعة سوريين واثنين من الفرنج وكانت تنظر في القضايا التجارية المتعلقة بالسوريين والثانية (من ايام الملوك سنة ١١٦٢ - ١١٧٤) كانت تنظر في قضايا التجارة وكانت كسابقتها تنال من رئيس ومعاونيه . وكان هناك محكمة اخرى مستقلة عن كل ما ذكر وتختص بالابطاليين في كل مدينة تحت ادارة قناصلهم وكان من حقها النظر في جميع القضايا العادية عدا ما كان منها يتلصق بحرمة القتل والسرقة او الاحتيا . ولما كانت هذه المحاكم تدخل في دائرة الاعفاءات من الرسوم والواجبات المالية كان ذلك مضرًا مصلحة الدولة . وكان للكنيسة ايضا محاكمها الخاصة لتنظر في جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية وباملاكها وكانت هي ايضا تعفى من جميع الرسوم والواجبات .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ايضا ان " الدولة اللاتينية " لم تكن لتدرك النقص في الجهاز الحكومي فحسب بل كانت تعاني تدهورا في الاخلاق ابداً مما حمل محمود القوة الحاكمة بالانخفاة الى الحكومتين تنضال شديداً فديبا حتى عجزت عن النهوض منها .

تلك بعض الامل الداخلية التي كانت تنخر في جسم " الدولة اللاتينية " فما كانت الاسباب الخارجية تنضاف للقضا عليها نهائيا . اما هذه الاسباب فتتمسك في هجوم المسلمين المعاكس والذي بدأ فعلا بامتلاك عماد الدين زنكي للموصل سنة ١١٢٧ . غير ان عام سنة ١١١٠ يشكل في الحقيقة نقطة التحول في تاريخ هذه الحروب او دور الانتكاس بالانخفاة الى الفرنج والانعكاس باعتبار المسلمين ان فيه سر هولا في الشاسك والارتباط حتى استعادوا وحدتهم من جديد .

وكان مصدر تلك البقطة في الجزيرة العليا من اوس ما بين النهرين حيث تبلورت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل استرجاع البلاد الدامية من مغنميتها واحلالهم عنها نهائيا .

(١) محله الفقه كلاً ما نوا يسمى

ولعل الفضل في ذلك يعود الى حد بعيد لمدينة طرابلس ان صعدت
طويلا وصبرت صبرا جملا ولا تعجب فقد كانت من " اعظم بلاد الاسلام واكثرها تحملا
ونثرة (الكامل ج ١٠ ص ١٧٢) ويعود شيء من ذلك الفضل لصاحبها فخر الملك
ايو طو بن حار الذي " ظهر منه صبر عظيم وشجاعة وراى شديد " (نفسه ص ١٧٣)
في الدفاع عنها حتى اذا كان عام ١١٠٨ وقد شعر بما لم يحد له به احتمال
توجه الى بغداد يستنجد بالسلطان فوعده خيرا لكنه عاد في سنة ١١٠٩
عندما سقطت المدينة فعدو طلبه للنجدة وصدف ان استقرت اماره الموصل
لشرف الدولة مودود سنة ٥٠١ هـ . رجل الساعه انذاك فاستطاع بموافقته
اخيه السلطان محمد بن ملكشاه وتشجيعه ان يبعث في نفوس المسلمين الحمية
الدينية ويهيب بهم الى الجهاد . وظل مدة اربع سنين لا تفتر له همة عن
القيام بما ندب نفسه له حتى توفاه الله بعد ان ترك من بعده وصية لخلفائه
بوجود المناورة على الجهاد ، وان ما عرف عن خلفائه من عزم اكيد في الاستمرار على
القتال قد دفع بامراء الجزيرة الفراتية لان يتابعوا عملا بداء مودود ونحو عليه
الامير الغازي بن ارتق صاحب مارد بن حتى كانت نتيجة حملاته باين سنة ١١٨ -
١١٢٣ ان ضم الى ممتلكاته مدينة حلب وسكانها . وهكذا فان الحركة التي
احضرت على " دولة اللاتين " كان مبعثها من الموصل ومارد بن .

وكان في جيش مودود تركي آخر من فرسانهم المعدودين والعشود لهم
بالشجاعة وجودة الراى وحسن القيادة كما عرف فيما بعد بضغط ما ولله ايضا حكمة
وكفائة ونعني به عماد الدين زنكي فقد ارتفع له صوت في ارض الجزيرة وظل له
فيها قدر حتى اذا ما كانت سنة ٥٢١ هـ و ١١٢٧ م . وقد شمرت آتخذ اماره
الموصل من سيد بدير امرها بوفاء صاحبها ابن آسنقر البرسقي وورثته لم يكن
خيلا من عماد الدين لها فولاها السلطان البلاد كلها وكان لزنكي هذا في الدولة
راى حبيب دل على مبلغ تفهمه بلامر تفهما صحيحا ان كان يقول " ان البلاد
كاستان عليه سباج ، فمن هو خارج السباج بهاب الدخول ، فاذا خرج منها من
يدل على هودنها ويطمع العدو فيها زالت الهبة ونطرق الخصم اليها " . ولما

كانت بلاده "بحد" بها الاعداء وكلهم يقصدوا ويريدون اخذها واختلطت ولاياتهم بولاياته من كل جهاتها " لم يكن ليقفه بحفظها بل كان لا ينفصل عنه عليه عام حتى يفتح من بلادهم وظل يقصد هذا مرة وذاك مرة اخرى وباخذ من هذا وبصانع ذاك الى ان ملك من كل من يليه طرفا من بلاده " ولما رأى ان بلاده قد اصبحت كبستان عليه سباح وان كل من هو خارج السباح هاب الدخول ادرك ان الوقت قد خان للانقضاض على فرسته " الرها " فاخذ يوم القم من الفرنج اقصه لا يقصد هم وانه في شغل " اقل عنهم في ديار بكر حتى اذا أكد له عيونهم ان جوسلان ناصر الرها " قد جازت عليه الحيلة واعطاه حتى قارة المدينة وهرب الفرات غربا بلغت القم في ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ و ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤ م . وقاتلها ثمانية وعشرين يوما وما زال يضيق عليها الخناق حتى اخذها " عنوة وقهرا " ثم تسلم مدينة سروج وسائر ما كان من البلاد بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا البيرة " وبذلك يكون قد سدد خربة من اولى الهربات التى قضت على دولة اللاتين في بلادنا .

ويرجع بعض الفضل في ذلك الفوز الى تفكك الفرنج وعدم الاتفاق بينهم اذ كان جوسلان في نزاع مع انطاكية كما كانت القدس بعيدة عن مركز القتال ومع انها ارسلت المدد فلم يصل الا بعد فوات الوقت (ستفانسون^{سيفانسون} ص ١٤٩ - ١٥٠) وبهذا الفتح تم الاتصال بين حلب والجزيرة العليا كما اصبحت هذه تواجه عدوها مع اطمئنانها الى موخرتها وسرعت حلب فوق ذلك تحديق باراضى اللاتين بعد ان كانت هي محم في حصار دائم تقريبا (ص ١٥٣^{نفسه}) .

اما قول بعضهم ان عباد الدين لم يكن ليهتم لامر الجهاد قدر اهتمامه لتوسيع رقعة ولايته فمردود اذ انه كان يرى من كل غزواته وفتوحاته الى جعل ولايته " بلادا كبستان عليه سباح " وما ثبت ما نوافق ابن الانبر على تقريره ويدحض دعوى غروبها وسواء من مؤرخى الغرب امثال ستفانسون^{سيفانسون} قوله " " واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قليلا لما انا بصدده من قصد اعداء الجهاد فولولاي لطال عليك ان تشرب الماء آمنا في مارددين ولكان الفرنج ملكوها " ص ١٤١ (الترجمة)

غير ان سقوط " الرها " قد اثار في اوروة موجة من الغضب مشوب
بغزوهم و هلم ما اهاب يبعثر رجالهم الى القيام بدعوة الى " صليبية جديدة " .
ولكن هبهات ابن القيم اليهم بالامر ، فلم يكن لدعوتهم الا القليل من الصدى
وبالرغم من ذلك التحول فقد استطاع هؤلاء اخراج ملك فرنسة لويس السابع
وامبراطور الجرمان كونراد الثالث .

الا ان وصولهما الى بلاد الشام كان في ربيع سنة ٥٤٣ هـ و ١١٤٨ م .
في حين كان التفاهم بينهم معدوما كما كان الامر بين الفرنج الشام ايضا . لذلك
اخذا بنساء لان ابن بعبان نجه حملتهما الى نور الدين بن زنكي وخليفته
في حلب الى انزوى دمشق . ولكن القدس ما عنت ان اوقعتهما اذ اقتنعتهما
بوجوب العمل عند دمشق . وهكذا ظلت طرابلس وانطاكية بمعبدتين من ضم
جهودهما الى الحملة .

وما ان توافدت قوى الالمان والفرنسيين الى حلبنة حيث اجتمعوا بفرنج
الشام حتى اتجهوا جميعهم نحو دمشق واقاموا عليها الحصار في صاير ربيع الاول
سنة ٥٤٣ هـ و ٢٤ تموز سنة ١١٤٨ م . فخرج اليهم اهل المدينة والعسكر
فقاتلهم وصبروا لهم في معركة البترب على نحو نصف فرسخ من دمشق فقوى الفرنج
وخضع المسلمون . عندها تقدم الامپراتور الى طور حتى نزل في العبدان الاخضر
فخشى النصارى بملك المدينة غير ان معين الدين كان قد ارسل الى سيف
الدين غازي بن زنكي بدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فما كان من
هذا الا ان قدم الى الشام مستنحيا معه اخاه نور الدين محمودا من حلب
فنزلا في حمص وارسل الى معين الدين يخبره بحضوره مع كل من يقوى على
حمل السلاح من بلاده ويطلب اليه ان يسهل لنوابه دخول المدينة حتى اذا
انهم دخلوها هو وحكمه واجتمعوا بها وقد أكد له انه ليس له في ذلك اي
مطمح اقليمي . ثم ارسل الى الفرنج ينهدهم ان لم يرحلوا عن المدينة فلم يطل بهم
الامر حتى كفوا عن القتال خوفا من الهزيمة اولا ومن ان يضطروا الى قتال سيف الدين
ثانيا . فابقوا على انفسهم وقوى بذلك اهل دمشق على حفظها واستراحوا من متاعه
القتال غير ان معين الدين انر لم يكن ليضيق الفرصة فقام بدوره بفاوض الفرنج الغريبه

بخوفهم بسيف الدين وعلمهم بحضوره لنجدته . وانه ان لم يرحلوا عن دمشق
اخطر هو الى تسليمها اليه . حينئذ يندمون ولا تساعة مندم . ثم ارسل السور
فرنج الشام بعدهم ويتوعددهم ان هم استمروا في مساعدة هؤلاء ويقول لهم : " انكم
لتعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بآيديكم من البلاد الساحلية وانه ان شعر هو
باء . حوز من حفظها سلمها الى سيف الدين . وهندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام " .
فاحابوه الى التخلي عن الاوروبيين واجتمعوا الى الامبراطور والملك وخوفوهما من
سيف الدين وكثرة عساكره مع تنابح الامداد اليه . وازنه . ربما ملك دمشق وضعفوا هم
عن مقاومته . وما زالوا بهما حتى رحلوا بعساكرهم عن المدينة فتسلموا هم قلعة بايناس
من أثر كما كان وهدم وارتدوا من حيث اتوا . (الكامل ج ١١ ص ٥٨-٥٩)

وهكذا انكسفت الغمة عن الدمشقيين ونجت مدينتهم من خطر تهديدها
مدة من الزمن . وكاد الحظ يخونها فكان في ذلك فوز كبير للبلاد واهلها ان انهم اى
المسلمين تقووا وضعف مركز الفرنج لا سيما بعد ان تعلم الاوروبيون وجوب نزوح ثقتهم
من الفرنج المقيمين وهدم المبالاة بهم . واذا ذكرنا ان الفوز لم يكن فوزا عسكريا بقدر ما
ما كان فوزا سياسيا ادركنا ان اوروبا لم بعد ترى - ولو الى حين - ان تمد يد المساعدة
لهم . وبهذا اصبح المسلمون ولهم لهم من خصم سوى فرنج الشام وقد ظهر ذلك
حالا فلا حنود حضرت ولا مساعدات مالية وصلت اليه . ولا حجاج وفدت واصبحت العرب مع
نور الدين دون ان يلقى القوم نجدة ما من الخارج .

ولئن كانت خربة زنكي في الرها موقعة فان " لعبة " معين الدين
في دمشق لم تكن اقل انرا طيبا من هذه الموقعة . ومن نتائجها انها فتحت المجال
امام نور الدين لان يهاجم انطاكية وينفره بعدها الى انعام الفتح في مقاطعة الرها ويجلي
القوم عنها . ففتح كل ما وقع فيها في الغرب كتل باه سنة ٥٤٥ هـ . و ١١٥٠ م . كما انه
كان قد هزم ريموند سيد انطاكية وقتله سنة ٥٤٤ هـ . و ١١٤٩ م . بعد ان تسلم
عدة مدن في شرق امارته . اما بخديون الثالث ملك القدس فقد حاول ان يستفيد من
تلك الحال فسعى الى التقرب نارة من دمشق واخرى من القسطنطينية وبالفعل فقد ساد
حسن التفاهم بين القدر والقسطنطينية طوال عهدي بخديون واخيه امري بفضل ما

تبادل البيهتان من الفساء عن طريق الزواج الامر الذى جعل الفرنج يصدقون فى وجه نور الدين . الا ان النزاع الداخلى بين افراد الاسرة المالكة من الفرنج ظل سائدا بينما كان المسلمون يشددون الخناق تدريجيا عليهم من الشمال والجنوب اذ ان نور الدين كان يسعى - ثمان من سبقه من ابطال المسلمين - الى الاحاطة ببلاد الافرنج ووضعها بين راسى الكمان . وبالفعل فقد سقطت دمشق سنة ٥٤٩ هـ و ١١٥٤ م . فى يده وانضمت بذلك الى بقية البلاد وخسرت عندها مملكة القدس اكبر صديق لها كما فتحت الطريق الى مصر .

الا ان بلدوين كان قد سبق له ان انتزعه من الفاطميين عسقلان سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م . بعد ان صمدت فى وجه الافرنج خمسين سنة وهكذا توهم انه قد اصبح الطريق مفتوحا امامه الى القاهرة .

اما الحالة الداخلية فى مصر فكانت من الفلق والاضطراب بحيث طمع بها كل من دمشق والقدس اذ ما كاد طلائع بن رزك وزير الحاضد فيها يقضى نحبه فى ايلول سنة ٥٥٧ هـ و ١١٦١ م . حتى خلفه ابنه الملك العادل وارسل بحزل شاور امير الصعيد بالرغم من كفاءته ومكانته فما كان من هذا الا ان زحف على القاهرة فانهمم الملك العادل منها ونسب اورمائه فى صفر سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ م . غير ان طامعا حديدا باسم خروغام جمع جمعا ونازه شاور الامر فانهمم منه الى الشام حيث التحا الى نور الدين فى دمشق فى ربيع الاول سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . وطلب اليه ان يحجزه بالعساكر ليسترحم منصبه على ان يكون له ثلث دخل مصر عدا ارزاق العساكر ويبقى له نائب بقم بحنوده فى مصر . فانتدب نور الدين لذلك اسد الدين شيركوه منحجز وسار معه شاور فى حمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . بينما اتجه نور الدين الى اطراف بلاد الفرنج مما بلى دمشق بعساكره منعاً للقمم من التمرس لاسد الدين وحملته .

ولما وصل اسد الدين الى مدينة بلبيس من ارض مصر انهمم امامه ناصر الدين اخو خروغام فنقدم الى القاهرة ودخلها خائفا فخرج على شاور ^{الزكي} واعيد الى الوزارة واقام اسد الدين بظاهر القاهرة غير ان شاور غدر به ونكث عهده وارسل اليه بامر بالمودة الى الشام فامتنع وطلبه بتنفيذ ما كان استقر بينهما من شروط فلم يحبه شاور الى ذلك

عندها امر نوابه تسلم مدينة بليسر والقبر على ائمة الامور في البلاد الشرقية فارسل
شاور الي الفرنج يستندهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر فكان لهم في ذلك
ما لم يحتسبوه وسار امرى الى تلبية الدعوة .

وكان قد وصل آنشد الى الساحا الشامى جمع غفير من نصارى الفرنج
لزبارة القدس لاستئذان بهم الفرنج الساحلية فاعانوه ونحوه بعضهم معهم واقام الآخرون
في البلاد لحفظها . فلما قارب القوم مصر قصد اسد الدين بليسر فانام بها هو
وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوه ببليسر
وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو متنع بها يتأديهم القتال ويروحهم فلم يبلغوا منه وطرا .
وفيما هم كذلك اناهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وتمك نور الدين لها ومسيره الى
بانياس فاستقط فو ايديهم فراسلوا اسد الدين بالصلح وطلبوا اليه مفارقة مصر وتسليم
ما بيده منها الي المصريين فاحابهم الى ذلك اذ لم يكن قد علم بقهر نور الدين
للفرنج في الشام واستلائه على حارم فضلا عن ان الاتوا والذخائر قلت لديه
فخرج في ذي الحجة سنة ٥٥٣ هـ و ١١٦٣ م . وهادوا هم الى الشام ليدركوا بانياس
فلم يصلوا الا وقد ملكها نور الدين وهاد منها الى دمشق .

غير ان اسد الدين ظل بعد رجوعه الى الشام يتحدث عن مصر
ونفسه تستحنه السها فاتفق نور الدين براه فجهزه في سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٧ م .
بجيد قوى وسير معه جماعة من الامراء بينهم ابن اخيه صلاح الدين بلغت عدتهم الفى
فارس . فلما احتجبه العسكر سار الى مصر برا فوصلها وعبر النصارى الى الجانب الشرقى
ونزل بالعبيزة مقابل القاهرة ونصروا في البلاد الغربية وحكم عليها واقام ثغرا وخمسين يوما .
اما شاور فلما بلغه دخول اسد الدين الى مصر ارسل الى الفرنج
بستندهم فوافوه على " الصعب والذلول " طمعا في ملكها وخوفا عليها من اسد الدين .
غير ان هذا عاجلهم وهزمهم مع المصريين وتقدم بدها الى ثغرا الاسكندرية فتسلمها
مساعدة من اهلها واستجاب بها صلاح الدين وهاد هذا الى الصعب . ولكن المصريين
والفرنج هادوا فاجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عسكرهم وساروا الى اسكندرية فحاصروا
صلاح الدين بها غير ان اهلها سبوا حتى هاد اسد الدين من الصعيد اليهم فما علم

القوم به حتى خافوا وارسلوا يطلبون الصلح فاجابهم اليه وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يمتلكوا فيها قرية واحدة فاذعنوا واصطلحوا وادوا الى الشام ونسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ورحل مبركوه الى دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة . غير ان الفرنج كان قد استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم مدينة في القاهرة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انقاذ عسكر البهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار . هذا كله استقر مع داور اما العاضد فلم يكن له معه حكم واد الفرنج الى بلادهم في الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وفي ربيع سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٨ م . زاد طمع من كان منهم في مصر فراوا ان ليس في البلاد من يردهم عنها فارسلوا الى اسرى ملكهم في القدر يستدعونهم ليملكها وقد هوتوا عليه امرها وحملوه على السير اليهم . فلما سمع نور الدين بالخبر سره هو ايضا بجمعه عساكره وامرهم بالقدوم عليه فحدد الفرنج في السير الى مصر خو قدموها ونازلوا بليبس وملكوا قهرا بصبتها صفر سنة ٥٦٣ هـ و ١١٦٨ م . ثم ساروا منها الى القاهرة وحاصروها فخاض الناصر منهم ان يفعلوا بهم ما فعلوه باهل بليبس فحملهم ذلك على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في ضبطه حتى خاض بهم الامر وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث . فامر اسد الدين ان يسر الى القاهرة فوصلها في ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ م . فوجد الفرنج وقد رحلوا عنها الى بلادهم خائفين مما املوه فاحتنع بالعاضد لدين الله فدخل عليه وفر به اها مصر . غير ان اسد الدين لم يظلم به الامر حتى توفاه الله في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ فكانت ولايته شهرين وخمسة ايام فارسل العاضد الى صلاح الدين وخلص عليه وولاه الوزارة بعد عمه وتثبت قدمه وهونائس من نور الدين فاستمال قلوب الناس وبذا الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعة امر العاضد ثم ارسل بطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله ففعل وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته فاخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهلهم وامراءه الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطلاقة غير ان هذه السياسة منه قد استفزت

المصريين وراحوا يفاوضون الفرنج باستعدادهم للقيام بنصرة بمساعدتهم غير ان صلاح الدين علم بامروقضى على الفكرة في مهدها واهمل امر العاخذ حتى اصبح وليس له من الامر شيء .

هذا وان الفرنج لما ايقنوا بالهلاك لدى تلك شيركوه مصر راحوا يستنفزون حمية الروم عليهم يتعاونون معا على انتزاعها من الاتراك فلبى هو ١٠٧٠ ا ندا هم وجهزوا اسطولا من مائتي سفينة وواهبعدوا للنزول على دمياط فارسل صلاح الدين العساكر في النيل وكتب الى نور الدين بالامر فسير هذا بدوره الحموي كما توجه هو ايضا الى ديار الفرنج فافار عليها واستباحها ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه من قبل لخلو البلاد من مانع يمنعها فلما ايقن الفرنج انهم اصبحوا بين نارين رجعوا خائبين كما وحدوا بلادهم خرابا واهليا بين قنبل واسير وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اظهر فيها صلاح الدين من حسن القيادة والدراية ما سجله له التاريخ بالحمد والتناء كما اخبر العاخذ من المال ما لا يعد ولا يحصى . وراح الفرنج والروم يتلاومون فانهل امرى بعدها الى الاكتفاء بالمحافظة على ما تبقى له من بلاده في الشام ونبت قدم صلاح الدين في مصر فقام عندها بعمل على تاسيس ملك سيقى فو اعقابيه من بعده ولعل هذا ما شغله عن مجاهدة الفرنج بالسرعة المتوقعة ونحت امره سيده نور الدين . اما العاخذ فانفى صلاح الدين له لقبه الاسرى لمدة سنتين اخرتين ان لم يجد من الحكمة خلعه توالثا بشير عليه الراى العام الد بنو والقوى في مصر بل آثاران تفعل الايام فعلها . غير ان نور الدين خرج اخيرا عن صمته وامر بقطع الخاية للعاخذ وواقمتها للعباسى في بغداد (المستنصر) ولما تردد صلاح الدين في استجابة الامر الح عليه * والزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته * ان كان على الحقيقة نائبا له وانفق ان مرض العاخذ واشدد عليه الالم فاقدم عنده صلاح الدين وحل العقدة فقطع الخطبة في اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ . او ايلول سنة ١١٧١ م . * ولم ينقطع فيها عزازان * ثم كتب فليس بذلك الى سائر البلاد المصرية ففعلوا ثم ما لبث العاخذ ان توفاه الله في ١٠ محرم ففلى صلاح الدين للعرزا واستولى على نصر الخلافة وعلى جميع ما فيه من كنوز وتحف .

عندئذ لم يبق امام صلاح الدين لتحقيق حلمه سوى سيده الاسمى نور الدين غير انه هنا ايضا فضل التريث والاناة على العجلة والندامة وترك الاقدار

تحل المشكلة الباقية كما حلت غيرها من المشاكل السابقة وراح يتحجب حتى الاجتماع مع نور الدين كما فعل عندما سمع نور الدين بخزونه لحصن الثوبت دون ان يكون له بها علم ورغب في الاجتماع به فوجد صلاح الدين الى مصر عائدا من الثوبت وكتب بعدئذ بأشلائه البلاد غير ان نور الدين لم يقبل منه وتخبر عليه وهم على قصد مصر واخراجه منها . الا ان القضاء جاء بفصل بين السيد ونائبه بالموت اذ توفي الله نور الدين في شمال سنة ٥٦٩ وتمر سنة ١١٧٤ م . في دمشق من سنة ٥٦٩ سنة قضى اكثرها فيما قتل الفرنج . فخلفه في دمشق ابنه صالح اما عيل وله من العمر ١١ سنة فاطلعه الناصر في الشام وصلاح الدين في مصر وخطب له فيها وشرى السكة باسمه غير ان الملك الصبي ما لبث ان لعبت به الاهواء فنقلته الى حلب فكان في ذلك لصلاح الدين فرصة ان يشار الى دمشق في ٥٧٠ هـ . ١١٧٤ م فملكها كما ملك بعدها حمص وحماة ومن ثم اتجه الى حلب وحاصرها وفيها الملك الصالح ولما غلب عليها الخناء استنجد خصومه بالاسماعيليه وصاحب طرابلس ريموند الثالث الحمر على هو القدر . (اذ كان في نفس الوقت من وفاة نور الدين قد مات ملكها امراء ابلها وخلفه ابن له حفيد السن محزم) . فما ان علم السلطان نعم الفرنج على المسمرن نحو حلب حتى رحل عنها فارتدوا هم ابلها وتسلم في طرقة بعد ذلك وصار اكثر بلاد الشام بيده . غير ان العداوة بينه وبين رجال الملك الصالح استمرت عدة سنين اخرى استولى خلالها على قلعة بصرى وبزافه وضيق واعزاز وحاول ان ياخذ حلب فمحز عنها وتم الصلح بينه وبينهم فارتد عنها وقصد بلاد الاسماعيليه فذهب ببلد هم مصاف واخره واحرقه وما زال بهم حتى طلبوا الصلح فاحابهم اليه ورحل عنهم في سنة ٥٧٢ هـ . ١١٧٦ م . ثم التفت الى مدن الشمال كآمد وهنتاب وما زال ينتقل بين الشمال والجنوب فيقاتل الفرنج تارة ويخضع من مدن الشمال تبعضا تارة اخرى حتى كانت سنة ٥٧٩ هـ . ١١٨٣ م . فصار من هنتاب الى حلب ونزل عليها في الحزم وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي فاستقر بينهما ما الصلح وتسلم صلاح الدين حلب وهزمه عنها بسنحار ونصيبين والخابر والرقه وسوى واقام السلطان فيها الى ان غفورة من تقرير قواعدها وبوانها واقطع اعمالها وبذلك قد تم له ان يجمع بين وادي النيل وبلاد الشام وجمعا الفرنج بذلك بين فكي الاسد

فلم يجد السلطان الآن بدا من قننا الفرنج الكثرة تعدبهم على قوافل المسلمين فو طريقها بين القاهرة ودمشق ولما أقطع ما أثار من ميثاقه البيزنطيين أرناء صاحب الكرك وكان من أعوام الفرنج وأخبتهم وأمدتهم عداوة للمسلمين إذ لم يكف بصلب القوافل التجارية واعترا الحجاج في طريقهم إلى مكة والمدينة - رغم ما كان بين الفرنج والسلطان من مهادنة - حتى قام في ١١٨٢ - ١١٨٣ م بعمال لغزو الحجاز بحرراً الأمر الذي أخرج صلاح الدين من حلمه وحما يندره أن يقتله أن غفريه ، فراء عندها يستغفر الناس للجهاد ويحثهم عليه وسعدت إلى بلاد المشرق ومصر وسائر بلاد الشام مدعوهم إلى الجهاد وبأمرهم بالتجهز له ثم خرج من دمشق في أواخر المحرم من سنة ٥٨٣ هـ و ١١٨٢ م . فو عسارها وسار إلى رأس الملك فو حوران حيث تلاحقت به العساكر المماليكية ، فلما اجتمعوا حما عليهم ولده الملك الأفضل عليا وسار هو إلى بصرى ليمسك البيزنطيين أرناء من طلب الحجاج ، ولجعل له يلزم بلده خوفا عليه فلما سمع أرناء طرب صلاح الدين من بلده لم يقاومه وانقطعت عما لحقه فيه ، فومال الحجاج صالحين . عندها سار السلطان إلى الكرك وبث سراياه من هنا على ولاية الكرك والكرك وبغيرهما فغلبوا وخربوا وأحرقوا والبيزنطيين محصورين وكرو لا يقدر على الدفاع عن بلده وكذلك فعا سائر الفرنج فلزموا طرة بلادهم خوفا من العسكر الذي كان مع ولده الملك الأفضل (الكاما ج ١١ ص ٢٢٩) .

وفيما كان صلاح الدين حيث رابناه كان ابنه الأفضل قد أرسل من رجاله من يتعدى للفرنج في صفورية فخرج السهم الفرنج فو جميع من الدلاوية والاصنافية وبغيرهما فالتقوا هنا وحررت بينهم حرب شديدة لها المفارقة السود فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون .

ولما انت صلاح الدين البشائر بذلك النصر المبين على الاستنارية والدلاوية عاد عن الكرك وقد تلاحقت به سائر الأمراء والعساكر واجتمع بهم وساروا حتى نزلوا بالاقصانة قرب طبرية . عندئذ انفتحت كلمة الفرنج بجد فرقته وجمعوا فارسهم وراجلهم وساروا ٢٠،٠٠٠ من عكا إلى صفورية فتقدم المسلمون حتى خلفوا طبرية وراء ظهرهم وصعدوا جبلها ، ولما حنهم الليل قاتلوا المدينة ونقبوا بها أبراجها وأخذوها عنوة .

فلما علم الفرنج بالخبر اجتمعوا للمثيرة وبعد اخذ ورد قرابهم على قتال المسلمين ، وكان صلاح الدين قد عاد من طبرية الى عسكره ونزلوا على الماء والزمان قبض شديد الحرقاجهد العطش الفرنج ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء اذ كانوا قد استهلكوا ما هنا من ماء الصحاري ولم يستطعوا الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الداء وهو يوم السبت في ٤ تموز سنة ١١٨٧ م وقد اخذ العطش منهم ماخذة فركب المسلمون في الصباح وتقدموا الى الفرنج فاقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى انتهت الفرنج وكان بعد المنطوعة قد التقى في تلك الارض نارا وكان الحديد كثيرا فاحترق وكانت الرياح شديدة فعملت النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وحسبوا انهم لا ينحسب من الموت الا الاقدام فحملوا حملات متدائرة مات جميعها بالقتل لوهنتها لذلك وهنا عظيما . عندها احاط بهم المسلمون احاطة السوار بالمعصم فارتفع من يدهم الى نيل بناحية حلبين وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم مما ارادوا ولم يتمكنوا من ان ينصبوا غير خيمة الملك . فلما صار الملك على النبل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين حملوا حملة مصادقة على مر بازائهم من المسلمين غير ان هؤلاء سمعوا انهم كروا عليهم فالتفوا خيمة الملك واسروهم من كوة ايهم ، وبينهم الملك واخوه البرسر ارناط وصاحب حما واسن هنقري ، ومقدم الداوية وحماة من الاستنارية والداوية ايضا . وما احسب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة ٩١ هـ و ١٠٢٧ م . الى الان يمثل هذه الوقعة (في ٤ تموز سنة ١١٨٧ يوم السبت ٥ ربيع الاول سنة ٥١٣ هـ) التي فاقنا بها ما تركته فيهم معركة الزها على يد عماد الدين زنكي . ٤٣ سنة خلت ، كما انها تركتهم مارندادهم عن دمشق . في معركة المزة ايلم كوقتراد الثالث ولويس السابع وتاكيد لديهم انهم لا يبقوا لهم في الدمام بعدها .

ولما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته ^{واحض اليه} الملك الفرنج — ومعه البرسر ارناط — وقد اهلكه العطش فسقاه ماء منلوحا فشرب واعطى فضله ارناط فشرب ايضا فقال صلاح الدين — ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني

فبنال امانى * ثم كلم البربر وقرعه بذنوبه وعدد عليه موارثه ثم قام اليه بنفسه
فضرع عنقه وقال = " لقد كنت نذرت دفعتين ان اقتله ان ظفرت به " فلما قتله
وسحب واخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن السلطان حاشيه وامنه واما الفهم صاحب
طرابلس ، فانه كان قد اتهم في وسط المعركة وبجا ورجل الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا اباما قلائل حتى * مات غيبا وحيفا لما جرى على الفرنج ٠ ٨ (الكامل
ج ١١ ص ٢٤١ - ٢٤٣) .

لقد كان للضربة النجلاء التي سددها صلاح الدين الى قلب
" الدولة اللاتينية " سهل حطين في ٠ ربيع الاول سنة ٥٨٣ من الانار والنائج
ما جعلها غرة في حبين التاريخ ومن آثارهم انها مزقتهم شرمزق وقلبت معنوياتهم
راسا على عقب حتى تركتهم لا يملون على شيء ولا يدرون ما يفعلون فاخذوا بشارهون
الى ملاحظتهم نساء الحيوانات الى اوكارها وقد احست بهزة ارضية او بتفسير فحاشي
في العوازل الطبيعية .

ومع هذا كله فلم تفارح صلاح الدين الرافة ولا الرحمة بل راح في
نصره وفوزه يكتو على فقيرهم ويحن على ضعيفهم ويؤمنهم على ارواحهم فيسمع لهم
بالرحيل الى حيث شاءوا ، فلم يجدوا من ذلك المصاب مهريا ولا منه ملحا غير
التجمع في مدينة صور ، علمهم باستعدادهم وجههم بقدرين على التفكير في الامر
فيتمد يرون مصيرهم قبل ان يوجههم صلاح الدين برجاله ويغنيهم عن بكرة ابيهم
بعد ان امنهم وهو في نشوة النصر وطأنهم وهم في غيرة الهزيمة .

هذا ما كان من اثر ذلك في نفوس القوم اما ما كان من النتائج
الطبية التي جناها المسلمون = ان السلطان لم يدع خمرة الفوز تلعب في اعصابه
ولا فرصة النصر ترفو تفكيره بل راح من وقته يفكر ويعدل على مطاردة القوم في
كل مدينة وبلد وكل قلعة وحصن حتى لا يدع لهم فرصة الهدوء او اللحو الى التفكير

بأمرهم فما ان فرغ من امر حطين حتى توزع هو واخوه الملك العادل وبقية الامراء
العمال فراحوا جميعهم يتلففون فلول الفرنج وساجمون مدنهم ويحاصرون قلاعهم في
الامال والجنوب والوسط حتى جنوا ما استطاعوا ان يحنوه من النار الشبهية بعد
ذلك الظفر المين = ففتح العادل على حدود مصر مجدا بابا ومدينة باقا كما تسلم
صلاح الدين مدينتي طبرية وعكا ودخل امراؤه يحسارهم الناصرة وقيسارية وحيفا
وصفورية والقلعة وغيرها من المدن والحصون والقلاع في البلاد المجاورة كتيبين
وصيدا وجبيل وبيروت ثم ملكوا نالمر وسبسطيه حتى لم يبق امام صلاح الدين اهم من
عسقلان والقدر لاسباب عديدة منها = انهما على طرية الى مصر يقطع بينهما وبين
الشام وكان قوة ذلك يريد ان تنصل الولايات ليسهل خروج المعسكر منها ودخولهم
اليها ثم لما في فتح البيت المقدس من الذكر الحويل والصبت العظيم الى غير
ذلك من الاغراء = فسار من بيروت نحو عسقلان "عزير الشام" التي صدت الفرنج
عنها خمسين سنة وصدت في وجههم سبعة اشهر في سنة ١١٥٢ فاجتمع الى اخيه
الملك العادل والى من معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد في سادس عشر
جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ و ٢٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ م وكان سبق للسلطان
ان احضر من دمشق ملك الفرنج ومقدم الداوية وقال لهما = "ان سلمنا البلاد الى
فلانك الامان" فبرانه اخطر الى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وضرب الحصار
حولها لمدة ١٤ يوما فلما راوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا راسلوه في
تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وسلموا المدينة سلم جمادى الآخرة
سنة ٥٨٣ هـ و ٤ ايلول سنة ١١٨٧ .

وبعد ان فرغ من امر عسقلان وما جاورها من البلاد امتلأ الرملة
والزورم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية في اطراف
البلاد المجاورة امر باسطول مصران بخروج ويقطع الطريق على الفرنج ثم سار هو الى
البيت المقدس فنزل عليه في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ و ٢٠ ايلول سنة ١١٨٧ واقام
الحصار عليه وما زال يضيق عليه الخناق حتى دخله المسلمون يوم الجمعة السابع
والعشرين من رجب و ٢ تشرين الاول . وكان يوما مشهودا وقد اظهر فيه صلاح الدين

من الاربعة والشهامة ومن الرافة والانسانة ما سجله له التاريخ بالفخر والاعجاب .
وانا لنكتفى بالاشارة اليه والتنويه به هنا للتوسيع في ذلك بحكائه . واذا ما ذكرنا
انه لم يكن بين سقوط القدير ومعركة حطين سوى اربعة اشهر وتذكرنا ما تم خلالها
من فتح ونصر ادرنا ان صلاح الدين لم يترك دقيقة دون ان يستفيد منها في معاهدة
الفرنج ومصابرتهم والعمل على استرجاع البلاد والتخلص منهم .

وها هو وقد فرغ من امر القدير بذاذرها في ٢٥ شعبان فاصدا
الى صور وقد تغرأ لها بعد ان كان توقف عن فتحها قبلا لحصانتها وامتناعها . لكنه
وجد انه قد اخطأ فقد جاءها بحرا بعد فتح عكا وغيرها من المدن الساحلية بقليل ،
المركب "كونراد صاحب مونقرا" للزيارة والتجارة قد دخلها وقد اصبح فيها خلق كثير
ممن فعدها من فلول الفرنج ومثرت بهم بعد معركة حطين ، وقد ظلوا وليس لهم راس يجمعهم
ولا قائد يقاتل بهم ، وفيما هم يفكرون في مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه ،
اتاهم المركب ، وهم على ذلك الحزم ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة
وبدل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له دون سواء فاحابوه
الى ذلك واقام عندهم ودير احوالهم " وكان حسن التدبير " شجاعا فشرع في تحصينها
بتجديده حفر خنادقها وحمل اسوارها حتى زاد في حصانتها .

تلك كانت حالة صور واهلها لما وصل اليها صلاح الدين في ٢٢
رمضان من السنة نفسها وهاهنا مقاتلتها في البر ولكنه وجد ذلك قبل الجدوى لضيق
الرجال بين المدينة والبر فرحما عنها وقد ادرك انه باهماله لها من قبل قد جعلها
تقوى عليه الان لا سيما وقد تعب هو ومل اصحابه القتال ونبت معهم النفقات واصبح
الثناء على الابواب فاذن المسافر جميعها بالعودة الى اوطانهم والاستراحة والرجوع
اليه في الربيع المقبل .

ولم تكن صور وحدها هي التي اقلقت السلطان بل كان هناك ايضا
قلاع كوكب وصفد والكرک ، اذ كانت البلاد الساحلية من عكا حتى جبيل قد اصبحت جميعها
في قبضة يده ، ما عدا هذه الحصون وكان يود لو لم يبق في الداخل ما يشغل قلبه ويقسم
همه ويحتاج الى حفظه ، لئلا يقع منها ضرر على الرعايا والمجتازين لها فلم يبردا

وقد امتنعت عليه قلعة كوكب من الذهاب الى دمشق بعد ان ترك عليها من يقيم
محاصرتها حتى ولى الشتاء بيرده ووصله وهاد الربيع يصحوه ونواره فاخذت
العساكر تنوافد عليه حتى احتضمت وكثرت عنده فتوجه الى الشمال ونزل تحت
حصن الاكراد وجعل يخبر منه حتى فتح صافينا والعريضة وحمير وغيرها
من البلاد والولايات ووصل الى قرب طرابلس لايصر البلاد وتعرف الى مسالكها
ثم هاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف انواعها ما لا
حده واقام تحت حصن الاكراد الى آخر الربيع سنة ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م ثم
اتجه شمالا وراح ينتقل من فتح الى آخر حتى دخل حيلة واللاذقية وصحبون
ملك خصون بئاس والشفرودربسات وغيرها وكلها من املك صاحب انطاكية .
فلما سمع هذا بكل ذلك خافه واشفق منه فارسل يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل
اسير عنده من المسلمين فاجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر
اولها تشرين الاول وآخرها آخر ايار سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ وكان صاحب انطاكية
في هذا الوقت اعظم الفرنج ثانا واكثرهم ملكا فانه كان نسلم طرابلس بعد موت الفص
من غير ولد يخلفه فيها .

وهاد صلاح الدين الان الى حلب حيث فرق السكك الدرية وسار
هو منها الى دمشق ودخلها في اول رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال =
" ان العمر قصير والاحل غير مأمون ، وقد نفى بيد الفرنج هذه الحصون = كوكب
وصدد والكران وغيرها . ولا بد من الفراء منها فانها وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن
بسر اهلها وان اغفلناهم ندمننا فيما بعد " .

وهذا برهان على شدة قلق السلطان من جهة وعلى عزمه ان
لا يقع فيما وقع فيه مع صور من قبل فراح بتلفت الى الجنوب وكان قد جعل على الكرد -
اثنا غيا به في الشمال - عسكرا يحصروه ، فلازموا الحصار خو لم يبق للصير عند الفرنج
محال فراسلوا الملك العادل فنسلم منهم القلعة وامنهم وملك ايضا ما بقاره من
الحصون كالشوف والدعيرة والسليخ ، فاطمان الى ذلك صلاح الدين كما امتد قلوب
من في ذلك الصنع من البلاد كالقدس وغيرها ، فقام عندئذ السلطان بفاد دمشق

التي قلعتني صفد وكوكب وملكهما عنوة فاجتمع المسلمين بفتحهما من حد ابلة الى اقصى اعمال بيروت لا يفصل بينهما غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية .

عندها رآه صلاح الدين يتفقد المدن وتحصناتها فزار القدم وقبده فيها عبد الاخرى ثم سار منها الى عكا فاقام فيها حتى انسلخت السنة ٥٨٤ هـ ولما حلت سنة ٥٨٥ هـ وشاء انهاء ما كان بدا به من فتح ما بقي من الحصون والقلاع طرد الفرنج سار فو ربيع الاول سنة ٥٨٥ هـ و ٥ مايو سنة ١١٩٩ م عكا الى دقيقة ارنون لبحصره فنزل في مرج صيون حيث حاه ارناط صاحب صيدا فدخا اليه واجتمع به واظهر له الطاعة والمودة وطلب اليه ان يمهله ليعلمه الدقيقة حتى يكون قد احضر اولاده من صور لثلاث بناتهم من صاحبيها الذي ، فغدر صلاح الدين واحابه الى ما ساء فاستقر الامر بينهما على ان يتسلم صلاح الدين الدقيقة في حمام الآخرة من السنة وثلاثا ينتظر فو مرج صيون وهذه مدة لا تزيد على (١) قر - انقضاء مدة الهدنة بينهما وبين بوهمند صاحب انطاكية فما كان منه الا ان ارسل من يكون مقابلها لثلاث بنات صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة (٢) لما بلغه من احتواء الفرنج بمدينة صور وما يتصا بهم من الامداد في البحر وان ملأ الفرنج "في اللوزيناني" الذي كان قد اسره السلطان واطلة سراحه بعد فتح عسقلان قد اصطلح هو والمركب بعد اختلاف كان بينهما وانهم احتتموا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صور الى ظاهرها . فكان هذا واشباهه مما يزعمه ويخاف من ترك الدقيقة وراة ظهره والتقدم الى صور وسها الحموء المتوافرة فتتظيم المبرة منه . واخبرا عندما كلم صلاح الدين ارناط ادرامكره وخداهه فاخذ حبيسه . وفي اثناء ذلك جاءته الاخبار بخروج الفرنج من صور لحصار صيدا فبران ساكره اعجزوهم عن الوصول اليها فعادوا الى مكانهم . ولكن صلاح الدين ادرام انه قد اصبح عليه ان يتخذ خطة الدفاع كما وانه بعد ان كانت المبادرة في يده كل تلك المدة واذ انها تنتقل الى العدو .

وكان صلاح الدين - وهو في عسقلان - قد احضر من دمشق الملك

قمي "واطلقه بعد تسليم عسقلان ، كما راينا واخذ عليه عهدا بانه ينادر البلاد ولكنه ما لبث ان ينقض على عقيبه في صيف سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ ويشهره بالزحف على عكا رغبة منه في استرجاع ما كان الفرنج قد فقدوه بعد هزيمة حطين . وما

البت كونراد صاحب صوران وفد ايضا معسكره ، كما انضمت اليهم جموع الوافدين من اوروبا .

وكان ذلك في ٥ شعبان سنة ٥٨٥ هـ و ١١٨٩ م واستمر الحصار على اشد ما يكون بين الفريقين // من قتال حتى استنفد كل منهم ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار في البر والبحر ما لم تشهد مثله في جميع ادوار هذه "الحروب الصليبية" واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ربيع سنة ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م حين وصلت امداد الفرنج من البحر الى من كان منهم على عكا وكان اول من وصل الملك فيليب اوست في ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ م فقويت بذلك نفوس القوم والحوار في قتال المسلمين ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) .

وكان قبض خرج من ملوك الفرنج في هذه الحملة ملك الالمان صاررحاله وارينه علو القدس ايامية حتى ^{عبروا} حليجها وصار علو ار بلاد الاسلام فاهلكهم البرد والحوء والتركمان ، ولما تاروا مدينة نونسة نزودوا وصاروا حتى اتوا بلاد الارمن فامدهم ملكهم بالاقوات والعلوفات ثم اتجهوا نحو انطاكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليفتضا ففرق نفسه . فصار ولداه ملكا بعده غيرانه اختلف عليه اصحابه وما كاد يسير بهم حتى وقع فيهم الوباء والموت وما ار وصلوا الى انطاكية حتى نسم بهم صاحبها فداروا حتى طار اليهم ولم يبق منهم الا القليل فركبوا البحر الى عكا ولما راوا ما نالهم في الطريق من جهد ونصب عاودوا الى بلادهم وكان هذا آخر العهد بهم (الكامل ج ١٢ ص ٢٣ - ٢٤)

ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) في حمادى الاولى سنة ٥٨٧ هـ و ٨ حزيران سنة ١١٩١ م وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص واخذها من الرثم غدرا ولما فرغ منها سار الى عكا فوصل اليها في ٢٥ قطعة كبار ملوثة رحالا واموالا فعظم به امل الفرنج واشتدت نكايتهم بالمسلمين وضائق بهؤلاء الحبل فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه - اليهم فلم يقدر لهم على نفع فعزموا على تسليم البلد يوم الجمعة في ١٧ حمادى الآخرة و ١٢ تموز على الشروط الآتية (١) بذل مائتي الف دينار وخمسماية اسير من المبروفين ^{من المبروفين} (٢) اعادة الصليب . (٣) دفع ١٢ الف دينار للمركب صاحب صور فقبل الفرنج ان يؤدوا الفموي مقابل ذلك (١) خروج من في البلد باموالهم وانفسهم

على ان ينفذ صلاح الدين تلك الشروط . فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما . فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وجسمهم واظهروا انهم انما يفعلون ذلك رغبة منهم في ان يبروا شروط الصلح في حيز التنفيذ وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصلب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما احتجم عنده من ^{المال} مائة الف دينار راسلهم بالبا اليهم ان يحلفوا اليه على اطلاق الاسرى وان يضمن الداوة ذلك . لانهم اهل دين يرون الدماء . فكان جواب النابوة انهم لا يحلفون ولا يضمنون لانهم يخاصون غدر من عندهم وقال ملوكهم = " اذا سلمتم البنا المال والاسرى والصلب فلنا الخيار فبمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزيمتهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا واعاد الرسالة اليهم وقال " نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصلب ونعطىكم رهنا على الباقى ونطالبنا ونضمن الداوة الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا = " لا نحلف انما نرسل البنا المائة الف دينار التي حملت والاسرى والصلب ونحن ^{نطلب} اصطيكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيى باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم فلم يجيبهم السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء في ٢٧ رجب سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ آب سنة ١١٩١ ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحماوا اليهم فانكروا من مواقفهم واذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلوا قد وضعوا فيهم السيف واستنفوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من نواهم من سوادهم واصطلم بهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في البنا الذي كان همه واعاد الاسرى والصلب الى دمشق .

وعلى حال حال فليس امتلاك الفرنج لعا بالثرى العظام انهم قضوا

فولذلك سنتين من الزمن وكان الاجدر بهم ان يبذلوا ما بذلوه من مال وجهد ورجال في مقاتلة صلاح الدين نفسه وكسر شوكة اذ ربما كانوا قد استطاعوا ان يحمدا وشوكة المسلمين وان يستردوا ما خسروه به معركة حطين وهكذا يكون الفرنج قد ربحوا مدينة واحدة وابقوا على قوة صلاح الدين كاملة هذا فضلا عن ان حيد الفرنج كان مؤلفا من جنسيات عديدة

كان معها الحسد والنزاء والفرقة اغلب عليهم من الاتحاد والتعاون الوثيق . وقد كان وجود
فيلب وريشارفو نفس المعسكر كقبلا سوفوقه من ذلك انه كان كل منهما قد حمل معه
حقده على الآخر وكان تفاخر كل منهما على الآخر بكمالاتهم لابقاء الدفاق والفرقة بينهما
وبين قواها هذا ولم يكن كونراد وهو بجيز منهما ان كان الاخران يتنافران كل منهما
صاحبه وبعد حصارها بقليل وقع بينهما الخلاف على تاج القدس ان كونراد تزوج
بإيزابيل ابنة زوج سبيل في اواخر سنة ١١٩٠ م وبذلك يكون قد نال الحق الذي
في عز القدس لان سبيل كانت الان قد توفيت فقام فيليب بسانده في دعواه فما كان
من غير الا ان تنفي على ريشارد ان مدعاه هو ايضا في نصيبه ولعل هذا ما كان
ربه ان ينطلبه . وهكذا تشابكت منافسة فيليب لريشارفه منازعة كونراد لغنى واخذوا
يشتملون بهذا وذاك مما كان من فيليب الا ان استعد للرحول الى قرصة نابجرم عكا
في اليوم الاخير من تموز سنة ١١٩١ م مدعيا ان السبيل لذلك حالته المعجبة ولعل
الحقيقة ان لم ترقه الطل في فلسطين ان مصالح ^{فرضت} اقتضت وجوده هناك .
على كل حال فقد وصه الانكليز بذلك بالقدور والخذلانة للفضية الكبرى . غير ان
مذاكرته للفلسطين لم تحسن الطلة فيها ان بقيت اكثرية الصليبيين من الفرنسيين
بقيادة امير برغانديه وحملت القيادة العامة لريشارد وان كانت سلطته قد حدها
كثيرا ان لم يترك معه في مدارجه احد من كانوا يساندون كثراد الذي بقى في
صوري بترقب القرم ليزيد في رفعة املاكه وما لبث ان دخل في مفاوضات مع صلاح الدين .
(١٥٨) واصبح الممول الان في تحسين عمالة الفرنج في القام خاصة
وحالة الحملة الثالثة عامة ، على كم ببرهن ريشارد في حملاته من سياسة وحسن قيادة
ان لم ببرهن انه فهم مقدار اهمية القضاء على قوة صلاح الدين واكتفى بالعمل على استرجاع
القدس غير انكم تردده في العمل ايضا قد زاد في سوء الحال حتى كان سفره الى
انكلترة ثالثة الاسافى .

ولما فرغ الفرنج من اصلاح امرها بوزوا منها في ٢٨ رجب و ٢٥ آب
وساروا مستهبلين نحو حيفا فنزلوها ثم منها الى قيسارية فارتسوه فبافا فنزلوها
ولم يكن فيها احد من المسلمين فملكوها ولما هزم المسلمون بارسون سار صلاح الدين

الى الرملة وامر بتخريب عسقلان فخرت في ١٩ شعبان والقبت حمارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرجة ما لا يقي تحت حصره فماتت اثارها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع القوم بتخريبها اقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها .

هذا ما كان من امر ربة اربعد اخذهم عكا اما المركيز كونراد صاحب صور فلما رأى ما رأى من من ملك الانكليز وفدده به عاد الي صور ولما سمع بتخريب عسقلان ارسل الي ريشار بنحو عليه بالاثمة وبقوه قائلا = " لو كنت مكانك لارسلت كهف اسرع الي المدينة فاحتفلها عنوة قبل ان ادع للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل . "

وعندما فرغ صلاح الدين من عسقلان رجع الي الرملة فخرت حنينا ومنها دخل القدس وبعد ان تفقدتها والطماع الي حالها توجه الي القسطنطين في الثالث عشر من رمضان والرابع من تشرين الاو فراسله جيفشا ملك " انكلتار " يطلب المهادنة اذ لم يعد بعد من اى الفرنج ملازمته في حروبه المشوقة . فثلث الرسل تنرد الي الملك العادل اخي صلاح الدين حتى استقرت القاعدة = (١) ان ريشار يزوج اخيه من العادل (٢) ويكون القدس وما يابدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل (٣) وتكون عكا وما بعد الفرنج من البلاد لاخت ملك " انكلتار " مضافا الي مملكة كانت لها داخا البحر قد ورثتها من زوجها (٤) وان رضى الداوية ما يقع الاتفاق عليه . فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجابهم انه . لكن رجال الدين كانوا الحائل دون تلك الامنية التي لو تمت لكان للفرنج . ان غير هذا الشأن ولكن

وهكذا لم يتم الصلح وراج ريشار يوم صلاح الدين بعزمه على قصد القدس وظل يماطل وينتدد حتى كان الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما . وكان ريشار اراد ان يبرر عجزه عن مهاجمة القدس فطلب الي من كان معه من الفرنج " الدايين " ان يصوروا له مدينة القدس ولما فعلوا ذلك قال = " هذه مدينة لا يمكن حصرها لك طالما صلاح الدين حي وكلمة المسلمين مجتمعة " فلما قال لهم ذلك علموا رايه وراوا قلة المبرة عندهم فاداروا عليه بالمودة الي الرملة فعادوا حائبين حاسرين . ولما حصر الفرنج عن القدس رحلوا في المحرم سنة ٥٨٨ هـ و ١١٩٢ م الي عسقلان ودخلوها ثم شوهوا في عمارتها لكن صلاح الدين لم يدهم بذوق طمع

الراحة بل ظل يواصل ارسال سراياه فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع العبارة عنهم دون ان يكون له فيها مطمع .

وفي خلا ذلك راسا صلاح الدين مقدم الاسماعيليه وهو سنان بوجوب العماد بواسطة رجاله على قتل المركب صاحب صور فكان ذلك في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ و ١٢ ايلول سنة ١١٩٢ م ونسب الفرنج قتله الى تدبير من ريشار لينفرد بطلب الساحل الدامي . اما الملك "غوي" فكان قد اتى من ريشار جزيرة قبرص وذهب لينسلمها . فقام على حكم الفرنج فكان المركب المذكور الكون هنري ابن اخت ريشار وزوج ابنايها ارملة المركب هناك حتى سنة ٥٩٤ هـ و ١١٩٢ م .

في تلك الاثناء هم ريشار على مغادرة البلاد ان رأى اجتماع عساكر المسلمين وحوزة هو عن مفارقة ساحل البحر وقد كانت غيبته عن بلاده فراء براسل السلطان في الصلة فتروى السلطان بالاحاطة خوفا من ان يكون ريشار اسما بفعل ذلك حديفا ومكرا وارسل يطلب من المصافح والحرب فاعاد الفرنجي رساله مرة بعد مرة الى الملك الادل في تقرير الحمل فاجاب راسم الدين حينئذ مشاهرا الى الصلح فحضر ريشار الفرنج وعقدوا الهدنة لمدة ثلاث سنوات وثلاثين شهرا ٥٩٢ هـ ١١٩٢ م و ١١ ايلول سنة ١١٩٢ م . وتحتل القواعد - (١) تسيطر البلاد الساحلية للفرنج والداخلية للمسلمين (٢) تنقى القدر من اليهود المسلمين ويسمح للحجاج الفرنج بدخولها مع بقاء كنيسة القمامة في حوزتهم . (٣) اما عسقلان فتحرب ولا تكون لاي من الفريقين وبذلك انتهت الحملة الثالثة بالفضل الذرية ان كان حبيبا بدون قيادة موحدة فضلا عن الخلافات التي كانت مستحكمة بين الزعماء من الفرنج الوافدين منهم والمبتدئين سيما كان المسلمون على اللحد من ذلك موحدة القيادة بزعامة رجل الساعة صلاح الدين هذا مع وحدة في الهدنة ورغبة اكيدة في العمل لتخليص البلاد .

اما صلاح الدين فسار عندئذ الى القدر وتنفذ مؤمنه ونحصرنا ثم توجه الى دمشق وحما طريقه على الشور الاسلاميه كماله ولطيرة وحشد ونهين وبيروت وتعهده هذه كلها وامر ما كامها وفيما كان ببيروت اتاه بوهند صاحب انطاكية واهمالها واجتمع به وخدمه فخلق عليه صلاح الدين وعاد الى بلده ورجل صلاح الدين الى دمشق بدخلها بن الاربعاء في ٢٥ شوال وكان دخولها اليها يوما مشهودا وفرح

النساء فرحا عظيما لطوا غيبته ولذات العدو .

وفي هذه السنة ٥٨٩ هـ في عفر توفى صلاح الدين بدمشق في
٣ اذار سنة ١١٩٣ بعد حمى اصابته في ١٦ صفر - نبي ٢٧ منه ٥٨٩ هـ وصره ٥٧ سنة
لقد طوى القرن الثالث عشر (١١٩١ - ١٢٩١) آخر صفحة من تاريخ
الحروب الصليبية وكان السبب الاكبر في ذلك ان الامدادات التي كانت اوروبية تواصل بها
الفرنج في بلادنا قد خفت الى حد لم يعودوا يستطيعون معه الدفاع عن انفسهم فضلا
عن هجوم جديد يقومون به .

ولم يكن مرد ذلك ، في اعتقادنا ، الى ان ^{حمية} حمية القوي الدينية قد خمدت
اذ انها وامانها من " من الفتور بسبب فشل " الحملة الثالثة " بل على الضد من ذلك
فقد ظلت تلك الحمية تلهم قلوبهم ببلبل ان البابا لم ين من دعوة الاوروبيين الى
استرداد فلسطين كما ان الامراء والملوك يحثون ذلك من اقدار واحباتهم ، غير ان
هواما جديدة تعمدت للحيلولة دون ما كانوا يبتغونه ، فمن ذلك غملات نادسية
(عرفوها بالصليبية تجورا) حملتهم الى نواحي عديدة من اوروبا نفسها ومطاميرهم
وحال ذلك دون القصد اليه ديارنا ولوت الصليبيين عنها الى المائدة واسبانية وسواها .
ففيما كانت الحملة من افول الحملات (الراحة) تعد للنجاح الى بلاد الشام في ١٢٠٢
اذ بها نحووا الى القسطنطينية (١٢٠٢ - ١٢٠٢) فكان في ذلك لفت لانظار القوم
الى بلاد الرم لمدة سنة ونيو ونحوهم عن اوطانهم خو ان يرقه الفرسان
التوفيق التواضع حوالي ١١٩٨ لنما في الشام قد صرفت جهودها في خدمة الكنيسة
والامة في جرمانية نفسها .

ولم يكن مثل هذه الحالات لمحقق وحده القوم ممد يد المعونة
الى الفرنج في بلادنا بل كان هناك ايضا ما تدخل البابا والاميرالمطور عن ازواج المسلمين
في الشام وذلك ما كانا فيه من نزاع صلب آنذا . ولعل فردريك الثاني كان يستطيع
ان يسترد ما كان انتزعه صلاح الدين لو لم يبق طوال حكمه مشغول بالدين في نزاعه
مع البابا (١٢٢٠ - ١٢٥٠) وقد بلغ ذلك النزاع بين الكنيسة والاميرالمطورة الذروة
بعد موت فردريك في حين كان الفرنج في بلادنا ^{الشام} بائس الحاجة الى مدد اذ كانت
حياتهم أصبحت تنوء ، حقا على مقدار ما كان يصلهم او يمكن ان يصلهم من المدد عن

من طريق أوروبا . انخف الى كل ذلك ان اعظم ملوك أوروبا في اواخر القرن الثالث عشر
هـ (١٢٦٢ - ١٢٨٥) ونعني به شارل انجولمك صقلية) قد فشلت الغنبة القديمة
القائمة على التزام بين النورمان والروم من اجل املاك القسطنطينية عن كل اهتمام
وعناية بامر الشام وقابا الفرنج فيها ، حتى انه نوى حملة صليبية منها الى ~~مصر~~ تونس
ولم يلبثت في كاحياته الى التفكير بها او بعين فيها من الفرنج .

ولم يكن ما سلفنا ذكره هو كل شيء بل ان الفرنج انفسهم في بلادنا لم يكونوا خيرا ممن في اوروبا اذ كانت المنازعات بينهم ايضا قائمة قاعدة الى حد لم يعد استنجادهم باوروبا ليمرك في نفوس القوم اقال اتر .

ثم ان ما كان يتصف به صلاح الدين من الحمة الدينية والرغبة
الشديدة في جهاد القوم ، لم يكن احد من ورثته وخلفائه قد ورث شيئا منه ،
فقد كان اخوه العادل وكذلك الكامل (ابن العادل) تسيرهما عوامل اخرى ،
فدخلتهما المنازعات المحلية والمنافسات على الملك فكان ان استطاع الفوئح استرداد

وفاة بعض العادل او ابنه الكامل او اسماعيل وابوبندك في السنوات (١١٩٨ - ١٢٠٤ - ١٢٢٩

١٢٤٠ - ١٢٤١) ومما بلغت النظر أنخذ ان الصليبيين الغربيين انفسهم لم يحرزوا انتصارا عظيما يذكر فضلا عن انهم لم يفتحوا بلدة واحدة عنوة واستبقوها في ايديهم . فحملنا (١٢١٧ - ١٢٢١) و ١٢٤٩ - ١٢٥٠ ، كانتا اكثر الحملات عددا وخطورة ومع ذلك فكلتاها تلاشت في مياه النيل دون ان تثبت لهم قدما فيها .

ولقد لفت سياسة المناخرين من الابوين المسألة هوى فو

نفس فردريك الثاني امبراطور جرمانية وملك صقلية ، فكان على **وفاء** تام مع الملك الكامل . اما السلطان ابوب ، فعلى قصر عهده في السلطنة = ١٢٤٠ - ١٢٤٩ قد شغل

أبامه في الحروب الداخلية . وظلت الحال كذلك حتى وقد الحوزانيون (١) الترك الحوزانيون
واستتركوا معه في طرد الفرنج ثانية من القدر وجعلهم يفتحون أصنهم على ما قد خبا لهم
المستقبل القريب من المفاجآت . وهكذا انقضى عهد المهادنة والتساهل معهم

(1) من التلاميذ

وكان آخر الالبوين توران شاه بن ابوبفا ان استشهد عن المالب بضعفه حتى اغتالوه وانتخبوا من بينهم من خلفه في ١٢٥٠ .

وكان لا بد لمؤسسى الاسرة الجديدة من ان يشغلوا موقنا في حروب اقتضاها انقراض سلالة وقيام اخرى ، فضلا عما اعترض طريقهم من عزوة التتر وفنشد للدمار الشامية . وقد كان ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) اول من تصدى بوقف زحفهم وجهاد الفرنج بعد صلاح الدين ولا عجب ان تشابه انتصاراته بانتصارات سلفه العظيم ، فقد اكسبه باقا وارسون وقسارية في الجنوب كما احتل حصن الاكراد وصانينا وحصونا اخرى في مقاطعة طرابلس فضلا من فتحه لانطاكية واكثر ملحقاتها في السما . ثم جاء بعده في الاهمية السلطان قلاوون وماليت ، بعد هدنة مع الفرنج عما خلالها على تقوية نفسه ان كثر على طرابلس وانتزعا ما تبقى منها . وفيما كان سعد العدة للانقضاء على هناك اذ بالوفاة تحول بينه وبين مبعثه ، لكن امانيه قد حققها بعده خلفه وابنه الملك الاشرف خليل اذ ما كاد يتسلم زمام السلطنة حتى سار الى تسديد التربة القاصية في ١٢٩١ الى الفرنج في عكا فاخذت على انرها المدن مسلم واحدة بعد الاخرى فكانت النهاية كبرى من الورة او خبط مسن العنكوت . وهكذا اسدل الستار على آخر فصل من ماساة قام ودارها الغريبون باسم الدين ظاهرا واسم الاستعمار باطنا

تلك نظرة خاطفة في تاريخ الحروب الصليبية كان لا بد منها قبل الخوض في موضوعنا الاصلى وهو العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الفرنج والعرب في الشام خالها وما تم من تبادل بينهم في هذه النواحي وغيرها وما كان له من اثر في نهضة اوربية وتغلف الشام .

الفصل الثاني

- ١ - المجتمع الشامي في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي
- الحالة السياسية - السكان وكثرة اجناسهم - حالتهم الاجتماعية -
- الحالة الدينية عندهم - تسامح العرب في حكمهم - تحليل بعض الشذوذ -
- الحالة الفكرية - الحالة الاقتصادية - الفنون الحبلية

الفصل التاسع - ١ - المحتجم الدامي في القرن الخامس الهجري

الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي .

الحالة : ان ما نصبت به الخلافة في القرن الثالث الهجري من ضعف وامنيان على بلاد مالبيكا الاثراك قد اداع الفوضى في ممتلكاتها ونشر الذعر والقلق في امصارها حتى طمع القواد والامراء في القرن الرابع من مختلف العناصر والقوميات في الاستقلال عنها وتأسيس الحكومات هنا وهناك ففدت الامبراطورية العربية كرقعة الشطرنج اجزاء والوانا .

وكان للديار الشامية من ذلك نصيب كبير ان نوات عليها الدولات ،
بقيهما قواد اثراك مستبدون اوزها عرب متالمون ، فكانت الدولتان الطولونية
والاخشيديبة التركبتان ثم الحكومتان الحمدانية والفاطمية العربيتان ، فما كان
من الزم الا ان ادلوا دلوهم وسط تلك الفوضى عليهم بفوزون ببعض الغنمة
او كلها . واذا بهم ، وقد عجزوا عنها جميعها ، يفتحون حلب ويخربون قصر
الامير سيف الدولة الحمداني فيها سنة ٣٥٠ هـ و ٦٦١ م ، ثم عادوا مرة
اخرى وتوغلوا في كهلبيكة عام ٣٥٩ هـ ، ٩٦٩ م . فتفتحت امامهم ابواب
السام وتقدمت جيوشهم حتى انطاكية التي ظلت في ايديهم الى عام ٤٢٧ هـ .
و ١٠٨٤ م .

ثم بعدها بقليل طمعوا ببيت المقدس فجاسوا خلال الديار حتى دخلوا
دمشق ونقاضوها الحزينة ، لكنهم فشلوا في الدخول الى فلسطين وقد تحدث
ابن الفلاس عن توفار القوم في البلاد حتى بلغوا الواحل حين اقتحموا بيروت
وحملوا على اهلها عبيدا وكذلك فعلوا بحيل ، لكن ارايكم صمدت لهم اربعين
يوما فاضطروا بعدها الى رفع الحصار .

وفيما كان سيف الدولة في كروفرم الروم اذا بالفاطمين يزيدون طينة
البلاد بلنة وسباحمونها من الجنوب كان ما حل بها لم يكن كافيا ليجهز عليها حتى
اتوا برهقونها فتزداد صغفا على ضعف وفوضى على فوضى .

ثم لما انكشف عنها الريم وتغلب الفاطميون ظهر المرداسيون ففى
اوائل القرن الخامس الهجرى فى حلب وما زالوا فى قتال مع الفاطميين
حتى ضعفوا وزالت امارتهم عام ٤٧٣ هـ . و ١٠٨٠ م .

فى تلك الاثناء كان السلاجقة قد ثبت ملكهم فى العراق وانهم
نفوذهم على بلاد الريم عامة وعلى الشام خاصة سنة ٤٦٣ هـ و ١٠٧١ م .
وليس غربا ان يتساءل الواحد منا فيقول = " وماذا كان موقف
الساميين انفسهم من تلك الحال التى ترى بلادهم تتخبط فيها كالاكرة بين ايدى
صفار اللاعين وارجلهم " . فالجواب على ذلك = " ان المصائب التى نالت
عليهم منذ سقوط الامويين وعلى البلاد كانت على ما يظهر قد اوهنت منهم
العزائم واضعفت فيهم العزة القوية فجعلتهم يسكنون الى كل غاز ويحتنون الى
كل فاتح ليتفنون من كل ذلك موقفا سليبا غربا كان ما يحدث عندهم لا يحثهم
منه شئ ولا يتاثرون منه بامر " .

الحالة الاجتماعية وتحسن بنا الان ان نلقى نظرة على السكان فنحللهم الى عناصرهم
وادبانهم لننتظم مجتمعهم فى تلك الفترة من تاريخهم .

ان اقدم من عرف التاريخ من اهل الشام يكون من الساميين
(١) الآراميين (٢) والعبرانيين (٣) العرب . اما قبل نزول هؤلاء فكانت البلاد
مقاما لفئات لا يعرف اصلها . وكان الساميون اقوى منهم فتغلبوا على بلادهم
واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهكذا نصت
الغلبة للساميين ولآدابهم وادبانهم (زيدان النعدن الاسلامى ج ٥ ص ١٠)

على ان موقع الشام الجغرافى جعلها عرضة لطامع الغاصبين من الام
القديمة كالمصريين والحثيين والاشوريين والفرس ، وتقاطرت شعوبهم اليها ، ولكن
الامر لم يستقم لامة من هذه الام فى الشام كما اسقام للسيلوقيين من خلفاء
الاسكندر ، فتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واخذوا ياءلها لا سيما بعد ظهور
النصرانية وهى فى سلطنة الرومان غير انه ظل العنصر اليونانى متغلبا عليها فى مواعيل
البلاد كما بقى يضغط فى الداخل تدريجيا .

ومع ذلك الاختلاط بقيت الشعوب السامية محافظة على آدابها
ولغاتها وهاداتها وخاصة اليهود منهم في الجنوب ، واما الآراميون فسي
الداخل فقتنصروا وانفردوا بأديبهم وهاداتهم .

وعلى هذه الصورة كانت حدود النظم الغربية على السواحل
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية
والغلب عليها العنصر العربي . وكان ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ،
امة عربية عرفت بالانباط ، تنزوا وراء فلسطين غربا بحضون في بقعة تمتد
من شبه جزيرة سينا الى حوران تعرف ببلاد العربية الصخرية ولا تزال
آثار عاصمتها سلم (البترا Petra) باقية الى الآن . وكذلك في القرن الثاني
قبل الميلاد بسط الايطوريون وهلم جبل من العرب نفوذهم على الجهات
الشمالية من جبل لبنان (الكورة وكسروان) وعلى الساحل ما من طرابلس
وبيروت وظلوا حتى الفتح الروماني ، ولسنا بتأصيل ايضا ملكة سد مصر
العربية باكثرية سكانها والدور الهام الذي لعبته ايام القرن الثالث
الميلادي في تاريخ البلاد وحضارتها . وما ان طلع القرن الرابع
الميلادي حتى كان "ملوك الشام" من الفساسنة في الحولان وحوران . . .

فسكان الشام عند الفتح العربي إذا كان معظمهم من بقايا
الآراميين الاصحاش وبقايا الانباط والايطوريين والتدمريين والفساسنة
وتدخلهم جميعهم تحت اسم اخرى غير سامية كالجراجمة في جبل الشام ^{جزيرة}
واختلاط من مولى اليونان والرومان في الساحل ومولى الفريز والاكرواد
في الشمال .

على انه لا يدور على التحفة عدد القضاة النازحة من
جزيرة العرب ايام الفتح ، ولكن المؤكد ان اكثرهم لم تكن مما بقى
ان يكونوا السواد الاعظم في البلاد التي تزاولها آنذا بل كانوا
في كل منفع حفنة صغيرة اذ ما تكون بالخميرة في معجن العجسان .

ذلك لان القبائل التي هاجرت منهم الى البلاد المغلوبة لم يكن عددها ليزيد عن نصف المليون من النجوم في الخمسين السنة الاولى وقد قدر بعضهم من نزلوا الشام مائتين وخمسين الفاً ، والشام اقرب الاقطار الى الاختلاط بحضيرة العرب ، ومع هذا فظل عدد العرب في الشام الى قلة ، ثم حدث في اثناء الفتنوح الاموية والحروب الداخلية ان انتقل بعض الطوائف والجماعات كالزط الى الساحل في ايام معاوية والحراجة الى الداخل ايام عبد الملك وذلك لباخذوا مكان الرمح الذين نزحوا عن البلاد اذ ذاك .

وهكذا في اواخر القرن الاول من الهجرة اخذت قبائل جديدة تغد على البلاد فكانوا النواة مع من سبقهم اليها في تعمير البلاد واهلها ثم انشا اهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحسب الطسعة اذ فتح لهم الدرب باب الخدمة في الدولة ولم يمس القرن الثاني الهجرى - نحو غدت الاكثرية الساحقة في القرنين التاليين من العرب وان لم نقل في الدم والجنس ففي اللسان والثقافة .

غير ان المرأة في تلك الاثناء كانت قد فقدت كثيرا مما دعت به في العهود الاولى من احترام وكرامة ، مع كانت توارث الرجل على عادة العرب ، في نضاله وتشاطره العزة في فخاره ، اذ انزل سقوط الرجل ، بعد ذلك ، الى مهاو سحيقة من الانحلال الخلقي بسبب الحوارى والقبان وما تبعهما من نخف وامنياء ، توارث على اثر ذلك المرأة العربية عن العيان وانحذت مكانها في المؤخرة نهتم بعن الاهتمام بالآداب والعلم وتعنى بشئ غير يسهر من التنسك والتصون .

وهكذا بعد ان كانت رهبة الدين وهيبة الخلافة في عصر الراشدين تحولان دون تودد العرب في سبيل الشهوات والملاذات حاشا دولة الامويين ، واذا هم ينفخون في العرب روح العصبية فيحجرونهم بذلك عن مخالطة من يملون امورهم من الامم الا مخالطة الحذر المنفر .

فيران بعضا من وسائل اللهو ما لبث ان جلب الى الامصار
ومنها الى دمشق فتذوقه الخوام من سادات العرب حين اطمان بهم الملك
وانقطعت اواصر الفتن ، ومن هذه الملهيات الفناء . على ان ذلك لم يستمر
تعدت القلبي من ذوى الجاه ^{منهنا} ، يستمعون في كثر من النجمل والاعتدال وما
زالت تلك حالهم حتى كان خليفهم الوليد بن يزيد فأنحرف عن سبيل
آبائه واجداده الى اللهو والخلاعة والتبذل .

ولم يكن للجواري في ذلك العهد شان ولا حظ ان لم يتخذن
الا فهام للخدمة او سراى للاستبلاء وقد كانوا مع ذلك ينكرون على الهجنا
- ابنا الاماء - ان يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة . وهذا ما
صاح به هشام بن عبد الملك زيد بن علي بقوله - " بلغنى انك تطالب
بالخلافة ولست نصلح لها لانك ابن امة " .

^{باعتبار}
فظلت المرأة العربية بفضل تلك المعصية في الذروة والصلام
من الاكرام والاحترام ولم يؤثر فيها ^{اشبه} احلتها من مظاهر النعيم ومجالي
الترف في شئ من نفاق فطرتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية
ابنائها لان المعصية استيق للرجل حمية وحفظت عليه غبرته وعفته والرجل
مرآة المرأة

ولكن لم تلبث ان اضطرت احوال الامويين ^{والتأث} صفوفهم
وتبددت جماعتهم فقامت خلافة العباسيين وقام ^{زعموا} الفرير ^{بمقتضى} آخر جذوة من
الحمية العربية ونفطمون آخر عقدة من المعصية العربية فاجلبوا عليها بكل ما
بوهن النفوس وصلى القلوب من سماع وشراب وكواعب اتراب واغرقوهم في بحر
طام من الترف والاسراف ، وما ان انساق الرجل الى الزهو واللهو حتى
تبعته المرأة .

فكان للرجل العربي في حياته الجديدة امور صرفته عن نصفه
الافضل من بنى قومه ثم زالت الصلة بينهما نهن والعقد نحل حتى
استنحوا هو عدوا لها باخذ عليها مدارج انفاسها ويخصي عليها لحظات
عينيها وتبركات صونها وخطرات نفسها .

ولعل أوضح مظاهر انحطاط المرأة العربية في العصر العباسي
تحقير الشعراء غلبها وإفراؤهم الرجل بها حتى مرتت الألسنة وأطمأت
الاسماء الى مقالة السوء وإشاعة الفاحشة بين الناس ونشغل هذا في
أقوال الشعراء وإذا رحنا نوازن بينها وبين ما كان يقال بها في العهد
الحاهلي وصدرنا سلام والعهد الاموي عندها أدركنا ما وصلت اليه
المرأة من الانحطاط في نظر الرجل وفي نفسها من ذلك إلى قول أحدهم
في العهد العباسي =

لا يُؤمِّنُكَ من مخدرة
قول تغلظه وإن جرحا
هَنُرُ النساءِ الى مياسرة
والشيء يسهل بعدما جمعنا
وقول الآخر =

كان الشهاب مطية الجبل
ومحسن الضحكات والهزل
والباعث والناس قد رقدوا
حتى أزور حليلة الجبل
أما في المهود السابقة فدونت ما يمثل رأى الشعراء — وهم
المعبرون عن رأى العام — بالمرأة إذ ذاك =

قالت — وقت تخرجي وصلى
حبل امرئ يوصالكم صب
صاحب إذا بعلى • فقلت لها
القدرمى • ليس من قُربى
تنتان لا أدنو لوصولهما
مرس الخليل وجارة الجنب

والحار اوصاني ٤ روى

كما ان في صدر الاصلاح كان الشاعر بقوا . -

ما ضرر جاری از یجاورنی

أَلَا يَكُونُ لِيَمِينُهُ سَعْرٌ

وكذلك كان الشاعر في الجاهلية يقول -

واغیر طرفی ان بدت لی جارنی

• حنی یواری جارنی ماواها •

وهكذا ما زالت حالة المرأة في نقهفر وانزلاق حتى جاء ابو العلا في القرن

الخامس وراح بينهما في زمنها وامانتها ودينها وخلقها . ولم يدع لها

لحمة من الخبز ولا حجب عنها الفحة من الشر وهو الى كل ذلك لم يعد

• ما بقوله فيها اهل عصره .

ولم يكتف الرحا ان يفضها عن منال العيون وسدل دونها

الاستنار حتى راح يتأوا فيها إمام الدين 'رؤيعة' منها وباله في ذلك المناخرون

من فقها الحنفية . ولم يلبثوا ان تناولوا ايضا في صونها فقالوا - لا يجوز

لها ان تلي جهره " . هذا فضلا عن الحيلولة بينها وبين تادية الصلاة جماعه

كل ذلك ما ناوله فقهاء القرن الخامس باسم الدين -

والدين منه برا - ورأ للفتنة وحسما للدا الويل على رابهم .

ولقد اغرق الناس في حجاب المرأة حتى قُتِبَ عليهم ان يذكروا

اسمها . وبعد ان كان معاونة يتحدث عن نفسه الى مجلس خلافته فهددا

حدوثه بقوله - "انا ابن هند" . وبعد ان جاء الشاعر بنو امية بمدح لعل

المجتمعة عبد الملك بن مروان بقوله .

انت بن عائشة النسي فقلت ارمي بناتهما

بعد كل هذا وذاك أصبح اسم المرأة بحساب ذكره وتخلص

وجوه الكتابه عنه حتى لقد اراد ابو الطيب المتنبي ان يرقى خوله بنت

حمدان تحت الامبر سيف الدولة فسماها فعلا =

كَأَن فَعَلَهُ لَمْ يَنَلَا مُوَاجِبَهُمَا ۖ دَبَّارٌ بَكَرٌ وَلَمْ يَخْلُجْ وَلَمْ يَهْبِ

الحالة الرئيسة الى هذه الحالة كانت قد وصلت المرأة في المجتمع العربي ومنه
الثاني في القرن الخامس . وكما تعددت عناصر السكان واختلفت اجناسهم
كذلك تنوعت ادبياتهم وتفرقت مذاهبهم فكانت العربية اولا والمسيحية
والنصرانية . كما جاء الفتح العربي فاضاف اليهما الاسلام وقد كان ما لبث
هذا ان اتخذ طريقة بينهما وهذا دين الاكثرية من السكان في القرن
الرابع الهجري .

ما لا شك فيه ان العهد العربي في الشام قد امتاز بروح التسامح
التي تمت البلاد ونعمت بها جميع ^{الدينية} ~~الدينية~~ من يهود ونصارى .

وكان للمسيحية فرقتان - اليهودية والسامرية كما كان للنصارى
فرقتهم وطوائفهم - النساطرة واليعاقبة والملكية ثم الموارنة وطالما قامت فيها
المشاحنات والمنازعات حتى كان العهد العربي فاقتر الخلفاء الكنيست
الارثوذكسية وعاشت بغير الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قهلا .

واذا رحنا نقابل بين ما كانت الحال بين اهل تلك المعتقدات
من مجادلات ومشاحنات في عهد الروم وبين ما آل اليه امرهم ايام العرب
من تسامح ، رابنا الفرق عظيما واليون شاسعا ولا غرابة نفى ذلك فان الاسلام
قد اقر ما سبقه من ادیان سماوية ووصى باهلها خيرا وترك الخلافات
لهم الحرية الدينية تامة غير منقوصة ، بشرط ان يؤدوا ما عليهم من جزية
طفيفة مفروضة لقاء حمايتهم من العدو وقعودهم عن حمل السلاح بل انها
تركتهم وديانهم في احوالهم الشخصية وحاكمهم الدينية وراحت تستعين بهم
في الادارة والكتابة والمالكة .

اما ما قبل من عمر بن عبد العزيز من اصداره عيدا لاهل الذبيحة
بخرج به عن تلك الخطة الحبيدة ويخرف عن سياسة اسلافه من الخلفاء
فلا نعتقد صحته ونشجبه بشدة انه لم يذكره سوى المتأخرين من المؤرخين
فضلا عن اضطراب في طريقة ابراده . اصف الى هذا وذاك بعده عن روح
الرجل وصره (زيدان - التمدن ٤ ص ١١)

لكننا نفر ونعترف بسوء ما اتاه المتوكل والرئيس من قبله والحاكم من بعدهما غير ان لذلك تعليلا يرجع الشيعة فيه عن العرب عامة والاسلام خاصة . ومرد ذلك عندهم الى (١) خلق الرجل منهم خاصة او (٢) الى احوال طارئة جعلتهم يتخذون ذلك الموقف من المؤمنين .

اما المتوكل فقد كان شديد الوطاة على النصارى ولا نستغرب منه ذلك اذ لم يكن اقل وطاة على غيرهم ايضا فلقد شدد التكبر على الشيعة واهلك العلماء والكتاب . على انه لم يرتكب هذا الشطط لغیر داع البسه فقد حمله على ركوبه انتصار بعض النصارى لاعداء الدولة . وذلك ان المسلمين من اهل حمص قد ونوا بمحاملهم فلعانهم النصارى عليه فكان هذا داعيا الى النفقة عليهم (ابن الانهرج ٧ ص ٢٩)

واما ما يقال عما حدث في ايام الرئيس من الضيق عليهم (ابن الانهرج ٦ ص ٨٢) بالرغم مما عرف عنه من اعتدال وتسامح فمرجهه الى ان النصارى قد ساعدوا الرم في النفور)

وكذلك يقال في اضطهاد الحاكم الفاطمي لاهل الذمة من يهود ونصارى فانه يرجع الى خلقه الخامس وهلك المضطرب والى قيام حرب بين الرم وبينه يومئذ فتبادل الرم وللعرب تخريب المعابد هنا وهناك فكان ان امر الحاكم بهدم كنيسة القيامة بالقدر تشبها لما كان فعله الرم من تخريب جامع كان في القسطنطينية . واذا ما ذكرنا انه قد انزل الحاكم مثل ذلك في المسلمين انفسهم علما مبلغ تعصبه وحقه .

وما يفتهد بتسامح بعض الخلفاء مع اهل الذمة وتركهم لهم الحرية الدينية تامة غير منقوصة ما جاء في " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري " تأليف الاستاذ آدم فز استاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسرا وقد نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابوسريفة بكلية الآداب الشرقية / قد ذهبت الدولة الرومانية في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير ابعد مما ذهب اليه الاسلام بالتحية الى اهل الذمة . فلما احاد الامبراطور نفقور افتتاح بلاد الشام كان ما وعد به اهل الشام وامهم به ان يحبيهم من مضايقة

كنيسة الدولة ولكنه رغم هذا الايمان لم يال جهدا في مضابقة الحقوقيين ،
فاضطروهم مثلا الى الخروج من انطاكية * ه . وقد جاء في نفس المصدر
٦٩٠ = " وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق
النصرانية لمنعهم من المشاحرات ، حتى حين حاكم انطاكية في القرن
الثالث الهجري رجلا يتقاضي ثلاثين ديناراً من النصارى في الشهر
وكان مقره قرب المذبح . وعمله ان يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم
بعضاً " ه . وما يجدر التنويه به في هذا الصدد ما جاء لنفس المؤلف
ايضا ص ٨٧ " لا نجد المؤرخين حتى المسيحيين منهم يذكرونه الا قليلا
من المشافقات بين المسلمين واهل الذمة في القرن الرابع الهجري * ه .
هذا فيما يتعلق باهل الذمة فلنر ما كانت عليه الفرق الاسلامية نفسها .

اما الفرق الاسلامية فكانت في القرن الرابع الهجري
كما يلي = (١) السنة (٢) والشعبة ^{ولاكثر} ما كان بينهما من نضال وقتال
مرده السباسة حتى كتب للشعبة ناسير دولة الفاطميين فثبت التشيع
الذهني رسماً . ثم كان ان انقسم الفقم بالاضافة الى سوك الامانة
في ابناء علي بن ابي طالب فكان الاثني عشرية وكان الاسماعليون وما
ليث هؤلاء ان تفرقوا فيما فكان منهم في الشام الحشاشون والنصيريون
كما كان من الفاطمية الدرزية .

الحالة الفكرية

بم فتح العرب الشام ولم تكن اللغة العربية جديدة على
اهلها . ولا غريبة عن اسماع ذويها اذ كان النساسنة في الجولان وحران
كما كان التنوخيون في الشمال . هذا فضلا عن كان ينزلها من القبائل
والبطون في ارجاء تدمر والفرات وسبنا .
فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر وتبذت الرومية
والآرامية . ولم يضر القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في النظر كله
تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الآرامية تستعمل في تخاطبها
وطوقها الدينية .

فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر ونبتت الرومية والآرامية ولم يضر القرن الاول حتى أصبحت اللغة العامة في القطر كله تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الآرامية تستعمل في مخاطبتها وطقوسها الدينية .

وقد ظل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله = " لما كان لسان النواة عربيا ، اقبل الناس عليه يتعلمونه لان الناس تبع للسلطان فصار استعماله من طاعة العرب ومار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في البلاد وصارت الالفبا الاحمسية دخيلة فيها وغريبة " (الاسلام والحضارة العربية - لكردي علي ج ١ ص ١٧١)

ويرى الاستاذ العلامة فليب حتى " ان هذا الغزو اللغوي كان احصر عمليات الغزو الاخرى لدى العرب وقد يكون ذلك صحيحا بالاضافة الى فارس واسبانية ابلاد الآرية . اما الاصل الشام بوصفها ساهبة فلم تبد مقاومة في هذا الصدد . اما ما ظل سائرا من اللغة السريانية في بعض القرى في جبل لبنان مثلا - فمردء الى البعد عن مراكز السياسة من جهة والحركة الفكرية من جهة ثانية .

ونحسن الملاحظة في ان العربية كلغة تدوين وتالف قد سبقت اللسان في التخاطب .

وقد احتفظت الشام بعد انفصالها الى بني العباس بصفتها العربية واخذت اللغة تحول محل اللغتين اليونانية والآرامية حتى غدت لغة العلم ولغة التخاطب العامة ، وهظم حظ البلاد في الادب واشتهر فيها شعراء كبار منهم ديبك الجن الحمصي وابو تمام النحوي وتمثل الحركة الفكرية ابان القرن الهجري الثالث في اتساع حركة النقل من الرومية والفارسية والهندية الى العربية وقد قامت الشام بقسطها منها وقدمت لها نفرا من الفاعلين نذكر منهم فستان لوقا الملبكي وحبيب بن الحسن الاغمي الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الناصي الحمصي فقد نقل هؤلاء كتبا لافلاطون وارسطو في الفلسفة ولجالينوس وابوقراط في الطب كما نقلوا كتباً فبرعا .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢١ - المجلد الرابع - بيروت ١٩٧٩

الدرس - الاسماء الخمسة في سورته ولينام - حتى صيب

أما في القرن الرابع للهجرة فمع ما شهدته البلاد من فوضى في السياسة واضطراب في الاحتماء فلم يبق لا هذا ولا ذا علو وقف النهضة الفكرية فيها فضلا عن الحفا جذوتها با ظلت نار الفكر مضطربة موقدة . وما انتصف هذا القرن حتى ظهر فيه الادب في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله الا في عهد الامويين ، ويكفي ان نستشهد على ذلك بما كان ينحلو ما مآنيه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلبا حين قصد نواحي الشعراء والادباء حتى قيل = " ان لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الحلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شعراء الشعراء والنثر = " ولا عجب فالسلطان سقى بحلها ما ينفع لديه " وقد كان رب الفرس نفسه انما شاعرا محبا لحيد الشعر فردد الاهتزاز لما يسمعه منه .

هذا في الادب ، اما العلم الدينية فقد ظهر فيها نفس فسيو المائة الرابع بعد الهجرة على قوا السويو ، غير ان العلم العادية كالطب والهندسة والفلك فقد نبت فيها فحوا وظهرت بها نجوم تذكر منهم ابا الحسن كشمسراي الياصب العالم وعيسى الرقي المنعم (١) واما القسم علو بن احمد الانطاكي وكان رياضيا مهندسا . ومن المهندسين الرياضيين المحبوس الانطاكي كما ان نبت في الحفرافية والتاريخ محمد بن احمد بن ابو بكر البناء المعروف بياالمقدسي ، صاحب كتاب " احمد التفاسم " وكان لقبه الماروني كتاب ضمن في التاريخ (٢) ومن ازدان بهم بلاط سيف الدولة وعقدوا محالهم العلم والمناورة فيه ثم انتفا معه الى دمشق المعلم الثاني فيلسوف العرب ابو نصر محمد الفارابي .

أما القرن الخامس الهجري فقد امتاز ما نشأ فيه طائفة من الرعا الذين عنوا بالفلك ، والعلم الاسمي والرياضي والطب فكان من نشأ منهم في الديار الاشامية ابو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والطب ، ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم وعلو المسلحة والطب وجورجر بن يوحنا البيرودي العالم بالطب .

(١) وكان عيسو ينفذ من السريانية الى العربية (٢) الخطط ٤ ص ٢٥

ولعل اعظم ما يفاخر به هذا القرن تنوع ابي العلا احمد بن سليمان المعري التنوع في حكم العرب واديبهم الاكبر .

وصا يحسن التنويه به في هذا الصدد ان القاضي جلال الملك ابا الحسن علي بن محمد بن احمد بن عمار قد حدد في طرابلس دار العلم في سنة ٤٧٢ هـ . فنشرت العلوم والاداب واصبحت طرابلس بفضلها مباءة علم ودرر ومباراة في التعلم .

ولقد استلزم تلك النهضة الادبية العلمية جمع الكتب وتاسيس المكتبات حتى صار في كل جامع كبير مكتبة واحدا المصلاطين وامراء بنسابتين في ذلك .

ولعل اول خزانة للكتب العربية في الاسلام قد انشئت في دمشق انداها حكم آل مروان * خالد بن يزيد الاموي المنوف سنة ٨٥ هـ . وان لم يصح البناء فيه * كثير من اعمارها فانما كانت تحوي بعض الكتب التي نقلت اليه عن النجاشية واليونانية (الروية) والسريانية في الكسما والنجوم والطول وربما كان فيها بعض من كتب الحفريات لانه بنيت مما ناله ابن المنبدي عندما زار خزانة الكتب في القاهرة في سنة ٤٥٣ هـ . انه كان فيها كوة من نحاس من عمل بياضور وقد كتف عليها حملت هذه الثروة من الابر حالد بن يزيد بن معاوية (المهدية في ذلك كله علي الصحافة محمد كرد علي في خطه ج ٦ ص ١٨٩)

وحاء القرن الثاني للهجرة والاسام تنمو باعظم فاحشة سياسية في تاريخها وذلك بسقوط دولة بني امية وقيام بني العباس فلم يؤثر فيها انه كان فيها خزانة كتب اذ كانت الكتب تحبب ان ذاب في الحوامع او في بعض الدور الخاصة (انظر المؤلف) .

ثم ان الاسام لم تعرف دار حكمة مع دار للكتب كالتي انداها المأمون في بغداد او دارا للعلم مع خزانة للكتب كالتي انداها الحاكم في القاهرة الا في القرن الحاصر عندما اندا مثلها بنو عمار في طرابلس . وكذلك كان في كل من كبريات والمدن في زمن حكمها خزانة للكتب وقد زارها كما زار خزانة طرابلس . وهذه كانت قما بنو عمار مدة لابن الفضا بنو عمار

لم يستولوا على طرابلس الا بعد الاربعين واربع مائة ٤٤٠ هـ . وكان ابو العلاء قد زار طرابلس قبل هذا التاريخ وانتقم بخزائنها وكتبها الموقرة .

وكان ايضا في جامع حلب الخزانة كتب مهمة في زمن ابو العلاء المعري وقد غلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع ولم يعلم ما اذا كانت الخزانة الكبرى التي انشاها في حلب الامير علي سيف الدولة الحمداني وجمع فيها من الكتب الامهات كانت عامة للناس ايضا كخزانة الصوفية ام كانت خاصة به وجماعته في قصره وكذا اشتهر عنه ولج بالكتب عظيم . وربما ذهب هذه الخزانة وغيرها في هجمة الريم على حلب ونحريهم فصر سيف الدولة .

وقد قلت عنابة الملوك بخزائن الكتب ، عندما كثرت المدارس في هذه الدار في القرن الحامس . ككثافة خزائن الكتب في المدارس التي انتهوا من حياها بذلك امر . ولم تكن لتخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة كتب . وكان لحلب ودمشق والقدر ، وهي من حواضر العلم الحث الانوف من ذلك . غير ان طرابلس نازعتها هذه المكانة لوجود معما للوزة الحيد فيها (الخطاط ٦ ص ١٩٠) وهذا بقودنا بطبيعة الحال الى درر المدارس .

لم تكن المدارس في الشام من ابتداء العرب بل كان سيف لهذه البلاد ان عرفت المدارس من قبل بدليل ان المسلمين كانوا في دمشق يشاركون النصارى في مدرستها التي كانت تخرج رجالا في الدين والعلم والادب ويظهر ان المساعد ظلت للعبادة وتلقى القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلم اللغة وتفرعاته وما يتعلك بذلك كله من المطالب التي فيها قيام امرهم حتى منتصف القرن الخامس الهجري يوم انشا في دمشق رابن نابط بن نما شاه الله ابو الحسين الدمشقي مدرسته المعروفة بالربانية سنة ٤٤٢ هـ . وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين قد سبق له ان اسر فيها دار حكمة او فيه مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التي انشاها الحاكم في مصر سنة ٤٠٠ هـ . وقد غدت طرابلس في النصف الاخير من ذلك القرن بفضل دار

الحكمة ديبها ، كعبة المتعلمين كما كانت حلب في القرن الرابع على عهد
سيف الدولة كعبة المتأدبين .

ويجب ان ندرك ان هذه المدارس كثيرا ما كانت لتلقى
العلوم الدينية وما تستلزمه من فنون لسانية . اما الطب والفلك والهندسة
فكان لها جميعها جامعات خاصة بها . وهكذا نرى ان المدارس في الشام
لم تعرف على سورتها العاضرة الا على يد ملوك الطوائف فيها من اترك
واكراد وان بدأت في القرن الخامس وكثرت وتعددت في القرون التي
تلت ودراستنا لها تتعلق في غير ما نحن بصدده الان .

الحالة الاقتصادية - ومن معجزات الشعب النامي انه مهما نالت عليه المصائب
وتغلغل في بلاده فوضى الادارة وارهقه حكام الضرائب فانه يبقي
مالكا لا لنشاطه ، جادا في العمل ليكسب عيشا رغيدا ويحيا حياة غلبة سعيدة .
ولعل الفضل في ذلك يرجع الى خصب اراضيه وهندال
مناخ بلاده ، ووفرة الانهار فيه وتدفق مياه بنابجه . وقد عرفنا فيه تلك
الحبوبة وذلك النشاط منذ ابعد عصور تاريخه . عرفنا فيه الزارع النشط
والصانع الماهر والتاجر الدائب .

ولما جاء العرب بعد الفتح وظهر ما اظهروا من حب الاستقرار
والاخذ باسباب جاة جديدة يتوفر فيها التعمير ورغد البعث جعلوا قانونهم
من احيا ارضا مواتا كانت له . . واطردوا ذلك عندهم ان اغتبطوا بها وحدوه
من الخصب في هذه الربوة بالاضافة الى جذب بلادهم وبواديها المحرقة . فكان
لذلك منهم من الانتر البليخ ما انطق شاعرهم في عزمهم فتح اسبابا (القدس) بقوله -
والقت اليه الشام اقلان بطنها وعيشا خصبا ما تعد ماكله .

وما ان تربعت امة في وسط الحكم واخذ آلهم ورجالهم يقتنون
المزارع وبها القوم في اتخاذ القوم والزروع المنيرة حتى جعلوا القرى مستغلات
لهم وتنافسوا في ذلك حتى لا تبقى ارض شاغرة لا تستغل فانزل معاوية
قوما من القوم في طرابلس واتخذ هشام بن عبد الملك السبابة والمزارع وهو
اول من استنق انهارا كثيرة عزيره منها النهر الذي فوق الرقة وقرى غرسا
كثيرا بالحزيرة والشامات حتى بلغت غلته اكثر من خراج مملكته .

وما زالت غنابة الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يتمتعون بالارز
منوفرة حتى اهتزت ريت وقابضت وغلت فافتتو اهلها وانثروا . وآية ذلك
انه بالرغم من كل ما جابه ولاية الفاطميين ومالهم من الضرائب وما جمعه
من الثروات الضخمة ظل اهلها في بحبوحة ورغد من العبد ببعثان في
التفوس الذهبية والاستغراب (لافروج ١ ص ١٥٠-١٥٨)

وما اشتهر عندهم من اصناف الزروع والاشجار جميع الغلات النفيسة
كالذرة والسمسم والكرم والنس والزيون والفسنة والسماة والنخيل وصنوف
الربان وانواع التمور وقد ذكر بعضهم ان التفاح اللبناني موصوف بحسن
اللون وطيب الرائحة ولذة الطعم (الخطاطج ٤ ص ١٦٥)
هذا فضلا عن الحبوب والرباحين كالآل والورد والفرح والبنفسج
والنسرين .

وما كانت الشام تنعم به في تلك العهود من الاشجار
غیر الشجرة = السرو والصنوبر والارز والعمر . ومن احراجها (١) غابة
عسقلان (٢) غابة ارسون (٣) وجرح القنيطرة (٤) وفي اطراف حلب عدة
غابات يقال لها الزور (٥) غابات لبنان (٦) غابات عكار وجبال النصيرية .

هذا من الزراعة اما الصناعة فلم تكن اقل حظا من غنابة
القوم بها ومهارتهم فيها وقد عرفوا النسيج من اخذت الشام بالصناعات
علي اختلاف انواعها وتنوعاتها لها فاختتت معظم المدن والبلدان فسطها من
تلك الصناعات = الغزل والحياكة والنسيج فاشتهر القطر منذ القدم ببزده وقماشه
ودساحه وخزده وبروده وهناك من لصناعات الهامة املا = الفخانة والحداة
والنحاس فاشتهرت كرم مدن الشام بصناعة الفخانة او عمل السلاح وذلك
لان الحديد متوفر في حلب ولبنان وسوف دمشق لا تزال مفاخر بها لفنن
الصباغة فو صنعها وكذلك لبنا ناسين الزخاعة وقد عدها التعاليم من حائض
الام وقال انه يضرب المثال في الرقة والصفاء بزخاها فيقال "ارق من زخاج اظم"
وقد اشتهرت صور منذ القدم بزخاها كما كنت ماما الزخاج في حلب وارناز
مشهورة تصدر منه الى العراق وسياها به في قصور الخلفاء ومما اشتهرت
بتلك الصناعة النخبة عكا والخليل والرقة .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر المدن الشام صناعة القيشاني ومنه نمودج في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد (الخطوط ٤ ص ٢٤١)

وفي أيام بني أمية نقلت صناعة الورد إلى الشام والذائب من البلاد أخذت فيما بعد في صنعه في دمشق وطبرية وطرطوس وحماة ومنبع وكان ينقل منه إلى البلاد الأخرى كميات كبيرة من دمشق وأمية على ما ذكر المقدسي . وكذلك من الصناعات الرفيعة كالصبغة ولعل الشام مدينة بها إلى الفاتحين العرب إذ هادنهم الملوك في آسيا وأفريقية وأغلب هذا باهم الحواري الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنها فراح الخلفاء يهدون منها القواد والامراء والأطباء والعلماء والشعراء والعقبا فكانت في أيديهم وزاد . بنسبة الحال في أبدع الصناعات . ويمكن أن نعد في حملتها طبع الدراهم وضرب الدينار فإن الشام كانت من أو الاقطار التي سكنت النقود وكان نسج الحرير من أفضل صناعاتها وقد رأى ناصر خسرو الحرفاء الرحالة في القرن الخامس الهجري حصرا من هذه الحرير الطبرانية تستعمل للصلاة عليها وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مربية ونحتقز بهذا القدر عن الصناعة لتتقدم إلى النجارة .

إن لبلاد الشام من موقعها الجغرافي بين القارات الثلاث ومن نشاط أهلها في الزراعة ومهارتهم في الصناعة كعاملات كبيرا في أخذهم بالنجارة وأساسها والعمل على توسيعها وتنويعها . ولقد عرفوا بذلك منذ القرون الأولى في تاريخهم .

والعرب كحمص الساميين نحار بالطبع والضعف زراعتهم اضطروا منذ القدم إلى الضرب في الأرض طلبا للرزق فكانوا يؤثرون في الشرق والغرب بزيادة الرعي والانتزاع .

وما إن تفتحت أمام أبواب الشام وغمرها في القرن الهجري الأول حتى انتسخت الدنيا لديهم وراح الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يشرفون الطرق ويستنبطون المياه على طول الطرق إلى أن لم يبق تسهيلا لتأدية فريضة الحج .

وينشرون الامن والراحة فيها فكان في ذلك كله افادة للتجارة اى افادة .

ثم ما لبثوا ان ضبطوا حساباتهم بفتح مسك الدفاتر وشرحوا الكفالة وانشأوا التجارة للفقراء وكنت تراهم حينما نزلوا مهدوا السيما وامنوها وعصروا المرافىء . واسمحوا الفر وانشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل فكانت طريقها من الشام الى مصر على الكرا او على غزة ورفه وكانت دمنة محط رحال القوافل الذاهبة الى بلاد الروم والجزيرة الفرانية فسي طريقها الى مصر او بلاد العرب او العائدة منها .

غير ان الشهبانيين الرئيسيين للتجارة العالمية في ايام المقدس كانوا دخلوا والتوا وكان على غفة الاخير الحرية منهما فرصتان مهمتان الرقة والبس وسمي الاسطخري هذه مربا الثوم . وفي هذا برهان قاطع على ان التجار الثوم كانوا يتجهون هنا عند تجم بلادهم فسي القرن الرابع الهجري للهجرة سلحهم اما الى الارز الانصري من ارض بحر الهند كما سمي المقدس الخليج الفارسي واما الى البحر المتوسط من طرقة حلب مركز تجارة الشام ومنها الى انطاكية ففرصة السويدية .

ولم يكتف العرب بالتجارة البرية بل راحوا يعمرون التجارة البحرية ايضا الشيء الكثير من غنائمهم فرتوا الى ناعة البحرية ووسعوا القوافل لخدمة الملاحة واقتسوا التوصل من الصينيين وفتحوا بذلك امام بضائعهم افاقا جديدة امتدت عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم اذ ذاك .

وقد كانت مراكب صور وطرابلس والسويدية تفلح بالتجارة الى سواحل الخليج العسقلانية وخليج البنادقة وبحر بنظم (الاسود) وحزائر قبرص ورودم واتر بطر (كرت) .

وكانت طرادات الشام كما يلي . من فلسطين: الزيت والزبيب والخروب والصابون والحبين والمرايا وقدرور القناديل والنيل والتمحور والحبوب والخرفان والعسل والكاظم والهنز والارز .

ومن لدمر (حمر وحماة) كانت تنقل الثياب والحباء ومن صور وطرابلس السكر والخز والزعاج .

ومن دمشق الدباج ودهن التنفخ والورق والحوز ومن حلب الفطن والنباب والمغرة ومن بعلبك الملاين .

وما ذكره ابن بطلان من اهل القرن الرابع عن عجائب حلب قوله =

"ان في فيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا ثمنا
الذي ديناره يستمر ذلك منذ عشرين سنة الى الان" هـ .

وكانت التجارة في القرن الخامس زاهرة جدا حتى ان جعفر بن علي
الدمشقي قد قسم التجار الى ثلاثة اصناف وهم = الخزائن والبركاهي والسحجز .

ولكي نتصوركم كانت حركة التجارة بين انطاكية وحلب قبل الحروب
الصلبية نورد لكم الخبر التالي على سبيل المثال = نحن نعلم ان الروم
في اواخر القرن العاشر للميلاد قد تغلبوا على المسلمين وانتزعوا منهم انطاكية
وما جاورها وانهم قد احتفادوا بها حتى ١٠٨٤ م ولكنهم ما امكنوا استولوا على
ذلك حتى ازاحوا عن حلب سيف الدولة وساعدوا مفتحيين من الرعية للقبض
على ازمة الامور فيها . وقد حفظ لنا كمال الدين مؤرخ حلب البنود الرئيسية
للمعاهدة التي عقدوها حكام حلب مع حاكم انطاكية في شهر صفر ٣٥٩ هـ .
وكانت في الاواسنة ٩٦٩ - كانون الثاني ٩٧٠) منها = (١) لا يجوز اعاقة
التجارة الرومية في طريقها من انطاكية الى حلب بل بحسن حمايتها حتى
تتمكن طريقها بامان . ثم يذكرون شروطا لتحديد الرسوم الحمركية عن البضائع
فمبيد في هذه القائمة = الذهب والفضة وحرائر الروم والحرير الخام والحجارة
الكرمة والاقشة والكتان .

وفي سنة ١٠٨٦ م كانت مراكب ياربي تنقل فواكه وبضائع اخرى الى انطاكية

التي كانت قد انتقلت الى ايدى المسلمين . وفي الاربعين سنة التي سبقت

الحروب الصليبية كان بين الشام واماقي علاقات تجارية (٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ Heyd. I

هذه لحظة موحزة عن اقتصاديات الشام في القرنين السابقين للحروب

الصلبية فهنئين منها مقدار الثروة التي كانت البلاد تنعم بها وببلدة الرقي

الاقتصادي الذي وصلت اليه بفضل نشاط اهلها وذكائهم . ولكن كيف انفق

الناس تلك الثروات وفي اي وجوه العمل صرفوها **لأننا** اعتدنا ان نرى الانسان

إذا ما ارتقوا واغتنى ابتدعوا حاجات بنفق في سبيلها ماله واخترع
الوانا من الحياة بخلد فيها ذكره فما هو تلك الطرق وما هي تلك الالوان
التي اوحدها الداميون ان ذاك فانفقوا في سبيلها اموالهم وخلدوا بها
ذكرهم .

لا شك ان الفنون الجميلة، من الوسائل التي اتخذها الانسان
للتبرع عن حاجات نفسه وللترفيه عنها وادخال السرور عليها او دفع الحزن
والهموم عنها . فلنر ما اذا كان ^{ان}حظ منها .
الميلى .

الفنون الجميلة . ان للنساء في سبيل الترفيه عن انفسهم طرقات واساليب
يتخذونها لرفعها للهمم او جلبها للغبطة والسرور .
وما هذه وتلك في الحقيقة سوى الفنون الجميلة او الصنائع انفسه
والاداب الرفيعة كما ان بعضهم ان يسميها . ففنها ما يستعمل الالوان والاوزان
تحقيقا لذاته وهذا ما يدرك بالموسيقى والذنا ومنها ما تكون الاشكال والالوان
ادواته في الوصول الى غرضه وهذا هو فن التصوير او النحت او البناء .
ومنها ابرما ما يتدرج بالكلام الموزون او الدارة القوية للتعمر عن حلجات نفسه
وهذا هو الشعر والفصاحة .

ولم يشذ الداميون في مختلف عهود تاريخهم عن هذه القاعدة
العامة وان تفاوتت فنونهم قوة . فاما وتقليدا وحققا حسب الظروف التي مرت
سهم في ادوار تاريخهم الاولى . فقد عرف عنهم منذ القرون الاولى انهم اهل
الطرب وشغف بالذنا والموسيقى ولا عجب فلهم من دقة الاحساس عندهم وجمال
الطبيعة في بلادهم مبرر لذلك ومشجع فيه .

وما ان استقر العرب في هذه الديار بعد الفتح حتى رأناهم
يقبلون على ما كان عند اهلها من هذين الفنون التجميليين وبعد ان اطمان بنو
امية في الحكم كان في حملة ما دخل عليهم في حوائجهم الجديدة الغناء على
صورة كادلا الغناء قبل ولا التبذل . حتى ان معاوية كان سمنه وطرب وسحر في
محلسه واذا لفتوا نظره الى فعله قال = "كفى كريم طروب" ثم توالى الخلفاء
من بعده باخذون به حتى ان عمر بن عبد العزيز قد دونت له فيه صنعة
وكذلك كان لبزيد بن عبد الملك .

وهكذا ما فتئ الفن يتقدم في الصنعة ويرتقي حتى ذكروا انه
كان في سائر الطبقات من اهل الرفاهية والسعة ممن كانوا يشتغلون الى سماع
الاغانى ويحللون على الرجال والنساء من ارباب الموسيقى والفن .
وما بدا على مبلغ تقدم الموسيقى في الشام ايام سيف الدولة
الحمداني ما يلي = حاشا ابو النصر الفارابي الفيلسوف الى الشام على عهد
سيف الدولة فادعته ومن عنده من الموسيقيين علو انقائهم لها . وقد وصل
في علم صناعة الموسيقى وحملها الى غاياتها كما صنع آلة غريبة يسمع عنها الحائا
بدبعة يحرق بها الانفعالات .

وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة مع الوزير المبلبي للاستئثار
بمغنية اديبة مشهورة ما يدل على مدة ولع الفم بالموسيقى .
ولم تروج الشام تخرج في فني الموسيقى والفن رجالا ونساء كانوا
بهجة سمورهم ومنعة احبالهم . وكان من البارعين في هذا الفن من علماء الشام
قسطا بن لوقا البعلبكي وصفي الدين عبد المؤمن .

وكذلك التصوير فن جميل يراد به التعبير عما تفعل به نفس
الحماة من احاسيس وقد عرفه الشيخ محمد عبده بقوله = ^{انه} ~~تعبير~~ ^{تعبير} من التمرير
ولا يسمع .

ولما استقر الفاتحون من العرب في الشام نهجوا في التصوير نهج
البيزنطيين والفرس واستمروا على ذلك مدة . واول ما عرف التصوير بعد ذلك كان في
زمن الوليد وبخلت على الفنان ان اكثرية من صوروا له ما اراد من الحيوان والنبات
والشجر والمدن والاشقاء كانوا من الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة
الحديثة . وقد عثرنا في قصير عمرة القائم علم سبعين كيلومترا من قصر العشي
(المشقي) في البلقاء على كثير من النقوش الزاهية والنماذج العجيبة التي تاخذ
بالابصار .

وبلاحظ ان العرب لم يخالفوا البيزنطيين في التصوير الا بعدم تجسيم
الحيوان .

وبعد ان ترجمت لهم كتب الفنون والضاعات من الروم والفرس والقبط
والسريان والهند منذ اوا النصف الثاني من القرن الهجري الاول شرعوا يزننون

كتبتهم ببعض الصور يتخذونها لتعنيا المائل العلمية للابصار .

واخذ الثم نفق الفسيفساء من الرزم وبالفوا فيها ثم جودوا عملها وكانت في الجامع الاموي قبل حريقه الاوا في القرن الرابع الهجري ملونة مذهبة نحو صور اشجار وامصار على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة . وقل شجراو بلد مذكور الا وقد منا على تلك الحيطان (المقدس ص ١٥٧)

وكان الحرب في الشام تلامذة الرزم في البناء ايضا اذ كان بين ابنينهم الاولو وابنة النصارى شبه كبير ولكن ما لبثوا ان اندأوا في القرون التالية انية تدل على ذوق جميل . وكان من مبانيهم فضلا عن القصور والحوام المدارير الكبرى في حلب ودمشق والقنس وغيرها . والقليل الباقى منها السو الان شاهد على ما كان للمهندسين الشامي من حسن الذوق .

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في طرابلس كانت ذات اربع طبقات او خمس واحيانا ستة طبقات . وذلك لعمرى ظاهرة فريدة تدل على سعة تاور هذا الفن في الدار العالية وعلى الدرجة الرفعة التي وصل اليها علماءها من التقدم فيه .

وكان الساميون منذ ابعد عصورهم التاريخية معروفين بنفوذهم الادبي ، ولطالما اخرجت مدارسهم القديمة في نصيبين والرها وبيروت وانطاكية ادباء هزوا النفوس بحطبتهم وفصائدهم وقد كثر سواد هذه الفئة في جهودها العربية ولا عجب فان لطبيعة البلاد انرا بينا في الانهجان والقرايح واكثر ما يجيد الشعراء في بلد صح مناخه وطابت تربته وكثرت غلاله . وهذا كله موفور في القطر الشامي . وقد كان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشهر من شعراء كعرب العراق وما يحاورها في الحاهلية والاسلام . هذا ما قال به النحالي وقد علمه بقوله - يرجع ذلك لسلامة السنتهم من الفساد العارضي لغيرهم بمحاورة الفرس والانتط ، ولما حبه شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وامراء من آل حمدان وغيرهم ممن شغفوا بالادب وجمعوا بين آداب السيف والقلم اتبعنا قرائعهم في الاحادة ففادوا محاسن الاسلام كالمين زمام واحسنوا وابدعوا ما شاءوا . هـ .

وكان أبو بكر الخوارزمي قد دَخَلَ بلاد الشام في صباه ولما لما
قال: وهو أحد أفراد الدهر وأمره أنْشُرَ والنظم "ما فتى قلبى ورحد فهمى وحقل
ذهنى وأرهف حد لسانى وبلغ هذا المبلغ فى الآتِ الطرائف الشامية واللطائف
الحليبة التى علفت بحفظي وامتزجت باحزائي نفسى" ^(١) هـ. وكفى بهذا "أمداداً على
صحة ما للشاميين من يد تذكر فى فن التصوير باللسان والقلم".

تلك حال المجتمع الشامي شبة هاجمه جموع الصليبيين فلنرى
ما كانت عليه حال مجتمعهم حتى نتبين الفرق بينهما ونستطيع الوقوف على ما
أخذه كل منهما من الآخر.

(١) الخطط ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٢ - المحتل الفرنسي عشية الحروب الصليبية

اثر الامبراطورية الرومانية في نشوئه - عجز الامبراطورية من صد القبائل
من نخوميا - الحالة الفكرية - الحالة الدينية - الغزو الحرمانى
- الدولة الفرنجية - النلاء والملكية - حاجب القصر والبلو الكسالى -
بييسن واتر حكمه - شارلمان والبابوية - الانطام والمنازعات - الالبام الحرم-
شارلمان والحركة الفكرية - الفروسية ومشأها .

٢ - المحتل الغربي عشية الحروب الصليبية

ليس من السهل ان نفهم حالة المحتل الغربي عشية الحروب الصليبية
ما لم نتغلغل في اصوله البعيدة ومن ثم نتقدم في دراسته حتى ند الفترة التي
سبقت بقليل الحروب الصليبية .

ونحن مضطرون الى مراجعة تاريخ الامبراطورية الرومانية في اواخر ابامها
بم اقام الحرمان ولا سيما الفرنج منهم ممالكهم على انقاضها .

ففي مطلع القرن الخامس الميلادى لم يكن في غربي اوروبا من دولة
بالصحة الصحيح بل كانت البلاد التي تشمل اليوم انكلترة وفرنسة واسانية وإيطالية
تشكل آنذاك رفعة واحدة يحكمها الاسراخور وهاله وموظفهم . اما حرمانية فكانت
ما تزاا اقلها تغلبه الذات وتقيم فيه قبائل حرمانية من انصاف المتوحشين .
وقد حاول الرومان عبثا ان يفتحوا هذا الحز من اوروبا فانسأروا الى الاكفأ بان
يبقوا تلك الحموم الحرمانية خارج الحدود الامبراورية وان يصدوها عنهم بنثر القلاع
والحصون ، يقبونها على طول مجرى كل من الرين والدانوب .

وقد يتساءل البعض منا فيقول " وكيف تعطل اذا ضعف الحكومة الرومانية
وحجزها عن صد القبائل الحرمانية عن حدودها مع تفرقهم وانعدام الوحدة في
صفوفهم ، بعد تلك السطوة التي كانت لها حتى كاد بعض النابر يتوهمون انها
باقية ابد الدهر . " حقا انه من الصعوبة بمكان ان يلقى هذا السؤال جوابا
شافيا . غير انه يظهر ان للام كما للافراد معدلا من العمر اذا ما بلغته كان لا
يد وان تعمل عوامل الهرم في جسم الامة فتهدمه . وهذا ما حصل للحكومة
الرومانية ان سكان الاسراخورية كانوا قد اخذوا يفقدون بالتدريج حيويتهم بل

والثقة بانفسهم وبالتالي رفاهيتهم ورفاههم وذلك منذ القرن الثالث بعد الميلاد
 مؤ ومرد ذلك الى الاسباب التالية • (١) نظام الضرائب الجائر الذي كان
 بمنى مالبة التاجر والصانع والمزارع حتى افقدهم كل ثقة وانزل في اكثرية
 الطبقات الغنية المنتجة الدمار • (٢) انتشار الرق وكثرة الرقيق الامر الذي
 حط كثيرا من قيمة العما مهما كان ثريفا ثم هدم عند لعامل معنوياته •
 (٣) التنافس في السكان الناتج عن قلة المواليد وكثرة الوفيات للاسباب التي
 ذكرناها • (٤) تسرب الرأوة الى قلب الاسرطورية وتغلغلهم في انحاءها ثم
 تصبدهم فيما بعد الطرية بذلك لفتح القسم الغربي منها امام احوانهم الذين
 كانوا قد تخلفوا وراءهم •

الحالة الفكرية • تلك كانت الحالة العامة في اوروبا في القرن الخامس غير
 ان ذلك لم يكن كما ما بلغته الامبراطورية من الانحلال في القوى والتدهور
 في الثروة والضعف في الحفدية بل ان تشاؤل انوار العلم والآداب والفنون
 قد ابد ما بينها آنذاك وبين ما كانت عليه في عصرها الذهبي فان النفوس
 امام قسطنطين كانت قد فقدت كثيرا مما كان لملها من الروعة والحلاا اسام
 تراجل قبالا • ولم بعد ينبغي من كبار الشعراء ونسج الادب امثال شمشون
 وناسيت وغيرهما احد ان انحطت هذه الآداب الى درجة لم يخلوا بعد نجد
 بين القراء من بكاة نفسه عنا البحث عن عبون الكتب في الشعراء والنثر
 يا كما ما كان نصبو اليه نفسه ان يجتر بعض المناسبات الادبية واما ما كانوا
 يسمونه علما فلم يكن في الحقيقة اكثر من بقايا ملخصات وتعليقات ومشروحات
 لا تسمن ولا تخفى من جوم •

الحالة الدينية • لقد كانت النصرانية منذ القرن الثاني للميلاد في ذلك
 العهد قد بدأت تحدد طريقها الى قلوب الغربيين حتى غدت تقف وحها لوحه
 مع الوثنية عندهم وقد شيعها ادهم • "بحيث ينقاد في نزاء هيت هذا
 في بادي الامر غير انها ما لبثتا ان اصبحتا كسهرين بلنقيان لكل منهما ما
 عنده مع الآخر •

ثم ما عتَمَّ معتقو الدين الجديد ان اخذوا يشعرون بخيام
كنيسة عامة شاملة (كانولب) بقم فيها رجال الاكليروس بجميع الامور الادارية
المتعلقة بالعلمانيين من الشعب فكان لها في ذلك وفي موقف الاباطرة المتأخرين
منها ما جعلها تعبت وتبقت بعد ما سقطت الامبراطورية وراحت تنوب مناب
الحكومة فيها وتحفظ اللغة اللاتينية بين من لم يكونوا يحسنون سوى لهجة
همجية من الجرمانية وقد حافظت ايضا علم شمس قلبا من المالبب التربية والعلم
حتى في احلك ايام العصر .

الذين الرومانس . وفيما كانت جموع الجرمان تسعى جهدها لاقتحام حدود
الاسراوية انان القرن الخامس اذا باليون من المغول تضاعف ضغطها على
القوط الذين منهم وتدفع بهم الى داخل الامبراطورية حيث ينشرون الذعر
في ارجاء غربي اوروبا . غير ان المصيبة ما لبثت ان وُحِدَت بين الجرمان
والرومان وراحوا ينزلون في العدو المشترك هزيمة منكرة في شالون سنة ٤٥١ م .
وبعد ان نوهم الناموس ان شعبا جديدا سيخرج من اختلاط
الرومان بالجرمان اذا بشروا من هذا لم يكن واذا باوروبا تغرق في ليل بهم
نضالت فيه انوار الفكر حتى انطفأت حدوتها في القرون التالية فساد غربي
اروپة عصر طويلا من الظلام الحالك اتفق المؤرخون على تسميته "بالعصور العظيمة"
امند خلال قرون ثلاثة اخرى ما بين السادس والتاسع ^{قديما} برز فيه اديب واحد
او كاتب واحد بولف حتى ولو بلغه ركبة لا نبتة تاريخا للعصر . فقد
غدا كل شيء ان ذاك يعمل على قتل الافكار وما بقي من اساليب التربية
والتعليم ولا عجب فان جميع مراكز الثقافة القديمة من فرائحها الى رومبسة
الى الاسكندرية فمبلانو كانت قد عملت فيها يد الدمار او اوقفت فيها انتاد جذوة
ذلك الى حين . وكثيرا ما قُتِلَت جهود الرابرة على المكتبات التي كانت قد
نقلت الى المعابد لتحفظ كما ^{فقد} تعنى على شعائر الوثنية المتحمسون من النصارى
وقد سرهم ان يروا مخلفات الوثنيين الفكرية تاكلها النار هي وديانهم .

الدولة الفرنجية . وفيما كان غربي اوروبا يعاني تلك الازمة الاجتماعية منتلة
في انحلال اقتصادي سياسي وتضروب فكري وفوضو شاملة واضطراب عام كان يقوم

في الحزير البريطانية حفنة من الحكام في كل من *أرلند* و *اسكتلند* و *انكلتر* و *ويلز* ، با ان ايطالية نفسها لم تكن اقل تعزوا ولا اقل فوضى مع وجود البابا اقوى حاكم فيها . وكذلك كانت اسبانية قد وقعت فرصة الفتح العربي لما سادها من انقسام سياسي ومنازعات دينية . غير ان العرب ما كادوا يحنازون حمال البرانس الى غالبا حتى قابلهم الفرنج وصدوا لهم في سهول *برانية* . وكانت تلك الهزيمة التي الحقوها بهم والتي تفهقروا على اثرها الى الجنوب ولم يتقدموا بعد ذلك .

وهكذا نرى انه لم ينجح من الشعوب الجرمانية التي عبرت نخم الامبراطورية في الغرب في تأسيس ملك دائم سوى الفرنج منهم اذ ان الدول المختلفة التي اقامها بعضهم لم تلبث ان احتاجتها قبائل اخرى او ازاحتها الامبراطورية البزنطية او ابتلعنها حكاما العرب ، كما كانت الحال مع القوط الغربيين في اسبانية . اما الفرنج فقد كتب لهم ان يخضعوا اكثر القبائل الجرمانية الي حكمهم وان يمدوا حدود مملكتهم الي اقالم تنزلها احضان *المصقاليه*

واول ما نسمع بالفرنج مقيمين على طول محوى الرين الامفل ما بين كولوني وجرالما . وقد اختلفت طريقتهم في التسرب الي داخل الامبراطورية عن غيرها من طرق القبائل الجرمانية الاخرى . فبدلا من ان ينفصلوا عن جرمانية ويغرقوا في بحر الامبراطورية ، كانوا يعملون على فتح ما حوالىهم من الاراضي بتسيرة تدريجية . وكانوا على نوسمهم يبقون متصلين بالقبائل الجرمانية المختلفة وراءهم فحافظوا بذلك على الروح العسكرية بينما فقدوا سواهم بفعل المؤثرات الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس نراهم يحتلون ما يعرف اليوم ببلجيكا وما انسط من الاراضي في الدوق منها . ثم ما لبثوا ان وسعوا مملكتهم بقيادة ملكهم *كلوفر* (*لويس*) جنوبا وشرقا فوصلوا في غالما حتى نهر اللوار وفي الدرة حتى الدانة السوداء .

وما حسن ذكره ان كلوفيس تنصر على انرفوزه في الناحية
الرقية ودفعته حينئذ الدينية ان يهاجم القوط الغربيين ويجعلهم ينكفون
الى ما وراء البرانس كما ان انه ضم البرفنديين الى حكمه .

ولما قضى كلوفيس نحيبه سنة ٥١١ م . في باريس عاصمة مملكته
اقتسم اولاده الاربعة المملكة فيما بينهم وراحوا يتنازعون مدة قرن كامل
من الزمن بعد انهم مع كل ما ارتكبوا في ذلك من فظائع وما وقعوا فيه من
نفرة في الكلمة وظلوا بنجوة عن عدو قوي ستند من حالتهم فيفتحهم اراضيهم
فحفظوا بذلك وحدتهم رغم تبادلهم اقاليم عدة من المملكة .

وعلى كل فقد نجح ملوك الفرنج في مد سلطنتهم على الرقعة
المتسعة اليهم لفرنسة ولحبك والنزلند وقسم كبير من حرمانه تقريباً فيكون
بذلك قد دغا عدد كبير من الاقاليم التي لم يوفق الرومان الى فتحها في
دائرة غربي اوروپ الناهض ان ذاك .

البلاط والمملكة - ثم انه رغم النزاع الطويل الذي امتد بين خلفاء كلوفيس
فقد قام آخر المبروفنجيين دافويس سنة ٦٣٨ م . ووحد المملكة من جديد
غير ان هذا لم ينعهم شئ من خطر جديد يهدد وحدة مملكة الفرنج ونعني به
نظام السلاوات الانوياء الى "سوي" من الاستقلال والتحكم . وكان في هثولا
من اصحاب المناصب العليا "صاحب القصر" او الوزير الاول على حد تعبيرنا
الآن اليوم . وما يلاحظ انه بعد موت دافويس هذا غدا هثولا "الحجاء" اصحاب
الكلمة النافذة في شؤون الدولة ان تراسي المبروفنجيون في احضان الكسا
وراحوا يؤثرون اللبس واللحم على النهرين باعناء الملك حتى عرفوا "بالملاك الكسالي"
فما لبث ان هذه الحالة ان امتاز "صاحب القصر" بيمين رول بضع اساور تفوق
اسرته ولده موت سنة ٧١٤ انتقل واجب تدعيم سلطة الاسرة الى ولده شارل
مارتل .

وقد عانى شارل مارتل من الصعوبات ما عاناه جميع ملوك غربي
اوروپ في سبيل تدعيم سلطته على جميع انحاء المملكة مع وجود حكام الاقاليم
ونوابهم . وقد اقتصر الحرمان هذين من الرومان ومع ان الملك كان من

حقه ان يرفع هؤلاء الى مناصبهم او ينحبهم عنها فقد استطاع بعضهم ان يملأوا مناصبهم مدى الحياة مما جعلهم يطمعون الى اكثر فيقفون حجر عثرة في طريق وحدة البلاد فما كان من شارل مارتل الا ان حاربهم واعادهم الى الهدوء وجعلهم يقدرون ضرورة خضوعهم الى الطاعة . ولم يكن الاساقفة من الاكليركيين اقل ازغاما للملوك من زملائهم "النواب" البار ذكرهم من الالمانيين فكثرا ما كان ارا مارتيا يضطر الى صرفهم من الخدمة زرافات زرافات .

وقد استطاع شارل مارتنيل فيها وفاته سنة ٧٢١ ان يضمن منصبه من بعده لولديه بيبن و كارلومان . فترك الاخوان "الملوك الكسالي" على عروشهم وراحا يضالعا هما جميع الاعضاء فاستطاعا ان يخفيا صوت الشعب والمعارضة المرتفعة من بيت "نواب" والاساقفة غير ان كارلومان ما لبث ان اعزل العمل مؤتمرا الرهضة على الادارة وفي بيبن وحده استطاع بشؤون الدولة .

وهندما هرب بيبن بالقوة من نفسه راح يعمل للتخلص من "الملوك الكسالي" ويتخذ لنفسه اللقبين الاسو والفعلو لملكه الفرنج ومع ذلك فقد كان الامر من الدقة مكان فعنه على جبر نبي رئيس الكيسة قبل ان يقدم عليه فما كان من هذا الا ان اقره على مقترحه .

ولكان لهذا التدخل من البابا بامر الملكية شأنه الهام ان ان ملوك الحرمان قد كانوا حتى الان قوادا عسكريين منتخبين برفعهم الشعب بارادته او الخاصة منه الى عروشهم ولم يكن لحكمهم ايبع ديني ما . اما الان فقد فسح البابا بيبن على الطريقة السامية القديمة " فقد غدا المد مسيح الله " على حد تعبير غيلن وان هذا العمل من البابا ليدل على تبادل الشعور الدائب من عاهلو الفرنج سيد الدولة ورام الكنيسة . فما عثم هذا الشعور ان نما الى اتفاق هام كان له اثره البعيد في تاريخ اوروبا ومن اولى مآثره اخضاع بيبن اللومبارديين ثم تقديمه اراخبهم للبابا .

والخلاصة ان حكم بيبن بمتاز بعدة نقاط منها = (١) تقوية مركز الملكية في دولة الفرنج وقد كانت حلو فشاك ان تشمل اكثر اجزاء غربي اوروبا . (٢) ايجاد

ملكة خاصة بالبابوية التي مع صغر رعتها قد برهنت على انها كانت من اكثر الممالك خطورة واطولها حياة في اوربية . (٣) هذا فضلا عن صعوبات خلفها بين وابنه شارلمان من بعده . (٤) وقد صدق غين حيث قال = تحت كف ملكة القديس بطريرك وعلو غفتان النبر عاد العالم ستائف جهاده وراءه بحته عن ملوك يحكمونه وشرائع يسر حسبها ومقدرات يرتضيها لنفسه " ص ٧٦

وكان شارلمان بن بين برمي الى ضم جميع الشعوب الجرمانية في امبراطورية مسحية واحدة وقد وفق الى حد بعيد في تحقيق هدفه . غير انه عجز دون اخضاع الساكسون لهجرة بلادهم فنصبت عندئذ الكنيسة للامر وصلت على تفصيرهم ثم تقدم شارلمان بطلب اليهم الخضوع له واللباا وبهذا تمكنت فكرة الازدواج في حكم الشعب من قبل الملك واللباا في العصور الوسطى .

ولما تعرض ملك اللومبارد لمدنية رومبة مقر البابا حمل شارلمان عليه بجيوشه وجعله يعترف له بالسلطة عليه ونادى شارلمان بنفسه ملكا على اللومباردين وبذلك انضاف الى مملكته ما كان بين مقاطعة ساكونيا وبلاد اللومبارد . وما ان استتب له الامر في هذه الناحية حتى التفت الى الشر من مملكته واخضع في سنة ٧٨٩ الصقالبة السندة بلادهم الى الشمال والشرق من بلاد الساكسون حيث ينزل البوهيميون .

ولعل ابرز ما اناه شارلمان من الاعمال كان اعداده الامبراطورية الغربية سنة ٨٠٠ م اذ ذهب شارلمان الى رومبية ذلك العام ليفضي في خلاف مشتب بين البابا وخصومه . ولما كان حكمه قد اتى في صالح البابا شاء هذا ان يبرهن من عظم شكره وامتنانه العاهل الفرنجي فاقام احتفالا يحيى فيه ذكرى ميلاد المسيح في كنيسة القديس بطريرك وفيما كان شارلمان راكعا يعلو امام المذبح اذا بالبابا يقتر منه ويضع على راسه تاجا ويحييه بين تهليل الحضور وتصفيقهم بقوله " هاك امبراطور الرومان "

ويظهر ان شارلمان لم يكن يتوقع طول العمر لامبراطوريته موحدة لذلك نراه في سنة ٨٠٦ يقسمها بين ابنائه الثلاثة . غير ان موت كبيرهم اولاً

ثم تأتيهم ثانيا حكام لوسمبيقو بعد ابيه بنولو مؤون الامبراطورية كلها .
ولكن ما كان مبرألي حكمة عدة سنوات حتى راء بفكر نو تقسيم الامبراطورية
من انشاء الكثير من بعده . وهنا تضاربت المصالح بسبب المصالح التي حد
رانها الامبراطورية معه تنقسم الى ما يقرب من ستة اقسام بين سنتي ١١٧-١٢٠
ونحو سنة ١٢٣ عقدت معاهدة فردان وتم فيها الانفاذ على تقسيم الامبراطورية
الى ما يعرف اليوم ، على وجه التقريب بفرنسة والمانيه واسطالبيه . ولم يكن هذا
كل ما احاطت امبراطورية شارلمان من تجزؤ وتفكك بل غلقت الاختلافات تعمل
عملها حتى طمع حكام الاقاليم بالملوك وقاموا بظالمون بالانفصال مما زاد نو
الداين بلة .

اما اسباب ذلك التمزق فمرجع الى اسباب عديدة منها = (١) ضعف
خلفاء شارلمان . (٢) انشاء الامبراطورية (٣) تعذر المواصلات لانعدام الطرق .
(٤) ندرة النفوذ التي حالت دون اتحاد حكام دائم (٥) انقضا الغزاة من
ممالين ومغالبية وهنداريين وهرب - على الامبراطورية من جميع الجبهات (١)
هذا مع انعدام قوة مركزية تدفع المفسرين عنها مما اخلت معه حكام الاقاليم
الى ان يهتم كل منهم بامر الدفاع عن اقليمه بنفسه بوضو الشعب الذي كان
مستد بالان يعتمدوا لثبات الملك هذا بالسلطة والنفوذ . وهذا يفسر لنا ظاهرة
قيام حكومة متعددة الرؤوس والارادات ممثلة ما انتشر قوة الربى من فلاح
وحصون دلت على تفرد الكلمة وانتشار الفوضى في الادارة القائمة . ومع ذلك
فقد بقيت الدولة قائمة ولو بالاسم وظل الملك تتوجه الكنيسة كممثل الله على
الار اما الامراء العديدون - حكام الاقاليم - فنرى بهم صلة الاقطاع . وهذا
ما سننتوجه الان لدراسته .

وهكذا فان تاريخ غربي اوروبا السياسي لمدة ثلاثة قرون انقضت
بعد تمزق الامبراطورية كان بالحقيقة تاريخ الامراء الانطاقيين العديدين ومع ذلك

(١) له دأرية تقول ان العرب هم الذين سبوا ذلك الفارة في تاريخ اوروبا بعد
العصور القديمة والمتوسطة .

فان الملك على ضعفه قد بقى تاريخه اتم من تاريخ انبلاء الامراء
اذ ان الملوك هم الذين نجحوا اخيرا - لا الامراء - في انتلاء الحكومات
القديمة .

ولقد رايانا النزاع الملوك الذي امتد مائة سنة في سبيل مملكة
الفرنج حتى برهنت الابام على ضعف الكارولنجيين وقام مقامهم في سنة ٩٨٧ اسرة
هوف كاييه وغير ان حالتهم ظلت مضطربة بين القوة والضعف والوحدة والنفرة
بسبب الاقطاع وامراءه وهي الدولة التي كانت ابام الحروب الصليبية .
الاقطاع - فما هو هذا الشكل الشاذ من الحكومة القائم على تلك الارض
وارتباط التابع بالمنوع حتى نستطيع ادراك كنه المجتمع الغربي في العهد الذي
نحن في صدد تاريخه . اجل ان شكل الحكومة وقام وملك الاراضي الاقطاعيين
بختلافان من اى شيء آخر نعرفه اليوم حتى لنتعذر علينا ادراكهما ان لم نر
في درسيهما الى التاريخ البعيد وكذلك يبقو قسم كبير من تاريخ اوروبا عديم المعنى
لنا ما لم نلف على تاريخ تلك الحقبة منه .

جاء الاقطاع نتيجة طبيعية لظروف خاصة سادت غرب اوروبا في
القرنين التاسع والعاشر على اثر ضعف امبراطورية شارلما وسقوطها فرسنة
للمنازعات الداخلية والغزوات الخارجية كما انه يرجع الى عوامل وهادات سادت جاء
الرومان في اواخر عهد امبراطوريتهم وابام غزو البرابرة لها يوم عجز الملاكون الصغار
من القيام باستثمار اراضيهم فاضطروا الى التخلي عنها الى الملاكين الكبار
(الاغنياء) والجيران الاقوياء . وكذلك اضطر الملاكون الصغار في غرب اوروبا الى
اللجوء الى رؤساء الاديرة والملاكين والملوك من الفرنج يتناولون منهم الاراضي
فيعملون عليها مع بقائها في عهدة اصحابها الاولين ويستثمرونها لقاء خصومهم
لاولياء نحتهم وساداتهم . وعلى هذه الصورة خلقت الارض وملكتها تلك الرابطة
الحديدة بين الناس ولصحتهم الى سيد وسود او تابع ومنوع هذا وكان عند شباب
الحرمان فضلا من هذه العادة في تلك الاراضي عادة اخرى تقضى بانضمامهم تحت
راية زعيم حربي يدفعون عنه ويحبهم على اساس مبدأ تبادل المنفعة والمشاركة
في التعاون . وحينما تم انضمام العادتين معا بصورة تدريجية اصبحت الاراضي

نورث للابناء فقدت القاعدة العامة في القرن العاشر لقيام العلاقة بين الناس بعضهم ببعض . ومع ان الملوك والنبلاء قد رفضوا في ابائها فقد عجزوا عن ذلك ازاء الراي العام وفقدت الارض العامل الاساسي في علاقة الناس بعضهم ببعض من الملك الى اصغر تابع ومنذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر لم يكن ملوك الفرنج ولا ملوك الالمان يحكمون على اراضي يملكها رعاياهم بل كانوا كسادة اقطاعيين يستطيعون مطالبة اتباعهم بالاخلاص لهم وبعض الخدمات . وكذلك كان بحق لهؤلاء بالاضافة الى اتباعهم ايضا . وهكذا كان يسر هذا المبدأ نزلا حتى اصبح المجتمع من قمة راسه الى احصى قدميه متالف من سادة واتباع تربط بينهم واجبات وحقوق .

اما الواجبات فكانت تختلف كثيرا وتتفاوت اهمية وخطورة اذ كان التابع يتعهد احبانا بان لا ينزل في سيده اذى او في ارضه ضررا بل يتعهد احبانا بان يشترك مع سيده في غزوة كاحد المشاة وان كانت العادة لا تزيد مدة ذلك عن الاربعين يوما .

هذا وكان ينتظر منه ان يخدم في قصر سيده لدى الطلب حيث ينضم الى امثاله من الاتباع فيدلو معهم بالراي لسيده في قضايا تهمهم كما كان يتوجب عليه ان يقدم احبانا شيئا من المال او خدمة ما او الى بضع سيده لدى مروره في اراضيه .

ولكى بعد الانسان بين النبلاء كان من الضروري في المجتمع الوريث انذاك ان يملك ارضا لينتج له التمتع بتمثيل تلك الحقوق المذكورة سابقا . ثم يجب ان يكون حرا وان يملك من الواردات ما يكفيه للقيام باود نفسه وحاجات حصانه بدون ان يضطر الى العمل وكثيرا ما كان يتمتع ببعض الامتيازات التي غلت معمولا بها حتى الثورة الفرنسية الكرى . غير ان هذه الحقوق والواجبات لم تكن لتوضع في حيز التنفيذ الا بالقوة وطرق وحشية في اغلب الاحيان اذ كثيرا ما كان الاتباع يتملصون من القيام بواجباتهم وينقضون بدهم من بين الاخلاص للسادة النبلاء وكذلك لم يكن هؤلاء باكثر محافظة على تعهداتهم من اولئك .

وكثيرا ما كان يحدث ان ينقل احد الاتباع تعهده في الحافظ على اخلاصه لسيده الى تابع آخر بل كثيرا ما كان يجروا احدثهم على اعلان

انفصاله عن سيده وهدم الرضوخ له او قبوله برئاسة من تلقى قطبته (الار) منه .

ولعل هذا ما جعل الحرب والقتال بسودان المجتمع آنذاك وصحاح التدخل الشاغل للسادة النبلاء القلقين دائما والمضطربين ابدا . فروح القتال والمنازعات المستحكة حلقاتها بسبب انعدام ما يضبط الخوف والواجبات احبانا وردة المطامع احبانا اخرى . كل ذلك ادب الى مشاحنات دامية جعلت العداوة والبغضاء بسودان الحياة . وهكذا فبدلا من ان تضمن الروابط الانطاغية امنا وراحة يظهر انها كانت العلة الاولى في المنازعات والمشاحنات . فكان الانواع يقتتلون ويحدون في ذلك اكبر لذة لهم في الحياة اذ كان القتال نغمة شرائعهم كما هي الحال في الغزو ومع الاعراب في البوادي والقفار .

غير انه ما لبث الناس ان ملوا تلك الحياة واحذوا بتوقون منذ القرن الحادي عشر الى نشوء من الامن والسلام وقد ظهرت رغم كل ذلك - بعض بوادر النهضة في حقل التجارة والتعليم في بعض المدن القديمة ثم جنوب ايطاليا وفرنسة وصهدت الطريق بذلك الى نشوء حالة جديدة وتطورات عديدة . فلم يكن الذين شغلهم امور السلم يستطبعوا الصبر طويلا على تلك الحال البغيضة من القلق والاضطراب فقاموا بتدوين بهول الموقف وظاعته . ولعل الكنيسة كانت اول من استجاب لتلك الدعوة لذلك راينا رؤساءها ينادون بوجوب عقد "هدنة ربانية" يمتد بموجبيها جميع اعمال القتال والنزاع خلال ايام معدودات تبدأ مساء الخميس وتنتهي صباح الاثنين وكذلك يفعلون في ايام الصوم العديدة . وقد الزمت محال الكنيسة ومجامع الاساقفة السادة الانطاغيين بان يقيموا الايمان المغلظة ضمانا لمحافظةهم على الهدنة اسبوعية وقد نجحوا بفضل عقاب "الحرمان" المخوف واستطاعوا الى حد بعيد ان يوقفوا في مساعيهم وعندما ابتدأت الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٦ تدخل البابا لاجساد سلم عام بنحويل تلك الروح الحربية ضد "الكفرة" في الشرق . وكان قد بدا الطلح في فرنسة وفي انكلترة على الاقل يظهر بمظهر القوى الحامل على نشر الامن كما نفهمه نحن اليوم .

ولما بحسن الامارة اليه ان "الهدنة الربانية" في المجتمع الاوربي

بذكرنا ببدا الكار من القتال في الاشهر الحرم عند العرب في الحاحلية يوم
كان الغزو والقتال يوم المجتيع والمامل المغنى المييد رانها في المجتمع
الاوروي هذا .

والخلاصة فقد كان الاقطاع في غريو اوروي وضفا شادا لمعشرت
فيه عناصر الحضارة فلا قانون له حرمة ولا ادارة تسمع كلمتها ولا طرق تسهل
المواصلات ولا تهذيب يمدد النفوس الى الخير ويحوّل بينها وبين الشر هذا مع
ما كان عند الافراد من افكار غريبة يحثونها وعادات وتقاليد مالهة يرددونها
دون ما اثر تركه في نفوسهم . الم يكن الزمن زمن اضطراب ولصوصة واجرام
وفقدان امن . بلو . ومن محمود هذه المتناقضات تكون ذلك الوضع الذي
المعروف "بالاقطاع" اذ انظر الناس فيه الى التلفت هنا وهناك عليهم بلفون
زعبا يعتمدون في الدفاع عن انفسهم فكان ان تركت الحياة والاعمال فيهم
على رؤساء منوحين . هناك غليظ الكبر وحشي التصرف وهناك اسقف قوي
او موظف غني او شيخ اقام نفوذه على الغزو واقتحام ممتلكات جاره على بنفوز
بفهمته تدجوهته او ارض تزيده رقعته)

وهكذا فلم تر الكنيسة بدا من التدخل في امور الناس عليها تخفف
من ويلات الاقطاع وشرو الاقطاعيين باعمال مختلفة منها = قيام الرهبان في
ادبرتهم على بحث الامور لدى الناس ، يشرف العمل البدوي ، واذ كان
في اعتقادهم - من عناصر التدبيل للخلاص من الخطيئة وكان الرهبان قد ازرى
به في القرون الماضية . فراح هؤلاء الرهبان يضعون المثل الطيب في الاعمال
الزراعية على اراضيهم المبسطة حول الاديرة . وبذلك ادخلوا التحسينات الكثيرة على
الزراعة في الاراضي المحاورة لهم . وكذلك كان من الرهبان من يعكف على نسخ الكتب الادبية القديمة
وبالرغم مما وقعوا فيه من تحريف وتصحيف ومن اخطاء فادحة احيانا فلا يصحنا
الا ان نشكر لهم عملهم ذلك اذ انهم حفظوا به الشر الكبر من تلك المخلفات
الرائعة التي لولاها لظاعت وخسرتها المدنية . ومن يذكر بالخبر من هؤلاء
الرهبان خاصة البندكتيون في ايطاليا .

وما كادت الامور تستتب في بريطانيا بين مختلف الكنائس المتنافسة حتى دلت الحماة في نفوس القوم لروسة وادابها وثقافتها فعدت الاديرة فيها مراكز للدراسة فاقت سواها في قوى اوربية اذ كان الرهبان من الناشئين يدرسون فيها اللاتينية واليونانية اسانا وكثرا ما جلبت لهم فصح من المؤلفات الادبية الكلاسيكية عبر المائت بحفا . في حرائر الاديرة . هذا فضلا عما قاموا به من اعمال اخرى ادت الى انحاء بعض الصناعات كصناعة البناء وصناعة الزجاج وغيرها . وكان هذا كله خلال القرنين السابع والثامن . انشد اليه كما ما سبب ذكورة من اعمال وجهود الكنيسة في سبل تنصير البرابرة وادخالهم في حضارة البابوية .

ولعل شارلمان كان - بعد الرهبان - اول ملك فكر بعد ثيودوريك في بحث الكتب والتوفر على دراستها بعد ان كانت قد خمدت حدوة ذل بثلاثة قرون خلت بسبب انقطاع اسيرداد البرء الى اوربية بعد سنة ٦٥٠م على اثر فت العرب لمصر . ولما لم تكن صناعة الورق قد عرفت بعد ، فقد كان على الناس ان يدونوا ما عندهم على الرق بالرغم من غر . نعمه فخفات بذلك بعض المخلفات الادبية . اما القرن الثامن الذي سبب تنوع شارلمان فقد كان اول راء الرهبان السندكيين - من احلا العصور واكثرها حيلة وادبا وحشية وذلك في فرنسا على الاقل . وكثرا ما دلت سجلات المبروفنحيين على جهل مطبق واعمال بين من جانب كاتيبها .

ومع شدة سواد هذه الصورة فقد كانت الفوائع تفسر ببعض الامل في التحسن في هذه الناحية فان الكنيسة قد حققت اللاتينية من الضباب اذ كان علو رجالها ان يجمعوا التعاليم الدينية من التوراة والانجيل وغيرها من الكتب . هذا فضلا عن المواظ الكسبية التي كانت تولد ناحية ادبية اخرى ايضا . لذلك كان لا بد للكنيسة من ان تقوم بفسط كبير من التليم حتى يتمكن من تادبة واحسانها المعقدة . فكان علم ما انفسها ان يقرأوا وكتبوا ولو قليلا لينتفعوا من الاداب اللاتينية القديمة ومنا هذا احفظت الاداب القديمة حية رغم ما ساء العصر من جهل وظلام ووحشية .

ولدينا كتابان لشارلمان بحث بهما لرجال الكنيسة بعضهم بهما علو

ضرورة العناية بالتعليم تحنبا للنفوذ في الخطأ (ص ٨٧ - ٨٨)

ويظهر ان شارلمان كان يشعر انه من واجبه ان يعثر بتتقيد افراد الشعب

ايضا . ولذلك راساه في سنة ٧٨٩ م بطلب الى الاكبركيين ان يجمعوا

بعض ابناء الاحرار والافنان ويفتحوا لهم مدارس " للفتيان وفي هذا دلها

علو ان الفتاة كانت حتى ذل العهد تحرم من هذا الحق .

وليس من السهل معرفة ما اسسه الاساقفة ورؤساء الاديرة من مثل

هذه المدارس بيد انه من الثابت ان مراكز التعليم هذه قد انتشرت في

المدن امثال اورليان وكوربي وفولدا وتوري . وما دل علو عنابة

شارلمان بهذه القضية الهامة تاسيسه " مدرسة القصر " لتعليم ابناءه وانشاء

التيلا . ايضا . وقد اسندوا لها " الكوي " من ائكتوره ليراسها كما اسندوا

غيره من مشاهير رجال التعليم من ايطالية وغيرها ليعلموا في مدرسته تلك .

ولما اشتهر هؤلاء المؤثر بولوب دساتون . وانه تاربه اللومارديين في ذل

العهد .

وكثيرا ما كان شارلمان يلفت الانتار الى وجوب العناية بنفا الاداب

القدسة لان تحضر النفوذ في الخطأ في نقلها لا ينافي - علو رايه - اهمية

من تعلمها . غير اننا نلاحظ ان شارلمان لم يحر الاداب اليونانية ولا الرومانية

اقا الثقافة اذ كان يميل ان يرى رجال الكنيسة يكتبون بتعلم اللاتينية بلتقال

ليستطيعوا تلاوة الصلوات والكتاب المقدس بفهم .

وهكذا نرى ان تلك الخطوة التي اتخذها شارلمان في سبيل واخلاء

التعليم والاهتابة بالناحية الفكرية من الحياة العامة قد كتبت لها القدر -

في نتائجها المباشرة اذ ان القرن التاسع لم ينجح سوى النزر اليسير من مشاهير

الرجال من خلفوا مؤلفا - نذا علو دقة في التفسير وعض في الثقافة الفكرية

فان انحلا امراورية . ارلمان والمناجاة بين - لفاقه ثم هجوم سواوة حدد

وما نبت من الفوضى سدا السادة الانقطاعيين الذين لم يكونوا مستعدين للخضوع
لأية سلطة ، كما ذل قد تضافر علم ان تاخر العلم في الغرب لمدة قرنين آخرى
على الاقل من الزمن . وبالفعل فان القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحاد
عشر قد بدا فيها شرو قلبا من التحسن عما كانت عليه الحال في القرنين
الاربع والتاسع ومع ذل نحبها فالحبا والفوضى لم ينتشرا بعد . ارلما ، كما
كان الامر معهما قبله (Robinson ٩١ - ١٨)

ومما يساعدنا على تفهم روح العصر وحياة اهله اليومية
وما كان يكتنفها من مشاعر واحاسيس والتعز الى ملاحمهم وتضائدهم واغانيهم
المعيرة عن الفروسية وسادتها . ولا عجب فالفرسان قد لعبوا الدور الرئيسي
في حبيب اقاصيد العهد ورواياته ولما كان الكثيرون من شعراء الغزل
ممنون بحيلة ونبتة الى فئة الفرسان ، كما لا بد ان يذكروا الشرو الكثير عنهم
في اغانيهم .

لم تكن الفروسية مؤسسة رسمية وضعت مبادئها في زمن
معد ، بل كانت ، كالاتقاء ، الذي تمت اليه سلة وثقة ، بدون مؤسس خاضعها
با بروز اذاتيا في غرب اوروبا لسد حاجات الفم ورفياتهم .

ويريد بعضهم ان يرجعها بالا الى الحرمان ان ران
ناسا . على تولهم . يحدثنا ان الحرمان في عهده كانوا يعرضون اللوحة
التي يتقلد بها الشاب عندهم للمرة الاولى سلاح الحندي . لحظة مقدسة
لها مدافعا الدار عندهم وانرها السالم في نفوسهم . لانهم كانوا يستبدلون
من ذل علو بلوة الشاب من الرحولة . وهذا السالم مرز يتقلدو في سانه .
ولعل في هذا - على راي هتولا - العرنومة الاولى لفئة
الفروسية . غير انه هنا فئة من الناصر - بينهم العلامة فليب حنو - يعتقدون
ان الدروسنة زهرة نبشت اولا على ارض السلام ونقلها الحرب معهم الى الاندلس

ولا يستبعد ان يكون الفرخ قد تعرفوا اليها على ارضه عليه يوم اصطدموا للمرة الاولى بحبيرو العرب وفرسانهم وهم على خيولهم المطهمة . ثم علم الشاب المنحدر من عائلة نسلة بشدا على ركوب الحمار واستعمله السيف وتدريب البازي على الصيد بنصب فارسا في حفلة رسمية باثرت فيها رجال الكنيسة على ان الكرسي يكون عادة على يد فارس هندي .

وهكذا كان الفارس يعتبر حندبا مسيحيا بولف مع رفقة فرقة مطهدة ، يمتاز افرادها مناهم العليا التي تبدو في تصرفاتهم . هذا مع العلم ان انضمام الشاب الى مثل هذه الفرق لا بعد عضوة في منظمة لها موانعها ودستورها . بل جاء ما كان انهم بولفون جماعة متألبة ، نصرة جنالية ، بشعر حنو الملوك والنساء بالشرف العالي بانتمائهم اليها . ولم يكن واحد منهم ليخلف فارسا ، كما كان الذي او الكونت مثلا ، بل كان باستطاعته ان يمس من الفرسان بعد عملية ذلـ الاختفاء المنوء عنه قبلا . وعلى هذا الاساس قد يكون الواحد منهم نبيلا بالاصل ومع ذلك فلا يعترف له بالفروسية كما ان اي شخص ، مهما انحط نسبه ، كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان على اثر عمل مجيد باتبه .

فكان على الفارس ان يكون أولا مسيحيا ، يتمتع بالدفاع عن الكنيسة وبالخضوع لها في جميع المناسبات وكان عليه ان يخدم الضعف فسي جميع مظاهره وان يمد يد المساعدة للمساكين حينما وجدهم ، كما كان عليه ان يقاتل " الكفرة " بلا هوادة ولا رحمة وان لا يلين امامهم . وعليه فوق ذلك ان يقوم بحميم تعهداته الانقطاعية وان يخلص النية لسبده ويحافظ على اي وعد يتم به وان يكون كريما سخيا بحد ما لديه للمعوزين وان يبتلى مخلصا لسبده ويكون مستعدا للدفاع عنها ومن يرفها مهما كلفه الامر واخيرا كان عليه ان يمتثل الحدة ضد الباطل وان ينفذ في وجه العالم وبكلية موحزة " كانت الفروسية ففكرة الجهاد الاسلامي " منتصرة .

ذلك هو المجتمع الفرنجي في غروب اوروبا الذي كتب له ان يحثك بالمجتمع العربي في الشام خلال الحروب الصليبية ولو رحنا نوازن بينهما لرأينا المجتمع في الديار الاسلامية قد بلغ من النضج الذاتية في مختلف نواحي الحياة

المادة منها والفكرة والروحة . وقد تروى من ذلك كله الندوة ، بينما كان المجتمع
الفرنجي في الغرب قد دبح من مافولته بتلصق اربعة الو "سور" من عناصر -
الحياة فكان نصيب حينا ويخالف احياها . احار لقد كان الفرقة علميا في الناحية
الاجتماعية ان كانت الدمار الدائمة في هذه الناحية قد مارفت على الانحدار
اما في الناحية الاقتصادية فقد كانت في حالة لم يكر الفرنج قد تذوقوا منها
الا الشر . البسر وكذلك قال في الناحية الفكرية ان كان القيم بمجموعهم يمتنون
لوسنا . لهم التمتع بالالف باء منها بينما كان العرب قد استلقدوا منها الاسباب
حسبها تقريبا . وانما كان من بين الصحتعين من وجه للذبة فانما كان ذلك
من حيث ان العرب بمجموعهم قد مارفوا الانحدار من اندوة كما كان الفرنج
على وشك الشروع في التسلق فوق الهفنج .

الفصل الثالث

ما تعادله الشرق والغرب من علاقات اجتماعية وثقافية أبواب الحروب الصليبية

الحروب الصليبية - اجتماعية - ستجبل منع الحروب من الوقوع - الحروب الداخلية
والأجنبية - الموازنة بين الحروب الصليبية ووضيقاتها قديما وحديثا - اختلاف
المؤرخين بتقدير ما خلفته من آثار - المملكة اللاتينية في القدس من الوجهة
السياسية - المجتمع فيها - أثر العرب الاجتماع في الفرنج - في الآداب
والملاهي والمأكل والمشراب والحفلات والاعباد - الصيد والرياضة البدنية - البراءة
الفرنجية وأثرها في المجتمع - الفروسية على ظهرها - أصلها عامي - الإدارة في
المملكة اللاتينية - القضاء والتدريس - الحالة الحربية - الأسلحة - فنونها -
آراء لتبني الأنساب - الشعائر عند الموت والامراة - المداينات بين العرب
والفرنج - أمثلة على عبقها - الحياة في القصور وبيوت الامراة - الرق والخصيان -
الحياة الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة - الحالة الفكرية - الحركة العلمية
المفكرات العلمية في الديار الدالية وأثرها في الآداب - اللغات - الآداب
الغربية والحضارية - العلوم الدقيقة - الطب - الفلسفة - العلاقات العامة -

الحروب الصليبية تدل على وجود معدلة بين الفقيين المتحابين
بضارهم الحادق عليها وفذلهم في حلالها سلما لان يحشكوا الي النار والحديد
الو ان يتم الاتقاء او يبنوا احدهما للآخر . فهو اذن وسيلة لاجاد استقرار
مشود او استرداد حق مفصوب او تحقيق مبدأ جديد .

اما التحدث عن منعها فلغوا لا طائل تحته ان ينبغي العمل
على ازالة اسبابها وظروفها للاستغناء عنها كوسيلة لحل مثل تلك المشكلات وسواء
عندنا اذ عواملها اقتصادية سياسية او اجتماعية دينية او نفسية .

والحروب على هذا الاساس سران = حروب داخلية واخرى خارجية .
اما الاولى منها فتتفرع من فريقين اثنين في الدولة الواحدة . واما الثانية فتتفرع
نارها من دولتين او من مجموعتين من الدول . فيشتدك فيها عندئذ افطار
وقوميات با وقارات احيانا . وكثيرا ما قام مثل هذه الحروب خلال العصور
التاريخية المتعاقبة — كحروب الميديين واليونان ، وحروب الاسكندر والفرس
وحروب رومية وقرالحتة ثم حروب العرب مع الريم والفرس وسواهم حتى كانت
الحروب العالمية بين العرب والافرنج وبين الشرق والغرب ما بين النصرانية
والاسلام الى ما هنالك من حروب عالمية كبرى ما زلنا نعانى بعد مساوئها
ونحنو كثيرا من فوائدها . غير ان اوضح فائدة بين الحروب الداخلية والحروب
الخارجية ان هذه كثيرا ما تنقلب بمظاهرها المختلفة من سفك الدماء وازهاق
الارواح وتدمير معالم الحضارة في سبيل هدف معين او اهداف اخرى بعيدة
انوا كثيرا ما تنقلب من ذلك كله الى تصادم بين ثقافتين او مبادئ فلسفية
الحكم او فلسفتين او دينين فيخرج منها المتحاربون نتائج بعيدة ايجابية وسلبية
يقيمونها انرها مانلا بعلم في التطور الارادي او العكسي . فتكون بذلك عاملا
في نشر المعارف والتقاليد ونفا المبادئ والافكار من مراكزها الخاضعة في السور
اوساط جديدة . وهذا ما بقدره في ٢٠٤ من كتابه تاريخ المجتمع
الشرقي حيث يقول : « وكثيرا ما يزدد ونمو الله ر العلم والعادات والتقاليد
والدراك من مراكز الثقافة بقيا البحراء وفيام الاسراطوريات ونشوب حروب الفتح
وتقدم وسائل النقل والمواصلات » .

ولعل الحروب العالمية قد فافت غسرها من الحروب الخارجية في النتائج
البعيدة ، وذلك بما خلفته بين العرب والافرنج من آثار وما اقامته بينهم مسن
علاقات اجتماعية وثقافية كانت عاملا هاما في تطور الشعبين بعد ذلك ان سلما
او ابحايا .

واذا تبست هذه الحروب بما سبقها في العصر القديم من حروب
مماثلة لها تميزت عنها جميعها مداهما الزمن وتعدد الامم المتشبكة فيها ونشوع
الاحكام والقوميات واللغات والاديان والمذاهب بل وفي درجة التطور الفكري

والا-نعم . فهي تختلف مثلا عن الحروب المدينة التي لم يطل أمدها أكثر من سنوات معدودات ، وكذلك تتميز عن حروب روميو الاسكندر في كثرة المساهمين فيها وتنوع احتسابهم كما تفتقر أيضا عن حروب روميو وفرطاحنة بما تركته من نتائج وما اوجدته من اتصالات واولئكته من علاقات ، كان لها جميعها الأثر السلبي ، مع غيرها من العواما في نشوء أوروية الحديثة بفضل بقظة فويسة ونهضة حضارة ، فوجدت فيهما من الماء العصور الوسطى الى انوار المهد الحديثة ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في تقدير ذلك الاثر . في نهضة أوروية . فمنهم من رأى فيها العامل الاول في ذلك ونسبوا لها كما فضل فيها ومن هؤلاء هن ام رابن وهانز برونر الالمانيان وليون الفرنسي . ومنهم آخرون قد انكروا عليها ان يكون لها ذلك الاثر البعيد فوجدوا في نظرية اولك ومن لدنهم مبالغات لا مبرر لها . وعلو راسهم ارست باركر والاب هنري لامير . ومبعض ذلك الاختلاف - هو اعتقادي - موقف كل من هؤلاء واولك من الثقافة العربية والميل الى تقديرها حتى قدرها او الحط من شأنها ، فبينما كل / نسمع لويون بقوا = كان الشرق (آنذاك) (أبان الحروب الصليبية) يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة " اذا بباركر (١) يرفع عقيدته منساقلا = "ملي يقول ان أوروية الغربية كانت خاوية ، تفتقر الى كل شيء" (٢) . وكذلك نقرا ليس ام رابن فواء = واما في عالم الثقافة الواسع فقد اثير كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما شجعها من الاتصال بالعرب ، وحتى النصرة تألمسون علوم العالم . ولكن باركر يعود فيناقض نفسه عندما يقاوم من اثر الثقافة العريقة عن العرب الاندلس ومقلية في نهضة أوروية وبين ما تغذ به من هذه الثقافة نفسها عن طريق سورية ومصر خلال الحروب الصليبية كما سوف نرى عما قريب . اما نحن ، فمع اقرارنا بما في كلنا النظريتين من انطراط وتفریط نميل الى القوا بان تاثير الحروب الصليبية في نهضة أوروية الغربية ان لم يكن بصورة مباشرة بحيث يكون قد اخرج فئة خاصة من العلماء ، عملت على ابقاؤ أوروية وانهاغها كما كانت الحال مع صقلية والاندلس الا انه كان اثرالا يستهان

به ان دخل مجتمعنا بالذات حملته قائلين عديدة من نفسية وفكرية وروحية سادت
على التطور الحديدي . القول ان مثاق الالوه من الناس ينتقلون بافكارهم " الفحة"
وعقولهم "السكر" الى وسط سيقهم اهله شوطا بعيدا في مسار التطور الاجتماعي
والتقدم الفكرى واختلف افرادهم معهم في نظريتهم الى الدين والى سواهم
من اهل العقائد الاخرى ، ان ذلك العدد من الناس بحثا افرادهم عشرات السنين
على بقوقهم ، لحيرون بان تتكشف نفوسهم عن حقائق عديدة جديدة لا بد
وان تؤثر فيهم وتنتقلهم من آفاقهم الضيقة التي كانوا يعيشون فيها الى آفاق
جديدة رحبة سمحة فيصبحوا معها اكثر قابلية الى التطور والاندماج الى الاما .
ولقد راناهم فعلا يعودون الى اوطانهم في اورنة الذريرة بعد ان حملوا فسر
طيات نفوسهم بذور الحرية الاجتماعية فينحدرون من عبودية الاقطاع وتحكيم رجال الدين
الذين وكذلك راناهم ينقلون في شتات ادمتهم آراء ناصحة في الثقافة جعلتهم
ينشأون الى الحياء معها نازلة جديدة لم يكونوا يتعودوها . فبا لا هم ولا
اكثر مواطنيهم ، فصار لذلك كله اثره اليس في تحفة ذلك الانقلاب العظيم في
المجتمع والثقافة .

وهذا ما يقر باركر نفسه ببعضه حيث يقول = "واذا لم تكن

الحروب الصليبية قد صادفت حظا من التقدم فهي يفي كل حال ، قد زعم التفريق
بين الكتاب المقدس وغير المقدس وبين الدنيوى والدينى وبين الفانى والروحى
وان ايضا الى تحرير غير رجال الدين واطلاقهم من قيودهم وان كحركة
كهنه بعضها مزاج دنيوى مزاير كما الممايزة للامزجة العادية كانت ، على
الرغم من ذلك ، من القوى التي تعما على نفوذة الروح المدنى وعلى كل حال
حالا فقد اظهر العلماء اسنه دأدهم للاخذ عن فلاسفة العرب ولشخص
ظهر الروح الطيبة ، واستقام امرها بعيدا عن الحروب الصليبية غير انها لم تكن
لنستطيع ان نؤكد الى اداء اجل واحد كان عليه ان يعمل الا وهو المصالحة
والمواءمة بين كلمة ارسطو الدنيوية مع نصوح الانجيل وتعاليم الكنيسة المسمى بهما
الا في جو التفاهم الحسن الذي هاوت الحروب الصليبية على ايجادها (١) . ثم يعود

فيقول • لم يقتصر اثر الحروب الصليبية في اوروبا على خلق نوع جديد من الاتحاد الداخلي واثير جديد في مراف حياتها الداخلية المختلفة ولكن اوروبا قد كسبت باستمرار هذه الحروب نظرة جديدة واسعة الى العالم • هذه الدارة الواسعة التي صاحبها نهوض حركة الارثيا والانصراف للاستزادة من المعلومات الجغرافية (٢) •

وهكذا نرى ان الدبار الثمانية بفضل الحروب الصليبية قد ساهمت بفسط غير قليل مع صقلية والاندلس في سبيل رفع مستوى اوروبا ودفعها الى بفظنها فنهضتها وعليه نيتطيع ان نقرر • ان الغرب قد تتلمذ على الطرق مدة مائتي سنة خلال الحروب الصليبية كما تتلمذ بعض ابناءه على اساطين العلم والفلسفة في جامعات الاندلس ومدارس صقلية من قبل قرن • والان فلنقدم لنبين هذه الآثار ومداهها في حياة الافرنج بالتفصيل •

المملكة اللاتينية في القدس واثرها في نهضة اورشليم •

رأينا في الفصول السابقة كيف ان آلافا من الافرنج بل مئات الالوف منهم قد توافدوا على الدبار الثمانية بقصد لم تكن اكثرهم تبيين سواء الا وهو انتزاء بيت المقدس من ايدى المسلمين • غير ان هذا الهدف وان حققوه الى امد • فقد كلفهم من الخسائر الفادحة في الانفس والاموال ما جعلنا نعتبر المشروء معها فاقلا من الوجهة العسكرية • وكذا ولكن ظهر لهذه الحروب فيما بعد • بصورة غير مباشرة • من النتائج الطيبة ما جعلنا ننسو معها فظاعف وسوء اثرها المباشر • ان على العرب او الافرنج على السواء ان اولك قد خربت بالنتيجة اكثر مدنها الساحلية كما هلك مئات الالوف من سكانها فضلا عما ورثته البلاد من التعصب الديني الذمير بل والحقد على ابناء الغرب بسببها • هذا بالاضافة الى العرب واما الافرنج فقد هلك منهم لا اقل من مليون نفس بسبب بعد الثقة وصعوبة المواصلات والغربة في ارض نائية مع تعرضهم لفعوامل الطبيعة كانت ولا تها ناسبة عليهم • ومع ذلك فهذا كله لا يعد شيئا بالنسبة الى ما حناه القوم من فوائد مادية فنية ونتائج معنوية لا تقدر • كان لها جميعها الاثر الحمود في تطورهم الاجتماعي وتقدمهم الفكري •

فما كادت جموع الافرنج تحرز ذلك النصر الموقت حتى استفر بهم المقام في المدن الساحلية وبعض السهول الداخلية واناموا فيها مملكتهم في القدر وملحقاتها الأربع ثم ما كادوا يشعرون طيب الهواء واعتدال المناخ وجمال الطبيعة وعظم الثراء حتى نزل كلفه في نفوسهم انرا جعلهم مطمئنون الى الاله والسكون فيها با وسفرون دارتهم الخاطئة (١) الى اهلها ويندرون ما يتمتعون به من ثقافة عالية واحالة رغبة فراحوا يؤسسون لهم ملكا استنابعوا بجهد كبير وعناء شديد ان يحافظوا عليه مدة مائتي سنة ، عقدوا خلالها المسبب الانصلاص الاجتماعية مع اهل البلاد واحكموا افئسا العلاقا الثقافية معهم فنشأ عن ذلك مجتمع جديد فلا هو مغربي بحت ولا هو غربي وحسب بل فيه من هذا وذاك .

المجتمع في المملكة اللاتينية وملحقاتها

كان قوام هذا المجتمع الجديد خليطا من الاجناس والقويات واللغات والاديان ما بين غربيين وشرقيين بينهم الفرنسي والانكليزي والابيطالي والالمانو كما فيهم العربي والتركي والاردني والارمني وكذلك ترى بينهم اليهودي والمسلم والنصراني ما بين روم ارتودكس ولاتين وموارنة وسالارة وسعاقبة او سنو وديسي ودرزي ونصيري . هذا مع تفاوت بين في المظهر الاجتماعي والدرجة الثقافية (٢) .

ومع ما كان عليه هذا المجمع من اختلاف وتفاوت وتعدد فقد اخذوا جميعهم بعد فترة الانتقال راتبين مطمئنين لولا غزوات كان يشاد لها من آن لآخر جماعة الاقلاص وحملات كان ياتها ارباب الحرب والقتال من حلقوا لها وحلوا على الدجاة بها دفاعا عن كيانهم او حبا بنفوسه مدى النظم .

تلك حال يعمد بها الواقع ان لم تكن تنقضي فترة الانتقال من الفتح الى الاستقرار حتى رايانا كلا من العائص تنفر من الاخر ويسود حائهم سوء غير قلبا من روح التفاهم والتساهل (٣) بل سمعنا البعض من زاروا البلاد

في ذلك العهد كان حبير مثلا الرحالة الاندلسي المسلم بحمد ما كان فيه سكان البلاد عامة وابناء ملته خاصة من دعة وامن ورحا في ظل الادارة الحديدية (١) .

واذا رخصنا نوازن بين هذا المظهر الحديد وبين ما كان عليه الصليبيون من مظاهر اللطف والقساوة والعفا في عهدهم الا واننا لنعجب حد الحب لذلك التغير الذي طرا على اخلاقهم وتصرفاتهم فتبدلوا تبديلا .

ولو اضربنا الى بعض مؤرخيهم ونؤرخي العرب في ذلك العهد لسمعنا ما جعلنا نتردد في الاقتناع بان الامكان ان تشهد عن مثل هتولا القوم ما خبرناه من انقلاب فما بعد . واليك ما انقله عن الراهب النور روبر عن سلوكهم ، نورد الدلالة على سياستهم الحربية قال : " كان قوما الصليبيون يحويون ، كالسواك التي خطفقت صفارها ، الدوار والسادين ، وساح البيوت ليرزوا غلبتهم من الثغيا ، وكانوا يبقرون بطلون الموتى لحرخوا منها الذهب فبا لكثرة . وكانوا يدسون جنت قتل تلك الجماعة الكبرى التي لم يرم احد من افرادها النصرانية دينا . هذا في مدينة مارات (كذا) ولعلها المعزة (١) .

اما غروسيه فيبعد ان يورد الخبر نفسه يستدرك فيقول : " لا بد من ان تنقضي ذوات عدة قبل ان تبدا روح الصليبية (كذا) - وكانو به قد اذقت من ان بقوا " هذه الوحشية " بالروح الاستعمارية (٢) .

ولس مستغرب ان يطلع مقت الشرقيين لهتولا الصليبيين جدا ليهتولا غير عند الداهر الفارسي الكبير سعدى بقوله : " لم يكن اولئك الوحوش من البشر " (٣) وهنا شاهد عدا آخر على تلك القسوة هو الكاهن انكنا اذ يقول في مؤلفه : " فلما كان صليبي يسير بوحى دينو . فلم يتر اولئك المسلمين حرائم وحشية ولا خريا من غروب السلب والنهب او الفضائل المزرية الا اقترفوها (٥) وكذا

(١) ابن جبير ص ٢٨٢ - (٢) لوبون - زعتر ص ٣٢٥ - (٣) غروسيه ج ١ ص ١٢٣ - (٤) لوبون - زعتر ص ٢٥٣ - (٥) نفسه ص ٣٥٧ .

فلا نحب ان يعزو سان برنار - الداعية الكبرى للحملة الصليبية الثانية
فدلسهم فيها الى ما ارتكبوه من مظالم (١) .

واخيرا فنورد رأى اسامة بن منقذ فى اخلاق فرسانهم وهو
من بلاهم فى السرا والضرا ايضا اذ يقول = " لا يرى فيهم سوى بهائم .
امنازوا بصفة الشحافة والقتال لا غير (كذا) كما هو البهائم فضيلة القوة والحمل (٢)

والان فما هى العوامل التى جعلت هؤلاء القوم يخاضعون عنهم
تلك الغلظة والفظافة والوحشية لتبديلوها بتلك " السياسة " وذلك الاعتدال فى
فى ادارة البلاد . . . الدواب على ذلك بعبء بشيئا منى تذكرنا الروحية التى
انت اكثرينهم بها الى الشرق ليقاقلوا الكفرة والعظيمة التى كانوا جميعهم يحملونها
لدى وفودهم الى البلاد المقدسة التى يسكنها عبدة محمد وصنمه " اقول اذا
تذكرنا هذا علمنا ان الدعاة الباطلة لا بد ان ينحلى الحق من ورائها وان
ينقلب مفعولها الى ضدده وهذا ما حصل فعلا مع هؤلاء المساكين الذين سمعت
الناوية افكارهم واخرجتهم عن طبيعتهم الانسانية لتأرب خاصة تبنوا مبلغ الصحة منها
فيما بعد ولاغرائه اخفاها بعد امرائهم لكنها ما لبثت ان ظهر على امرها . اذ انهم
ما كادوا يصلون الى الشرق وهم على اشد ما يكونون نحسا الى الانتقام بحكم ناذير
المخدرات الروحية التى كانوا تحت مفعولها بفضل الدعاوات الباطلة حتى ظهروا بذلك
المظاهر البشع الذى صوره لنا كتبهم ومؤرخوا ذلك العصر من غيرهم .

غير انهم ما كادوا يقضون مع سكان البلاد ردها من زمن بتتسمن
فيه ربه الحق ويستغيثون من تاثير تلك المخدرات حتى تغيرت تلك الروحية اذ وكهو/
وجدوا انفسهم امام محبوب يعبد افرادها رب العالمين لا محمدا ولا صنمه " وتعرفوا
الى انهم يحترمون المرأة ويحفظون من ابدا الشيخ والطفل .

بلى فقد القوا انفسهم وجها الى وجه مع الحق والحقيقة ولا تستبعد
ان تكون بعض الوحوش منهم قد احترت خجلا لدى اكتشافهم خديعتهم . لذلك
لم يسعهم عندئذ الا ان يتبدلوا روحا غير ما تلبسوا به من روح تعصى ذمهم (٣)

(١٠) لويون زهنر ص ٣٥٧ - (٢) كتاب الاعتبار حتى ص ١٢٢ - (٣) تاريخ العرب -

حتى ص ٦٤٣ - (٤) تراث العرب ص ١٦٦-١٦٧ .

ولم يلبثوا ان نزهوا عنهم عقوبة كانت تربهم الشر خيرا والصلاح . هذا ما
حرى بحكم العامل الاحتياطي الذي كما قال غروسيه قد اقتضى له بعض الزمن
لبل ان تم فيهم لمحوه .

ولنا فيما نرى مؤرخهم المنصفون بهذا الصدد الواحد العدل ايضا على
ما فرزناه نحن سابقا . فلنسمع ما يجهر به احدهم فوشيه دوشارتر في مؤلفه
اذ يقول في تاريخ سنة ١١٢٠ م = "ها نحن اولاء قد تحولنا الى ترقيين نحا
كان منا ايباليا او فرنسا في الامر قد اصبه اليوم في وطنه الحديد حللنا او
فلساينيا . وكذلك قد تحول ابن مدينة ريمس (Reims) او مدينة (Chartres)
الى صوري او انطاكي ، فقد نسو كل منا وطنه الاول فلم يعد احد يتذكره بل
لم يعد احد يتكلم عنه . وقد غدا الواحد منا بملك بينا وحشا وهو مطمئن حتى
كان قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد كما ان البعض قد تزاجوا لا بالمواطنات
الغريبات بل بالسوريات او الارمنيات او احيانا بالسلطات بعد ان تعمدن . هكذا
اصبه كل منا بعيد في وسط اسرة وطنية حميلة وانا لنستعمل من آن لآخر اللغات
المحلية المختلفة فاصبح بابن البلد والمهاجر منا من متعددي اللغات . وقد شد
النظام ما بين اكثر الاحياء منا تباعدا حتى صدقت فينا آية التوراة القائلة =
" سبائك الاسد والنور في صمغ واحد " (٢٥٧٧ لقصص) ويكاد الواحد منا
يكون قد تبلد والمهاجر قد تمنا بالمقيم . وفي كل يوم يغدو علينا الاقرباء
والاسدقاء فيفضلون ان يتركوا كل عقاراتهم هناك لينضموا اليها ان اصبح بالحقيقة
الفقير منا غنيا بنعمة الله ومن كان لا يملك سوى درهمات اصبح بنعم هنا بشرة
طائلة ضخمة حتى ان من لم يكن بملك قرية غدا هنا سيدا المدينة بكاملها . فلم
العودة الى الغرب طالما الشرق يحقق منا الرغبات " (١)

وكذلك لنا علو هذا الانقلاب عن القيم شاهد في كتاب الاعتبار لاسامة
حيث بقوا من ١٣٤ " فكل من هو (من الصليبيين) قرب العهد بالبلاد الفرنجية
اجل اخلاقا من الذين قد تبلدوا وهاجروا المسلمين .
اذن لقد كان في " التبلد ومعايرة المسلمين " عامل قوي في نحونا القيم

وتبدلهم ما كانوا فيه من جفاء وخشونة الى ما اصبحوا فيه من دماثة في الاخلاق وانس باهاا البلاد وازدياد الثقة فيهم والطائفة اليهم .

هذا مع العلم ان هنا عاملا نفسيا كان له اثره في تلك المظاهرة الاجتماعية يعنى به ان سكان البلاد كانوا يحسبونهم قد فقدوا العزة القومية لكثرة ما تغبر عليهم من حكام واصبح الامر لديهم سببا يحكمهم هذا ام ذلك على شرط ان ينعموا بالعدا فيطمانوا الى اموالهم وارواحهم وممارسة دينهم وحقوقهم . وكلنا ملوك الافرنج وعلى ما ظهر فيما بعد مستعدين لان يوفروا لهم ذلك اذا هم اخلدوا الى السكنة وانصرفوا الى اعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية (١) وتركوا القتال لاهل الحرب والنزال . فكان هذا عاملا آخر قد ساعد بالفعل على تقرب الثقة بين الشعبين والعمل على زيادة اسباب التفاهم ولاختلاط بل والتمازج ايضا . فلا عجب ان نسمع امير صليبا يقول - " ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار اخوى " وكذلك موقف بعض رجال الدين من الافرنج كفيلهم اسقف صور يدل على هذا التبدل الجميل (٢) .

وهناك فضلا عن هذه العوامل الاجتماعية والسياسية والنفسية العامل الطبيعي الذي لا يقل اهمية عن سابقه في تحليل هذه الظاهرة اذا كنا نراهم يحلفون بحب ابلاد كما ادهشهم اخلاق اهلها فانسوا بها حتى نسوا بتأثير جمالها ووفرة خيراتها وطيب هوائها اوطانهم الاولى " فلم يحودوا بذكرونها " فما كان منهم الا ان توطنوها وراحوا يكفون حبايئهم الخاصة والعامة حسب مقتضيات الحال والمناخ فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الامراء والملوك منهم الطراز العربي المتلائم مع ظروف البلاد فسكنوا البنائيات ذات الاقنية الفسيحة تحوط بها الغرف والفاعات وتنوسطها " البحرة " يتدفق منها الماء وينطلق من النافورة عاليا فسمي الهواء " ثم تنتشر ذراته رذاذا بخففة شدة الحرارة ويبعث في النفوس البهجة والسرور كما يشيع في الاحسام البرودة والراحة (٣) . هذا عدا ما اقاموه فيها من آيات الزخرف بنصفيح حدرانها وسقوفها بالرلم والفسيفساء وتوسيعها بالذهب والالوان المعدنية الاخرى والمنا .

(١) المستعمرات الافرنجية لبراي ص ١٠٦-١٠٧ - (٢) نوات العرب ص ١٦٧ -

(٣) تاريخ العرب - حتى - ص ٦٤٣-٦٤٤ .

ثم اتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الاثاث ما يتفق معها والروح الشرقية
العربية المعروفة بحب الترف فاصطنعوا السجاد والاناقر وزينوها بالرياح
الفاخر والمصنوعات الدمشقية والايوانة النحاسية المنمقة والانبية الزجاجية والخزافية
المصنوعة في صور (١) هذا وقد اتخذوا لتنويرها الشمع وكثيرا ما كان حسب عادة
العرب مفرخا بالطيوب (٢) .

صفا

وكذلك تبدلوا ثيابهم بملابس شرقية سابغة واسعة الاكمام زاهية الالوان
موشاة بالحرائر والنطاريز (٣) . ولعل المرأة كانت اسبق الي مثل هذه المظاهر
من الترف والنعيم من الرجل فانخذت لتزينتها المجوهرات الدمشقية والقاعية وادوات
الظلمة من المساحيق والخضاب كما انها احتذبتها المرايا الزجاجية والخرايا بانواعه
والاقنعة المصنوعة من وبر الجمل وغيره .

وقد ترك لنا ابن جبير في رحلته صورة حبة لحياة المرأة الافرنجية
وما توصلت الي اقتباسه من اختها العربية في الدبار الثلجية من ادوات النظرة
ووسائلا التحمل ومظاهر الترف في الطبر قال = "ومن مشاهد زخارف الدنيا
المحدث فيها زفاف عروسي . اهدناه بصور في احد الايام عند منائها وقد احتفل
لذلك جميع النصارى رجالا ونساء واصطفوا ساطعين عند باب المرور المهداة
والسوقات شرب والمزايير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تنهادي وهي في ابهى

زي وافخر لباس نسجت اذبال الحرير الذهب سحبا على الهيئة المعهودة من
لباسهم وعللي راسها عصاية ذهب قد حفت بشبكة ذهب وعللي لبثها مثل ذلك
وهو رافلة في حليها وحللها ثمنى فترا في فتر منى الحمامة او سير الغمامة (٤)
ولم يكد الفهم يتعرفون الي اطعمة اهل البلاد حتى احببتهم نكهتها
فانقلوا عليها بانواعها واشكالها كالقطائر وغيرها من المعجنات والتمر الهندي والافاوية
والاطياب والبهارات والقطاني كالذرة الشامية . ولعله بحسن الاشارة الي ان بعضهم

(١) تحفة الشرق للغرب - حتى - في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ - (٢) المستعمرات

الافرنجية - راي ص ١١ - (٣) تحفة الشرق للغرب في الكتاب الذهبي ص ١٤٦ -

(٤) الرحلة ص ٣٨٨ .

راج بمنع من اكل الخنازير تشبها بالمسلمين من الارقين (١) . ولم يكن ثلثهم اقل ومن ذلك في الشرقيات فاصطنعوا منها المعطرة والمنلجة والحلاة وكذلك بحدتنا احد مؤرخي ذلك العهد منهم = جاك دوقترى (Jacques de Vitry) من تلج لبنان والستعمالهم له في المبردات (٢) .

وقد حذا الفرنجة الغيا حذو الارقين في اعيادهم وحفلات لهموم فتشبهوا بهم في اتخاذ جوقات الطرب في محالير الشراب فاستمعوا الي الارغيل والزمارة والعود والقبنارة والربابة وغيرها كالايقاع المصنوعة من قرون الحيوانات (٣) وكذلك فقد استمعوا الي المصنوعات في افراحهم كما استندعوا الندابات في المآتم ايضا . هذا وقد اتخذوا لذلك كله ادواته النحاسية والفضية والذهبية فضلا عن لقطعة الموائد من الاقمشة الفاخرة (٤) .

ولعل الصيد كان من اللذ ما يقضون فيه اوقات فراغهم بعد طول القتال والنزاع في ساحات الحرب ولا سيما في اوقات المهادنات اذ كثيرا ما كان الافرنج والامراء من المسلمين يتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المحاورة لكل منهم فيحقدون الحلقات المذتركة (٥) . وقد اتخذوا له البزاة والصقور والسواحين والكلاب الصلوبة وغيرها (٦) .

واما الساريا - الرياضية وحفلات السب عندهم فقد كان فيها نحو من الخشونة كما بحدتنا بذلك اسامة اذ حضر احداها في طبرية وهات ما يقول "حضرت بابرية في عيد من اعيادهم (الصليبيين) وقد خرج الفرسان يلعبون بالرياح وخرج معهم عجوزان فانبتان كذا (اوقفوهما في راسر البندان وتركوا في راسه الآخر خنزيرا مسطوه وطرحوه على صخرة) وسابقوا بين المعجوزين ومع كل واحدة منهن (كذا) سربة من الخيالة يشدون منها والمعجوزات يقمن ويقمن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن فاخذت ذلة الخنزير في سيقها " (كتاب الاعتبار ص ١٣٨) . اما سباقاتهم على ظهور الخيل فانه ما تكون بالعباب الجريد عند

(١) كتاب الاعتبار . اسامة ص ١٤٠ - ١٤١ - (٢) المستعمرات الافرنجية ص ١١ -

(٣) تراث الاسلام - باركر - ص ١٢٣ - (٤) المستعمرات الافرنجية راي ص ١٠ -

(٥) انظر راي ص ٥٥ وحتى في تاريخ العرب ص ٦٤٣ - (٦) كتاب الاعتبار اسامة ص ١٢ ٣

الداميين (تراك الاسلام ص ١٦٥) "وكان العرب السوريون يارمين" بالرمابة
والسابقة واللعب بالاصولجة "على قول ابن جبير فاستحسن امرا" الفرنجة
العابهم الرماحية واخذوا يرتاضون بها وينسجون على منوالهم فيها ولذلك
دخل الحريد وغيره (Eournement) الى اوروى . ولقد حفظ لنا المؤرخون تذكارات
من الاحتفالات التي كان يجتمع فيها فرسان الفرنجة بفرسان المسلمين لبياروهم في
هذه الاعباب تحت سما" سورية" (١) .

وسا راق الافرنج كثيرا من نعم الحياة في مجتمعهم الحديد الحامات
فاقبلوا عليها ابدا اقبال وقصدوها في اوقات فراغهم يقضون فيها الساعات طلبا باراض
فصلا عن الغابة الاولى منها وهي النظافة والظاهران البعد . قد افترطوا في ذلك
لدرجة أننا نسمع جاك دوفترى يحنج على الراهبات لخروجهن من الاديرة مخالقات
بذلك انظمة جانبهن لينذهبن الى الحمامات العامة وحنورها مع عامة الناس ايضا (٢)
وما اكثر ما يسرد علينا اسامة في "كتاب الاعصار" من احاديث الحمامات وهديد
اخباراته معهم فيها ما جعلنا نهيب بدالب الاستزادة منها في الرجوع اليه
ص ١٣٥ — ١٣٧ .

ولعله لا يتم بحقنا هذا ان لم نخمس المرأة — وهي روح المضع —
بكلفة تكشف لها عن مكانتها فيه وانرها في اهل . فقد لعبت فيه على ما يظهره
دورا سلبيا اذ اتنا نراها قد اقبلت بشوه على ما فيه من اسباب الترف والبطر
تاركة جانبها ما كان يحسن بها ان تنزود به من عادات غريبة واخلاى حيدة وفيما
يحدثنا به مؤرخوهم عنها فقد لاذء وقدح مقدح . فهذا سان برنار يقول في
تعليل قائلهم في الحملة الثانية ((برجع نصب غير قليل الى انغماسهم في الفسق والفجور
والفجور لسبب تسلط النساء وتاثيرهن)) (٣) وكذلك يحدثنا فليمن اسقف صور عن
زواج قسطنطين سيدة انطاكية ^{بني} دونايتون (De Donaiton) ونتيجة السبلا في
تاريخ امارة انطاكية فحسب بل في تاريخ المحكمة نفسها ايضا اذ انها في سبيله قد
ضحت بكل شيء (٤) هذا بقطع النظر عما كانت تحوكة نساء البلاط من المكائد
بالاشتراك مع رجال الدين في سبيل التحكم بشؤون المملكة (٥)

وكذلك ^{مكتشفا} من مثل ذلك راي (ص ٢٧٢ — ٢٧٣) وما توسلت به الملكة

الوالدة ماري كومن اربعة ايام من وسائل لتخفيف غلهم اسقف صور عن بطريركة القدس

(١) تحفة الشرق للغرب — لحنى — في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ (٢) المستعمرات الافرنجية
راى ص ٦٢ (٣) حياة صلاح الدين — احمد بيلى — ٢٥٠ — ٢٦١ (٤) غروسه ج ٢ ص ٢٢٢

رغبة منها بهرقل رَيس اساقفة قنارية بارغم ما كانت تعلمه عن سوء آدابه .
وهناك قصة زواج الاميرة سيبيل وريثة عز الملكة واغرائها بخدوين الابلبنى
صاحب الرملة ثم نكدها عنه فو سيبيل فو اللوزيانى بطل ماساتهم فسو
حطين (غروسه ج ٢ ص ٦٨٧)

هذا ويكفينا غروسه مؤنة الاطالة فو البحث فو الموضوع ان انه
يُسلخهم حالة الملكة فو عهد الملك الابرس بخدوين الرابع قبل هبوب العاصفة
فو حابين بقلبا ، بما بلى " بلاط ملكى يبتسر بالنزوال " ^{وهنا} ويرد ذلك تسلط
النساء وتنفض رجال الحامية الاندال وقد مثل هذا وذا فو سوء اختيار سيبيل
وريثة العرش برفقة بداركها فو الحكم رغبة منها ^{في} حمل وحبه مع قبح نفسه
اما اخت الملك الثانية ايزابا فأنرت الزواج برحا اركان ساقط الهمة نعنوي ^{من}
سوءه ^{من} علا وكذلك لم تكن الملكة الوالدة آنياب (Agnès) باقل سوءا ان
انها راحت تشارك الحامية فو الكيد ارضاء لشهوة الحكم عندها . ولو ادى
ذلك بالملكة الى الحضيض واخبرا اهدى الى هذا كله ان اكر رجال الاقطاع
يوهمند الثالث سيد انطاكية كان آنذاك يرتو فو احضان خليلته (Sybille)
التي تنحسر عليهم لحساب السلطان صلاح الدين . ولما اراد رجال
الدين تسديدها راج بضطهم (١) .

اما المرأة فو الطبقة الوسطى فلم تكن احسن حالا من سيدتها
" النيلة " ان يحدثنا مؤرخوهم عما كانت عليه هو ايضا من السفوط ولا سيما فو
ابان وحنتهم . من ذلك ما جاء على لسان اميروار () قوله " عادت
النساء من عكا الى باقا سنة ١١٩١ ورحن بحرور ^{ان} اهل الفجور فو تصرفهن
الدائن ان كن يقدن عليها بالمراك والزوارق - وهنا يتاوه شالمانم بفصول -
" رحماك اللهم اهنل هذا السلاح بسنود مبرات الرب " .
وسا هو اند دلالة على سفوط القوم اخلاقا ان جنودهم كانت تغادر
الاعمال الترسية فو باقا لترجع الى عكا حيث يقضون مع " السنا " اوقانهم فو الفسق

والفحور وقد اضطر وقتئذ ريكارد الى العودة لعاك لينزعه بنفسه هتولا الصليبين من المواخير والخمارات (٢) . والغريب في امر هذا التوراة الفرنسي الحديد غروسيه انه يرجع ذلك السقوط في اخلاق القوم رجالا ونساء الى تاثير الارز وهو لو فكر وادرك لانصف ان هذه الاخلاق نفسها كانت فيهم منذ عهدهم الاول ففزعوا فيها الان وهذا جاك دوفتري يترا لنا صورة حية لمدنية عكا في عهده فيقول = كانت عكا من بين المدن الساحلية مكتظة سنات الهوى اللاتوي يحنين ارباحا عا دلقينه من خطوة هند رجال الدين والدنيا على السواء (٣) ثم يستمر في وصفها فيقول = "نرى الرجال فيها يذالون نساءهم والزوجات يسمعن رجالهم في سبيل عداقتهم فلا غربة اذن ان نختم بكذا بيده السعوم والى قافير المسممة" ولم يكن امبرواز (Monsieur) باقا لذعا من زميله في نفده الفرنسيين من جنود الحملة الثالثة اذ بقوا = كانوا يقضون ليلتهم في الرقة ١٠٠٠ وبعد معافرتهم بشفة الحان حتى الصباح كانوا يغدون الى بيوت الدعارة مع ربيد محترجين الانام بالكسبر والتخريب (٤) .

وقد يحسن ان نورد ايضا ما جاء في كتاب الرونتن في اخبار الدولتين اذ بقوا ١٤٩ م ١٤٩ في تاريخ سنة ١١٩٠ "وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنسية مستحسنة اجتماع من الحزائر (الحزير) وانتهين للحزائر وغترين لاسعاف القرية" وقصدن بخروجهن تسبل انفسهن للايقاب وانهن لا يستمنعن من العزبا" وراين انهن لا يتفرقن بظا بافضل من هذا القران ، وزعم ان هذه قرية ما فوشها قرية لا سببا فيمن اجتمعت فيه غربة وهزبة" ثم يستمر فيقول "وابقى من عسكرينا من الماليد الاغيا والمدايير الحبال جماعة حذبهم الهوى واتبعوا فن غوى فضهم من رغبى للذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة فتجبل في النقلة" .

والان كيف يعطل غروسيه ما يجترحه هتولا النسوة وهن قريسات عهد بالشرق . فهل كسبن ما عندهن من اخلاق في الدمار الشامية ام هي من صفاتهن ومادرات الغرب وجزره .

ولما هذا بوذي نا الى الكلام عن الفروسيه عند هتولا القوم . لقد راينا سابقا ان بعض المؤرخين يصلون الى رد نشوئها عند ام اله عوائد قديمة عند الحرمان بينما يرى البعض الاخر كالدكتور حتى انها "زهرة لا يشكر احد انها زهت اولا على نربة

سورية ومنها انتقلت الى البلدان الأوروبية . وقد بقيت القروسية احواما بنبوها من
بناسيم المروية والشهامة واللفظ في معمل بلاد العرب ، لان الفارسي كان من اول
واحيائه ان قسم بيننا نوح عليه نفى الله اولا ثم حماية الضعيف ان امرأه او
طفلا ام ممد نانيا ، وكما كان صلاح الدين الابوي المال الاعلى للقروسية
العربية كذلك كان ريكاردوس قلب الاسد معمل القروسية العربية ، وكانت الاقاميم
والحكايات التي تدولتها الاليس في اوروبية كلها مشحونة من صور الابطال المسلمين
الذين امتازوا ليس فقط ببسالتهم بل وبشهامتهم وحسن خيانتهم مع المحافظين
على شرف كلمتهم* و(١) .

وهنا لا بد من التعقيب على ما جاء به الاسناد العلامة فليب حتى
ان انه قد امان ان القروسية مع كونها "زهرة زهت اولا في نربة سورية" فهو ايضا
نقوم على حصيلتين اثنتين = (١) البسالة و (٢) الشهامة " فاذا توفرت "البسالة"
في ريكاردوس فهل ظهرت في اعماله ونصرفاته "الشهامة" بل ابن كانت المروية
في تصرفات الفهم في عهدهم الاول بالبلاد

الس في هذا برهان قاطع على ان القروسية عند الانزع لم تعرف الا
شرفها الا في الحروب الصليبية . ثم الس في استمرار الكنيسة على الفارسي بوجوب
"حلفه البمين بضرورة نفى الله و....." دليل على ان المروية لم تن عندهم
الا بفرقة خارجي لا بشيء وداخلي . والفرقة بين هذا وذاك عظيم بحسب الانتماء
اليه .

(١) تحفة الشرق للغرب لحنى — في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ .

الحكومة وهياتها الثلاث الادارية - القضائية والتشريعية

فما ان انتهى دور الفتح حتى وضعت اسس المملكة في القدس ونزع
الامراء الاقطاعية - نحو اقتضت مصالح المحتمة " العالميو " الحديد بين فيه من
مدرسين وخرسين قيام حكومة تدبر - بهياتها الثلاث - الادارية والقضائية والعسكرية
امور البلاد وترعى مصالح اهليها وترد عنها كرات المسلمين عليها .
غير ان هذا كله لم يتم نهائيا فلما ثلاثة ارباء القرن من الزمن اقتضتها
عملية التوفيق والملائمة بين ما حاه به القوم من شكل اقطاعي وبين ما كان من ذلك
في البلاد ففتح عن ذلك من الانظمة والقوانين ما كان ارقو مما عرف في اوربة
خلال العصور الوسطى جميعها (١) .

وما ظن تحليل ذلك بحسب ان جاءت مجموعات قوانين " المملكة
اللاتينية في القدس " وامارة انطاكية وكونتية طرابلس برهانا على صحة ما نؤمن . ولنا
فيما يلي مفدوحة عن التوسط في اصل تلك " الدساتير " اما حقوق الطبقة الوسطى
في ملكة الاراضي فكانت - حسب القوانين الرومانية التي وحدها الافرنج مطبقة فسي
البلاد - فلم يسعهم الا احترامها واترارها كما كان سبق للعرب ان فعلوا من قبلهم .
هذا ما العلم ان مجموعة القوانين " المحتمة بالطبقة الوسطى والتي وصلت
النا قد ورثت من سنة ١١٧٣ سنة ١١٨٠ وهي مُتَضَمٌ بالرو الرومانية .
وما تحسن الاشارة اليه ان " هذه القوانين نفسها كانت منسبة فسي
بلدان اوربة الرئيسية ومع ذلك فكانت مُتَطَبِقٌ بحذاقها في المستعمرات اللاتينية في
الشرق " (٢) .

اما فيما يختص بالادارة فكان امورها منوطا بالنائب (Vis count) او البسكند
(كما حاه في المراجع العربية) (٣) وكان هذا فضلا عن نراسه " المحكمة العليا " في
اقطاعه مسؤولا ايضا عن الامن فيها مساعدة المحتسب ورجال الشرطة معه .
ومنصب المحتسب هذا عرو اسلامي وحده الافرنج في البلاد فعملوا به
والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومعالجتهم
ومن شرط المحتسب ان يكون مسلما حرا بالغافلا عادلا قادرا (٤)

(١) لا يضر من ١٢٢٢ وانظر ايضا راء ١٢٢٢ وحتو - الكتاب الذهبي من ١٢٢٢
(٢) راء ١٢٢٢ - (٣) كتاب الوصايا من ١٢٢٢ (٤) نظام القريش في اعطام الكتب من ٧

(١) ومن الأمور المنوطة بمراتبه المحاسب :

(١) الطرقات والاسواق

(٢) الموازين والمكاييل

(٣) نحر الحبوب والدقيق

(٤) الخبازون

(٥) الحزارون

(٦) بائعو اللحم المشوي

(٧) بائعو السمك المقلق

(٨) بائعو الزيت والسمن

(٩) بائعو الثرايات

(١٠) معلمو الصبيان

(١١) الاطباء والمجبرون

(١٢) اطباء العيون

ومن المرقى ان لا تختلج وظيفة المحاسب في المستعمرات الافرنجية من ذلك كثيرا

هذا في الادارة اما في القضاء فكان هنا محكمتان - محكمة التجارة ونعريف

" محكمة القند " او السون " ومحكمة الملاحة او " محكمة السلسلة " التي تقفل بها الموانئ

اما الاولى فكان اختصاصها النظر فيما يقوم من قضايا ب "تجار وتالف من ستة اعضاء

منهم اربعة سوريون واثنان افرنجيان . وهذه تذكرنا بالمحاكم المختلطة في ايامنا هذه

واما الثانية فكانت تحكم في قضايا البحارة وما يتعلق بالملاحة ومتفرعاتها .

وكان غير هاتين محكمة اهلية مختصة بالسوريين تسمى " محكمة الرئيس " وهو " رئيس

البلد " او نائب ^{الشيخنة} الملاحة . وكان اعضاءها واهضاء محكمة التجارة يحكمون حسب قوانين

الامارة مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد اهلها .

غير انه لا بد من الوقوف هنا قليلا حتى نضع صورة لقضاء القم وحكمهم

وذلك للمقارنة بين ما كان عند العرب من ذلك وما كان عند الافرنج منه . فقد

قال اسامة في كتاب الاعتبار ص ١٣٨ - ١٤٠ " وشهدت يوما بتابلير وقد اخبروا انهم

"للمحاكمة" وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كسوا ضيعة من نساء النصارى فأتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا "هودل الحرامية على الضيعة" فمسرب . فنفذ الملك فقهه اولاده . فعاد اليه وقال = "انصفوا . انا ابارز الذي قال عنى انتم ذلك الحرامية على القرية" . فقال الملك لصاحب القرية المقطم = "احضر من ببارزه" فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فآخذه وقال له "تبارز ارفاقا من المقطم على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته . فذاهدت هذا الحداد وهو ثياب قوي الا انه قد انقطع مشى ويحلمر بطلب ما يشربه وذلك الاخر الذى طلب البراز ضيعة الا انه قوي النفس بزجر وهو غير محتفل بالسارزة . فحا السكند وهو مدينة البلد فاعطى ك واحد منهما العصا والتميز وحمل الناصر حولهم حلقة . والتقى . فكان الشبح يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلحظه الى الحلقة ثم يعود الى الوسط وقد نثريا حتى يفا كعمود الدم . فلال الامر بينهما والسكند بسنة حلما وهو يتقوا بالعجلة . ونفع الحداد اذمانه بسرب المطارقة . واعبر ذلك الحداد فضره الحداد فوقه . ووقع عصاه تحت ظهره . فرب عليه الحداد بداحل اصابعه فى عنقه ولا يتمكن من كثرة الدم فى عنقه . ثم قام عنه وسرب راسه بالعصا حتى نثله . فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا وجروه وثبقوه . وحا صاحب الحداد اعطاه فقارته واركبه خلفه واخذه وانصرف .

تلك طريقة من طرق المحاكمات عندهم تعرف بطريقة السارزة ولهم طريقة اخرى لا تقل فظافة من الاولى اوردها اسامة بحدود محاكمتهم لفتى "كانت امه مزوجة لرجلا افرنجي فقتله ومارر الولد بحثا على حجاجهم وشعائره امه على قتلهم فأتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج = حلسوا نسبية عظيمة وملاوها ما وهرسوا عليها ذلك حذب . وثبقوا ذلك المنهم وربطوا فى كتافه حبلا ورموه فى الشدة . فان كان ربنا غاص فى الماء فرفعوه بذلك الماء لا سموت فى الماء . وان كان له الذنب ما به ومن فى الماء فحرم ذلك لما رموه فى الماء ان يغوص فما قدر فوجت عليه حكمهم . له فيهم الله فكحلوه . وفى هذين النموذجين عن فقههم وقضائهم ما جعلنا ندر السبب فى

"ان الة راي البحرية والنجارية الاوروبية كلها ترجع الى اصول وسعت للمرة الاولى فى

انتاء الحروب الصليبية (١)

ولبت الافرنج به تمدون في - رويهم على فرسانهم ومنظمتهم العسكرية
المخصصة لذلك كحركة السنتارية وفرقة المعبديين (الداوية) وعلى سموي السرفندية (١)
حتى انصاروا مع الزمن الى الاستعانة بالبلديين في تعبئة جيشهم فراحوا يذكون
الخيانة الخفيفة من المسلمين والمسيحيين وقد عرف افرادها بالتركيز في وكان من بينهم
الموارنة الذين كانوا صالحين طوائف . وكثيرا ما استخدم منا هؤلاء المرتزقة بعض
الادوية كدسر جبل الطور والمذابح العسكرية حتى ان امير طرابلس اخذ منهم حرسه
الخاص (٢) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

هذا وكان الافرنج يادى الامر بنفون الحراب والسهام بدروع ثقيلة مصفحة
كثيرا ما كانت تعيقهم في الحركة وتحملهم بطيئين في المعركة . مما اهاب بهم اخيرا
الى اتخاذ الدروع الخفيفة ذات الزرد واستعمال الخوذ الاسطوانية الشكل المروفة
بالخوذ الصليبية كذلك المنحني والكبوت ووضع الالغام المتفجرة وتركيب البارود والمواد
المفرقة . واعداد النفط المتفقد بالماء او ما يعرف عند الاوروبيين " النار اليونانية " .
ومعان البارود من اختراع الصينيين فان لدنا ما يثبت ان العرب
استعملوه واستندوا مكرانه للقتال خلال الحروب العلمية وذلك حوالي النصف الثاني
من القرن الثالث عشر والذي في محطولة عنوانها = " كتاب التعريف بالمصطلحات الدرية " الطبع
تأليف شهاب الدين ابو الهيثم احمد بن فضل الله العمري ، حيث نرى اشارات الى
" عقارب البارود المصروفة " (النو) امتدت كائنها سحابة وهددت كائنها رعود واضطربت
كائنها حربة وجعلت الكا رمادا (٣) . وكذلك فقد روى المؤرخون الفرنسيون ان
الملك فيليب اوفسطوس قد احرق الاسطوا الانكليزي في ميناء دباب بالنبراس اليونانية .
وما ان هذه النار لم يكن لها معاما في فرنسا انه ذات " قلابد من ان يكون الملك
المذكور قد طلبها من معاما عكا " كما ورد في الكتاب الذهبي ص ١٤٢ .

وكفي منتصف القرن الثالث عشر انتشر بين الافرنج استعمال الاسلحة الطبية
وغیرها من صنع البلاد الشرقية الاخرى فكانوا يتنازعون من دماء السموة " الفرنجية " من
صنع اليمن (٤) .

وكذلك نرى ان الافرنج مدة اقامتهم في الدار الدائمة قد استفادوا من
اختراعات العرب في الهندسة الحربية فاخذوا عنهم اسلحت مناه الحسون والاستحكامات (٥)

(١) المعنى مدانة اذ ارا سامية ص ٦٧ - (٢) الكتاب الذهبي ص ١٤٣ - نفسه - (٣) راي
ص ٢٩ - ٣٠ - (٤) الكتاب الذهبي ١٤٤ راي ٣٨ .

كما حسنوا كثيرا في وسائل الدفاع في اواخر القرن الثاني عشر حتى ان احدى مؤرخي العرب في ذلك العهد يذكر ما كانت عليه " فسي " الشايبين الا فرنج من الدقة والشدة على جهة صلاح الدين لدى محاصرته طرطوس سنة ١١٨١م اذ كانت تنقل اوتى صفوف المسلمين من ابواب الحصن دون ان يتمكنوا هم من اصابة المدافع عن (٢٠)

وبذلك يكون الا فرنج قد استطاعوا بفضل المهندسين الشاميين والارمن التضلعين من العلوم الدقيقة " ان يصعدوا في النصف الثاني من القرن الطينين الثاني عشر للجيو المسمى المسلمة .

ثم ما لبثت الفلما من بينهم ان اخذوا انفسهم بهذه العلوم والفنون حتى اتقوها وقد ذكر احد مؤرخيهم انه في سنة ١٢٣٩ استطاع احد مهندسيهم *Anseau de Brie* ان يصنع آلة مدفعية تستعمل في حصار القنطرة في جزيرة قبرص (٢١)

وما اقتصرت الا فرنج عن العرب وله علاقة بالروب اتخذت الدار لبللا وحمام البطاني نهاراً لنقل

الاخبار المستعجلة (٢) او اعطاء إشارة الخطر لانقاذ سرمداهم اوجبت معاهم كما انهم اصطنعوا لانفسهم الحواسيب في ملاطشات اللطو والامراء بواصلونهم بالاخبار سرا . وكبرا ما كان يعرفه الا ليا . يقومون بمنا هذه المهمة في سبيل اخبر والتفاهم ومن ذلك ايضا اتقانهم الوباء العسكرية في المبادئ الحربية واستخدام الطبل والزمر رغبة في بعث الحماس في قلوب اللنقاتين . (٤)

ولا يسعنا الا ان نذكر ابط ما قلده الا فرنج به المسلمين من عادة اتخاذ " الرنوك " او اله مار وكبرا ما كانت هذه ترسا بحل إشارة الامير او الملك . ويرجع تاريخ هذه الشارات الى القرن الحادي عشر . ثم ما لبث ان عم استعمالها وتنوعت اذ امكنها في القرن الثالث عشر (٥)

وكذلك اقتدى الفم بالشرقين في الاصطلاح على علام لتبميز الانساب وبذلك دخل علم هذه العلامات الميزة للاسر المالكة والشرافة الى اوروبا . وكان لهذا تاثير في ترفية الفنون الجميلة وفي الحياة الاجتماعية كما يقول الاستاذ الدكتور فليب حتى

صور حقا لنقد كانت قصور الامراء الغربيين في المقاطعات الا فرنسية تبدو غريبة المظهر لم يبق فيها من الفرسان والمشاة وهم يروحون وينفذون بالبنسهم المتقوية واسلحتهم المختلفة برمانون بلغاتهم العديدة ويتميزون باجناسهم المتباينة .

(١) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ص ٣٨ - ٣٩ (٢) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ص ٤٣ (٣) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ص ٥١ (٤) نفسه ص ١٦

وأما رجال الانطاعات فكانوا أيضا يحدون في بيوتهم من الحشم والخوا ما يشاكل مع ت
الحاح والكاتب والطبيب حامية ضخمة وكثيرا ما كان هذا الأخير من أهل البلاد المسيحيين

او المسلمین اور انھیں اعلیٰ سے نازل ہوا کہ افتخار الخدم من الغریب، و اعید الارثاء من الشرفین

وذكروا وانانا، يهتديهم عادة من ارمينية ومغلب ان يكون بينهم السودانيون والسودانيات
ياتي بهم النخاسون الاحياء الى سوق حدة في الحجاز ثم تنقلهم القوافل الى ايجة المائدة

الواحد من المصنفين. وهذا فضلا عن انضمامه من الخبيران لخدمته في الخاصة فقد نقل عن

الملكة نودورا، لرملة بن دوير الشاه انه كان في حاشيتها منهم عدد غير قليل، اصطحبهم معها عند ما عزم على الاعتزال في دير القديسة - انه في اقدس (٢)

السرديات

ولما اروع ما يوترع من حياة العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية نظم الصداقات
التي ربطت بين القلوب واهكموها فحله في حوامد التدبير وشاد الالات ثم احسن لنا اعتقد
ان الانسان مهما نويت فيه حيوانيته وطغى عليه ملائحته ، ما زلنا نشد في نفسه زاوية
فدعا من اخذروا الصالح والحماة ببقية تنذله من حصد المادة لتزفوه الى ابي المصير
الرواحي .

واحق احمل الصدقات ما قدرت اراها به قلبي خصمين كاد كل منعما بودى بالاخر ولا
ان الكافي الواحد منهما فحاة في صاحبه انشئة حذوته يغمر جنا من هناك ليملا
الاخرى بحسانه .

١٠. ابعث لي السلام انيذ الي ما نذاه اليه مما نقلته لنا المراحه المختلفه من خبره

هذه الملاحظات وما يلاحظها في كتاب الاعتبار لأفاريق، الذي هم أسامة، ص ٨١ حيث يتناول متعلما عن نفسه.

٢
 "كنت انزود الى ملاك الافرنج كلما الخاص ملاك القدس " في الملبينين وبين جمال الدين
 محمد بن تاج الملوك (امير دمشق وقتئذ) رحمه الله ، ليدرك لوالده رحمه الله علو بغداديين
 الملك والد الملكة امرأة الملا فلان الخامس ٢

وهذا خلاصة ما رأينا روضة عن سابقه مما في صفحة ٩٠ من نفس الكتاب المذكور وذلك

ان هو دولتمن الاوا صاحب تاجه و بما غار على الرقة والقلعة وهي لنجم الدولة ساله بن
سالم فاخذ كل ما على ها وسوى وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم اغرات .

(1) نكته: $\Delta E_{\text{ف}}$ (2) نكته: 1.7

فركت نحم الدولة مال نو زورق وهر الفرات الى حوسلين وبينهما معرفة قديمة
ولمات عليه حميل ٠٠٠٠ فقام حوسلين وانتفاء واكرمه ورد عليه جميع ما كان اخذه
من الذنات والسبي ٠

ودونك مثالا ثالثا يكشف عن ناحية نحن نو صدها ٠

"ثم ملك بغداديين (الثاني) اداكية ٠ وكان لابي وهو (اسامة بنكلم)

عليه حميل كسر حبل كان اسره نور الدين بلد (صاحب منطقة شمال اوز) ٠٠٠
فحما البنا الى ديتزر ليتوسط ابي وهو ٠٠٠٠ بيده فاحسنا اليه ٠ فما ملك (بغداديين
هذا) كانت لصاحب انطاكية علينا ~~نظيمة~~ بقطيعة قيمتها اربعة آلاف دينار وضعها
تفكر سنة ١١١٠) سامحنا بها وصار امرنا نو انطاكية نافذا من ٢٠ - ٢ من
كتاب الاعتبار ٠ وناهيه بصدقة اسامة نفسه للداوية وهناك ما يحدثنا هو نفسه
عنها في ص ١٣٤-١٣٥ اذ يقول "فكمت اذا فخلت المسجد الاقص (نو القديس)
وفيه الدوية وهم اصدقاؤو يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلو فيه ٠"

واخبرنا نخدم هذه السلسلة بذكر نفوذ آخر منها بدل علم مبلغ ما

ترك عوائد العرب واخذهم نو نفور البعد من اولت الانرج من صفت نفوسهم
فانطبعت علو صفحتها صورة حبة من فروسية العصر الحيلة ٠ فمن ذلك انني

(اسامة بنكلم) نفدت صاحبها الى انطاكية نو شغل ٠ وكان بها الرئيس نادر بن الف
الصفو وبنو وبينه صداقة ٠ وهو نافذ الحكم في انطاكية ، فقال لصاحبي يوما "فسد
دعائو صدي لي من الفرنج لنحو" معي حتى نرى زتهم قال "فضيت معه ٠ فحشنا

الى دار فارم من الفرسان العنق الذين خرجوا في اول خراج الانرج ٠ فلحضر
مائدة حسنة وطعاما نو غابة النظافة والحودة ٠ ورتو متوقفا من الاكل فقال ٠ كل طبيب
النفس فانا ما اكل من طعام الفرنج (كذا) ٠ ولا يدخل داري لحم خنزير ٠ فاكلت ٠

وانصرفنا ٠ فانا بعد محتازا نو السوء وامراة افرنجية تعلقت بي وهو نيربرلسانهم

وما ادري ما تقول فاجتمع على خلقي من الفرنج فابقت بالهلال واذا ذلك الفارس قد

اقبل فرأنو فحاه فقال لتلك المرأة "ما لك ولهذا المسلم ٠ قال " هذا قتل اخي

فرير () مكان هذا غرس فارسا قتله بعد جند حماة ٠ فصاح عليها وقال

" هذا الرجل برعاسو (اي تاحر) لا يقاتل ولا يحضر القتال " وصاح علو اولت المصميين

فنفرقوا واخذ يدي وضى ٠ فكان تاثير تلك المواقلة خلاص من القتل ص ١٤٠ - ١٤١

ولو اردنا ان نسرده اكثر ما لدينا من اخبار هذه الصداقات لطال بنا الامر
لفوضه ان نكتفى بهذا القدر منها مع التنويه بما كان بين ريشار قلب الاسد والملك
العادل وما كاد يتم بفضل من زواج بين الملك الابوي واخت الملك الانكليزي
(انظر غروسيه ج ٣ ص ٢٨٠) (كتاب الرونشين في اخبار الدولتين ص ٩٣)

هذا ولئن ادت مثل هذه الصداقات التي كانت ما بين سنة

١١٩٢-١٢٤٩ الى تلطف نحو العلاقات السياسية والاجتماعية فان لنا في خلاصة
فردريش الثاني ملك صقلية واسباطور جرمانية ما يدخل عليها "عنصرا جديدا هو عنصر
التفاهم الثقافي" فتكون بذلك قد بلغت منتهى مداها واقص حد الجمال فيها .
وكفى بهذه خاتمة تعبق برية الفروسية نفق عندها لننتقل الى
موضوع آخر هو موضوع العلاقات الاقتصادية ولعلها لا تقل بانرها واهميتها عن سابقاتها
ما ذكرنا ولاحقاتها ما سنذكر فيما بعد من الروابط الثقافية .

الحياة الاقتصادية في " مملكة القدس " وملحقاتها - الزراعة .

لقد كان المجتمع في " مملكة القدس " وملحقاتها يتكون كما راينا
من طبقة الارستقراطيين الذين منهم الملوك والامراء والفرسان وفي يد هؤلاء جميعهم
كما بينا ، سابقا ، الحكم والقضاة والحرب ثم باني بعدهم ، اكثريه السكان من يكادحون
في سبيل العيش واستمرار الحياة من ارباب التجارة والصناعة والزراعة ومن قوام الانتاج
في الدولة وعليهم المعول في ايام الحرب والسلام . ونريد الان ان ندرس حالة
هذه العناصر الثلاثة بادق ما الزراعة منها . فقد كان ارباب الزراعة ، على الدوام ،
سوءالفون مجموعهم العنصر اللد ، الاصل ، والوا على مر الاحبال والقرون وتعاقب الغزوات
والفاتحين ، يذكرون النواة الحية في الشعب ان في الحبال والسهول (بطون الوديان
ولا يحب ان يستمروا يكونون الطبقة المنتجة في اروق البلاد المختلفة وهيودها المتباينة
اما الاراضي التي كانوا عليها يحملون وفي سبيل احاشها يكدون ،
فكانت ملكا لابناء الطبقة الارستقراطية الذين اقطعها لهم السلاطين والملوك والامراء
بحكم قنصهم بمهمة الدفاع عنها ضد عدو مهاجم او خصم دفعته مطامعه الى اغتطابها
وهو هذه الصورة نشأت مع الزمن ففة الاقطاعيين الذين كان لهم الحق في حلك الاراضي
بما عليها من قرى وديساكر ومزارع وكان من واجبهم الدفاع عنها وحماية العاملين عليها
في الفلاحة والبذر والصفاية وجنو المحاصيل وهم مجموع المزارعين والفلاحين .

غير ان هذا الشكل من الاقطاع وان م بات الافرنج الى البلاد به ، فانهم قد افروه دون ان يزيدوا عليه مما هو اقطاعهم من نصف المنبوء بالتابع اذ ان كل ما يفرضه الواجب على اولئك " الاقطاع " الكد في سبل حتى المحاصيل المختلفة واقتسامها مع " السيد " حسب الاتفاق .

وليس هنا من واجبات اخرى تربط به اللهم الا واجبات الولا والاخلاق ونموئنه بما يحتاج اليه من ارزاق يقدمها له رجاله من الخيالة والرحالة ممن يقومون على حماية الاقطاع وارضه .

وكانت الاقطاعات الكبرى تقسم الى رساتين اصغر تتالف منها القرى والديساكر والمزارع . وكان لهؤلاء الفلاحين " الاقطاع " في كل طبيعة مرجع اداري هو الربر او المختار على لغة النج وكان هذا عادة من ابناء الطائفة ذات الاكثرية في القرية او الدسكرة او المزرعة .

تلك كلمة موجزة عن طبقة الفلاحين وعلاقتهم بالاراء تلك العلاقة

التي تجعلهم مرتبطين بها ارتباط جاة وموت . ينتقلون معها بانتقالها من يد الى اخرى دون ان يكون لها سمة العبودية فبسامون من العذاب .

والان فاذ ا كانت حالة الزراعة في ذلك العهد .

يظهر انه بالرغم مما كان من مواقع حرية وما نتج عنها من تخريبات قد

بقيت الزراعة حية نشيطة لم يصبها من التعطيل الا القليل بدليل ما جاء من تلكم

الاراضي في وصف الرحالة الاندلسي لها ولما عليها من مزارع ومحاصيل حين مروره

فسيها في اواخر القرن الثاني عشر وهو على طريقه الى بلاده عائدا من الخجاز

حيث اتفق لفرصة الحج فقد جاء عنها (ص ٢٦٨) قوله شان مقاطعة الكر " شاعدا

في هذا الوقت خروج صلاح الدين لمنازلة حصن الكر وهو سرارة فلسطين

وله منظر عظيم الاتساع منها العمارة بذكر انه انتهى الى اربع مائة فرسة .

وما بلغت النظر الى القوم من افرنج ومسلمين كانت قد سادت بينهم روح من التساهل

والتسامح ما جعلهم يعيشون " واهل الحب يشتغلون بحربهم والنار في عافه

ولا تعترض (الحرب) الرهابا ولا التحار " فالامن لا يفارقه في جميع الاحوال سلما

او حربا " .

وقد جاء أيضا ص ٢٨٢-٢٨٣ لدى كلامه عن بانبار . وكانت بيد

الافرنج واسترحبها نور الدين قوله * ولها (بانبار) محرو واسع في بطحاء متصلة
ومالها بين الافرنج وبين المسلمين هم يفسدوا الزلعة على اسنوا ومواسمهم
مختلطة ولا حيف بحرى بينهم فيها واحتزننا في طريقنا بوان ملند الاحر واكثر
الرنند بعد العمق كذ كانه الخند السحب الهوى تلتقى حافته ويتعلق السماء
اعلاه . لو ولجته العساكر لذهبت فيه .

وكذلك كان اولئك الفلاحون من المسلمين على حالة من " الترفه " مع
الافرنج مما يدل على مبلغ ما توصل اليه القوم مع الزمن من " اعتدال " في السياسة
وحسن تصرف الامور وفهم صحيح للذات الحقيقية من الحياة . هناك دللنا على
ما نذهب اليه مما يورده رحالتنا في ص ٢٨٤ حيث نقول : " ورحلنا من تبينين
وطريقنا كله على شياخ متحلة وهمار متخلفة . سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج
على - الة تربية وذلك انهم يؤدون لهم نصف الزلعة عن اوان غمها وحزنة
على كل راس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم علو نمر الشجر
شربية خفيفة يؤدونها ايضا ومساكنهم بايديهم وحب احوالهم متروكة لهم . "

ولم تكن الحالة في الساحل وسهولة لتقا عما كانت عليه في الداخل .
وان في السهول او علو الجبال اذ اتنا نسيم ابن حيدر يقول : " منزلنا سبعة من
خباء عكة علو مقدار فرس ورئيسها (المختار) الناظر فيها من المسلمين تقدم من
حبة الافرنج علو من فيها من عمارها من المسلمين فاضاف حبه اها الفائلة غبافة
حفيلة واحترهم صبرا وكبرا في غرفة متسعة بمنزله وانالهم الوانا من الطعام قدما
لهم فعمهم بتكرمه وكنا فمن حضر هذه الدعوة " ص ٢٨٤ . ٢٨٥ .

وبعد حديث طويل بصوفه الرحالة بصدد عكة وصور يقول " وهاتان
المدن تان عكة وصور لا سائين - ولما وانما " ما في سبط مدار اربع افصح متصلا بسيف
البحر والفواكه تحلب اليها من بسائينها الثور بالقرب منها ولها عمالة متسعة
فالحمال الثور تقرب منها معمورة بالضياء ومنها تحوى الثمرات اليها " ص ٢٩٢

هذا ما جاء عن الزراعة وما افاد منها الافرنج وافادته من روائسهم
لها ولاهلها في شرق الاردن وفلسطين ولبنان الجنوبي غير انها لم تذكر ان ثانا
من ذلك فيما تقفو من الدمار الدامية . وهذا ما يصر به رحالتنا حيث يقول عما

بخش بنا بين حلب ودمشق = "وقسوس هذه هلو البلدة الشهيرة في الزمان لكنها حريت وعادت كان لم تكن بالاص ... ولكن قراها عامرة منتظمة لانها عام محرك عالم مد الصرع عرضا واولا ... ثم اسجدنا وراينا عن حين طريفنا ... كور بلاد المعرة وهو سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسطاط وانواع الفواكه . ونسما التفاح بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهو من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا . ومن وراها جبل لبنان (كذا) وهو حد بين المسابين والفرنج لان وراها ابلاتية والاذنية وسواهما من بلادهم * . م ٢٣٣-٢٣٤ . ودونك ما ما بقوله عن حماه * ويخارج هذه البلدة بسيط فسيح عرب قد انتظم اكثره بحراحي الاعناق وفيه المزارع والمخارح وفي منظره انشراح للنفس وانفصال والبساتين متصلة على شاطئ النهر * ص ٢٣٦ .

تلك كلمة عامة عن الزراعة فلنخصص الحاصل منها بكلمة ان كانت تلك الحاصيا سببا لثروة ضخمة نتج عنها ركبة صناعة نحارية عظيمة . فكم ذل ادراجها وغاناتها فبالرغم من الملهر الاحمر الذي يظهر به حبال هذه الديار الدراسة في اماننا هذه فقد كان في ذلك العهد تغطيتها الغابات الكثيفة وتزينها الاحراج المختلفة . وهذا ما حدثنا به كنية ذلك العصر من مؤرخين ورحالين وسواهم ان انهم يشارون الى ان منطقة ابلاتية كانت كبيرة الغابات بل لعلها اكثر منطقة البلاد ادراجا . فالحيا الاسود وحيا النصرية كانت تكتسوها غابات الارز والاشجار بلوط والفسطاط الدليم وكذلك كان بكثرة السنوبر في الجنوب الذي من مره ولما غلبم الصور قد غناها بقوله ص ٧٨٩ من مؤلفه ١٧ (١) اما حبال عكار فكانت تغطيها فضلا عن السنوبر غابات العرعر وغيره من انواع السندانة المختلفة . وكذلك حدثنا جاك دوفنري ان حشب العرعر في لبنان كان يعتبر من الخشب الذي لا ينطرق اليه الفساد (٢)

وكانت مدينة بيروت تنعم ايام غلبم الموري بغاناتها الصنوبرية وقد ذكرها الادريسي اكبر جغرافيين ذلك العصر وحدد سعتها بانحو عشر ميلا وهو بذلك غابات الحبال المجاورة لها .

(١) المستعمرات الافرنجية لراي م ٢٣٦ - (٢) نفسه ص (٣) بيروت تاريخها وأثارها ص ٢٣

وسمى ان مقاطعة الكوف قد لازمها سوء الطالع ان كانت اشجارها تنمو

لضربات القويوم وكذلك كان حظ الساحل المستد بين سور وهكة (٢٣٩ راي)

اما احراج جبل الشيخ فكانت تمتد من سفحه حتى بلدة بانهاش

وكانت من الانساء والعظفة بحيث عرفها مؤرخوا الافرنج باسم ()

وكان في بلاد الخليل غابنان احدهما في عربة والثانية جنوب الناصرة تمتد

من جبل الطور حتى نفا عمرو وقد ورد ذكرها في المراجع اللاتنية تحت لفظ

كما ذكر راي ص ٢٣٩ وهي كانت جنوب قيسارية كان اكثرها من الشاء لوط .

اما في حوار القدم فكان يسمى الذابات تمتد بفرت سواس (قيية) وبين كالم .

هذا بشأن الغابات والاحراج وانما ما انتقلنا الى دراسة بقية

الحصولات ننهي ما جاء في قوانين الافرنج ان " تلك المحاصيل كانت تقسم على

الطريقة التالية = حصة تتراو بين الربيع والثلث تقدم الى " السيد " والباقى

يكون من نصيب الملتزمين ا هذا مع العلم ان ابن حبير يقول انهم كانوا يتناطرونها

على السواء اى بالمناصفة . اما قائمة الحبوب لذلك العهد فتتاد تكون نفسها

لابائنا هذه وهي القمح والشعير والذرة والارز والدخن والعدس والفول والسمسم

وقد عثر على هذه الاسماء وارادة في قائمة " العذير " الذي كانت تنقاعها كبسة

القباطة لذلك العهد .

ومن المحصولات الزراعية ايضا = القطن والتان وعروق الصباغين

والزعفران والنيلة .

اما سائمن الفاكهة والخضار والمقوا فكانت منتحاشها عادة = الرمان

والليمون على انواعه وخاصة منها " الليمون الحلو " الذي كان معروف وفنشد "ليمون

انباتة " والبرتقال والانرج واللوز والسن على انواعه والدراق وغيرها كثير .

وكانوا يذنون ايضا بزراعة محاصيل عدة من ذوات الازهار العطرية

كالورد والاكاسية (الطلح) والكسند والقرنفل والزنبق والريحان والريحس والمنفص

وهرائس النبل والحنة .

وكانت مزارع الزيتون كثيرة ونظم عادة عند اقدام الطلح حيث

تترام التربة الخصبة الصالحة لانسانها .

ومن الموز الحامض المزروعات الهامة النخيل الذي كان سكر في جوار حمص وتدمر
كما في النوريسا ولعل أشهر منتحاته كانت في اريحا . وما كانت تكثر زراعته
في ذلك الوادي الموز وقد سماه جاك دوفرنى "موز الحنفه" .

ومن الخسار الشهيرة لذلك العهد البطيخ "الاحمر" وقد شهد ابن البيطار
العالم الشهير ان هذا النوع المحلى منه في صدد كان من احدث الانواع
في سورية وما عدا ذلك فقد كان الخسار والقرع والسبايا والهلين .

ولقد ذكر الادبسي "البيلة" وحدة عناية القوم بها في وادي الاردن . كما
كانت مزارع قصب السكر تكثرها هنا ايضا وقد بلغ من عناية الافرنج به انهم عفوه
من التربة تضحها لزراعته فانسعت علو طوا الساحل من طرابلس الى صـ (٢)
هذا فضلا عما كان من مزارع له بالقرع من البحر الميت وكان المحصول منه يعرف
عند الافرنج "بسكر الكرك والديوك" .

ولم تكن عناية القوم بزراعة التوت لتقا عنها بزراعة ما سبقت ذكره كما اشتهرت
مزارع القطن في جوار اللاذقية وطرابلس وغيرها .

ولا يجب ان ننسى الكرم اذ كانت العناية بها تفوق حد الوصف وذلك
لنورها على انواعه ولعصيرها ايضا . (٣)

ولورعنا الان نقابل بين ما كانت عليه الزراعة في الدار الشاميه وما
كانت عليه في الدار الغربية الاوربية في ذلك العهد لرأينا الفرة عالميا والبن
شاسعا . وهذه الحقيقة نفسها تجعلنا نستنتج ان ما افاده القوم في هذا الحقل
بحسب ان يكون متناسبا مع الزمن الذي قضوه في البلاد يحكون باهلها وطرا زراعتهم
واسبابها وتتفقا مع درجة تاحرهم وتقدم العرب فيها .

وما اتفق عليه مؤرخو المسلمين كعليهم السرى وحات دوفرنى انهم
ما كادوا يتعرفون الى السكر وحلاوته في اولياتهم الحديثة حتى يادروا الى نقل
زراعتة نصبه الى بلادهم .

وكذلك فقد نقلوا الليمون والساب والشمش والخوخ والاحا . الكنرى
وسود "الفضا" في نفا اشجار الخوخ لاوروبا (لاوروة) الى الكويت ونحو وغو الشمش
لعدة طويلة يعرف في اوروبا باسم نمر دمشق .

ومن حملة ما نقل من الحملات الزراعية الى اوربة * عن طريق سوسة
وهو من اصلا هندي او سنو * . الثمر الهندي ، والافادنة والطوب والبهانوات
واخصها القرفة ، وكذلك من القطن - الذرة الشامية .

ونستطيع ان نقرر انهم نقلوا ايضا زراعة السمسم وللخروب والدخن
والارز والسمون والباياد والنم وذلك بدليل ان اسك بعد هذه النزوحات في بعض
اللغات الاحنية بقرب بلطة من الاصل العربي . اعتبر ذلك في (١)

السمسم وفي الخروب وفي الليمون وفي اوجيل لستلان .

وما له علاقة بالزراعة " التواخير " والدواب الهوائية التي لم
تظهر في نورماديا الا في سنة ١١٨٠ وكذلك الدواب المائية فانها
تنضج باصلها الحريو " الناعورة " ولكن وجدت هذه في اوربة قبل الحروب الصليبية
فما لا شك فيه ان القمح عادوا من الارز نموذج منها وتداول عليه تحسينات
حقة (٢) . وفي هذا كتابا علنا ننشأ الان الى درر الصناعة وما كان لهم منها .

(٢) - الصناعة _____

ان بلادنا كالدار الزاوية تكون الزراعة فيها علو السحابة التي ياهدناها
في الصحرا الصالحة وان مديا تدينا كالدايين مع ما عرف عنهم من حموة وذوة وحب
للحسب اتوا ان مديا كهذه وديوا كيمعوسها لا بد وان تكون صناعتها نايبة متقدمة
وذلك لوفرة المواد الخام فيها وكثرة مصادرها بلاضافة الى ما راسنا من عدد محاصيلها
الزراعية . وبماهران الصناعة مختلفة فروعها قد بقيت من احتصاص العرب واليهود من
بين شعوبها ابام الحروب الصليبية .

اما فروعها الكثيرة فنعد منها - صناعة الخزف والزجاج والحلي والنسيج
علو انواعه " ومراحنا في دراستها وتنبيح حالات تطورها - لذلك العهد - مؤلفات
الصلبيين والشرقيين والنماذج التي خلفتها لنا وحفاتها المتاحف العامة والمحموها - الخاصة ٣
وبحدثنا الادريسي عن حركة صناعة قوية في كل من المدن الانية ذكرها .
ناقا ، سروت ، سمور ، دمشق . وقد كانت صناعة الفخار فيها متقدمة بحمل مصنوعاتها وبيع
منتجاتها لما عرفت به من دقة في الصنعة وسها في المظهر لا سيما المطلوبة منها بالبنا .

(١) تراث الاسلام . باركرمر ١١٧ - (٢) تاريخ العرب . حتى ص ٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) راي ص ٢١١

وكان الخزف الثامى من السلع الهامة فى تجارة المستعمرات الفرنجية
ويظهر هذه الحقيقة حلبة من مراجعة "محمولا قوانين القدس" (١) ويتضح مثل هذا
من بنود المعاهدة التى عقدت بين "امارة سروت" وجمهورية جنوا سنة ١٢٢٣ اذ
نالت فيها ما يلى : "ان المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع البيضاء من
الرسوم الحركية".

اما صناعة الزجاج فكانت من اختصاص اليهود فى صور واما كما ان
صناعة الخزف كانت مما امتازت بها صور ودمشق آنذا وكانت لها درات الاخيرة منهما
تجما الى اوروة باسم "فخار دمشق". وكثيرا ما كانت هذه من النوع "القبضاني".
(وهو الفار المظلي بالسنا البدوية الحسن الزاهية الالوان) وتاهد منها حتم
السم فيما نفو من قطع احتفظت بها به المناحة " والبيت الكبرى فى دمشق وحلب
وغرهما من المدن الدائمة الكبرى . ويذكر راي منها قطعة فى متحف سفير
ولاحظ اذا علمنا ان هذه الصناعة الحملة صناعة الخزف قد بلغت
اوج تقدمها فى دمشق وابلان القرن الثالث عشر والى محتفظة فكانتها فى دمشق
حتى غزوة التتر للبلاد عندما قضى عليها تيمور بنقله خراجها الى عاصمته سمرقند
فى مطلع القرن الخامس عشر .

وقد جاء فى "معجم الاثنا فى القرون الوسطى"
ما يلى : "وان للقبضانيات الدائمة اثرها السن فى تقدم صناعة الخزف الفرنسية فى
اواخر القرن الثانى عشر وقد كانت هذه القبضانيات نفسها نماذج احتذبت ايضا فى
جنوى فرنسة ايضا" (٢) . وما يذكر على سبيل المثال ، صفائح مائلة بالسنا الصفرا
والاحمر ، مزدانة برسوم عربية انزلت تلك الصفائح فى واحدة شابة ببلدية سان انطوان
المشيدة فى القرن الثانى عشر ويلاحظ انها نسخة عن فخار قد استورد عبر البحار
وآية ذلك ما فيها من مظاهر الصنعة العربية وما يزخر فيها من الخواطر الكوفية مع
احتفاظها بطابع القباني القديم المصنوع اما فى الشام او بلاد العم
وما خلفه لنا الادرسو الجغرافو الشهير بشان صناعة نسيج الحرير .
وكذلك فان صور وطرابلس وانطاكية وطبرطوس قد حازت جميعها شهرة واسعة فى الشرق .

والذرة بمصنوعاتها الحريرية . وكانت مصنوعات مور علي قوا الاديسي من افخر الاخوان
فتمتاز بحمايتها علي غيرها من منتجات الشام وكان مرغوبا بها جدا في الخارج . كما
كانت طرابلس تفاخر ايضا بمصنوعاتها المبرقشة وقد قدر
لدى زيارته للمدينة سنة ١٢٨٣ ان عدد مصاحبي الحرير ووبر الحما لم يكن يقل عن
اربعة الاف عاملا (١) .

وبالرغم من تعدد الحكام علي مدينة اناكبة خلال العصور فقد
اذاكرت - علي قوا غلوم الصوري - في عهدها الاسلامي الصناعات الميكانيكية
التي كانت دائما من اختصاص الداشين من سكانها . دون ما يلاحظه الاديسي
في ان صناعة الحرير فيها " تصفون في هذه المدينة اقمدة جميلة بالوانها المنسجمة
ومن ابدء منسوحاتها الحريرية المبرقشة والديباچ " (٢) .

ومن المنسوحات الفاخرة " المخملية " وهي اقنعة كانت
تصنع في مدن الشام كلها وخاصة في طرابلس وطرطوس وكانت علي اربعة انواع -
(١) منها ما هو مصنوع من وبر الحما (٢) او وبر الماعز (٣) من صوف الغنم (٤) من الحرير
والظاهر ان هذه المنسوحات كان يرغب بها الاوروسون كثيرا بدلا ان حوانقيل لدى
زيارته لمدينة طرابلس حاحا كلفه الملك لوسر التاسع ان ستاج له كمية كبيرة من
المخاما " ليقدمها لبع الموصسات الدينية (٣) .

ومن المنسوحات التي كان يطلبها البلديون والافرنج علي السواء
السط والساحيد التي دخلت صناعتها الي الشام ومن هنا انتقلت الي فرنسا
في القرن الثاني عشر (٣) .

وهناك عدا ما ذكرنا من الصناعات صناعة الدروبك الروحية

كالجعة التي كانت تصنعها من الذرة والشعير وكان يصنعها الداشيون والافرنج
وتقدرونها في كتاب الروضتين في تاريخ سنة ١١٢٩ ذكر علي قوا راي غير نفا لم
نعثر علي شيء منه .

ومن الصناعات الهامة صناعة السكر ولقد شاهد الرحالة بورشاردت

سنة ١٨٠٩ في الزور نقابا معاصر السكر التي يرجع عهدها الي القرون الوسطى

(١) ص ٢١٥ راء - (٢) نفسه ص ٢١٦ - (٣) نفسه ص ٢٢٠-٢٢١ .

وهو قسم حتى ايام راي بطواحين السكر . ولقد شاهد راي كما صرح ص ٢٤٩
قرب اربحا نقابا معصرتين للسكر ولكن الافرنج احتفواوا بالاسم العربي لها وهو معصرة
اما الصناع فقد انشئت المصانع العديدة لصنعه في انطاكية وطرطوس
وكة ونابلس وغيرها وكان استعماله قد عم في القرن الثالث عشر واسبغت صناعته
على ثمر كسر من الازقية في المستعمرات الافرنجية حتى انهم اتخذوه له المناحر
الخاصة ايضا (١) .

ومن الصناعات التي احتكرها ايضا اليهود دون سواهم في كل من الاندلس
وارالم والخليل والقدس صناعة الاصباغ وصناعة الدباغة وتحنير الفراء . وكان صناعة
التعدين ايضا نادرة جدا في ان اسن بطرطوس بذكر ان بيروت كان "تحل منها الى ديار
مصر" . والحديد (٢) وكان هذا يستخرج من الحبال المحاور لها . كما ان الادريس
بمقدونيا كثيرا جودة الحديد الليناني وصلاحه لصناعة الاسلحة الشهيرة في مدينة دمشق
ولعله من الخير تخصيص صناعة الزحاج بكلمة اذا تهرت بها مدن عديدة
منها سر واسطانية والخلد والاسلم ودمشق وكة ويذكر غليم الصوري ان هذه الصناعة قد
ارتقت الى القارة القصوى في القرون الوسطى وان من معاملها خرجت تلك المصاييح البديعة
والاكواب الحسنة والزجاجات الذهبية والمطلة بالسنا . وتحفظ متاحف اوروبا بمناذج
منها (٣) . وان تنسوا فلن تنسى تلك الآنية المعدنية البديعة الحسن بانواعها
واشكالها ويذكر بالذكر منها النحاسية . فكم ازادات بها قصر الملوك وسوت الامراء من
مسلبين وافرنج . ولم يكن ما يصنع منها للافرنج ليحمل رسوما بشرية فحسب بل كان
ينفذ عليها ايضا ما اهد دينية ويحفر على جوانبها حكم واسماء باحرف ذهبية مع
احتفاظها بطابعها النصراني .

وهناك صناعة الحلوى التي كانت لها سوز رائجة وخاصة بها في القدس
اذ تشير "قوانين السلطنة" الى ان نبتة الذهب والفضة كانت به تحدد بامر ملكي .
ويقرر السيد فوجيه البجاعة النفقة " ان الشرق قسود
اهتم دائما بالحفر في الحجارة وهو يراحم حفر حيوانات لها علاقة بشعائر الهلاك النبلاء
من الافرنج على حجارة ناسبة الى بعض الصناء الثمينة الذين حنورها حصصا
لبعض النبلاء في البلاد المقدسة " (٣)

(١) ص ٢٢٢ راي رحلته ص ٣٥ - (٢) ص ٢٢٤ راي - (٣) ص راي

وكثيرا ما طلب نبلاء الافرنج الى جواهرهم من العرب لصبغوا لهم
ما يحتفحون اليه من حلى . هذا فضلا عن آنية كسبه عديدة كانت غنية بما
رصعت به من ذهب وفضة او دق فيها من حجارة كريمة او انزل فيها من اللالى
الذاللة والعاج النمين . كانت في الحقيبة زينة الكناثر وبهجتها وقد توسع رأى
بهذا الموضوع من ٢٣٠ - ٢٣٤ في مؤلفه القيم - المستعمرات الافرنجية .
والان ان الوقت قد حان لانن منتقل الى درس التجارة وما نشأ
عنها من علاقات وارتباطات كان لها اثرها العظيم في حياة الغرب خاصة .

الحالة الاقتصادية

٣ - التجارة

لم يكن في استطاعة الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء مع وفرة جنودهم
السرية بمنفسها من فرسان ومشاة مهما اوتوا من مساعدة في القتال ودراية فصول
الحرب ان يفوزوا بما رموا اليه من فدية لولا المساعدة القيمة التي انتم من جانب
الطبقة البرجوازية - التجار - التي كانت تمتل ببحار المحصورات الابالالة الثلاث -
جنوا ، وبيزا والسندقية (١) وغيرها من مدن جنوب فرنسا كمرسيانية مثلا وغيرها
اذ كانت قد دفعتهم شهوة الكسب (٢) والتوسع التجاري الى المساعدة في ذلك
المشروع الدني في ظاهرة والسباسب الحربي في ماطنه فحاولوا يزيدون عليه
العامل الاقتصادي . على انه بحسب ان تذكر ان التجارة كانت فيه اسر من الزراعة
والصناعة اللتين باعقادتنا نمنا فيما بعد بحكم الظروف اما التجارة فكانت الدافع
الحقيقي الاصيل عند هؤلاء الساهمين منذ البدء في الاستيلاء على المرافى والمدن
وذلك بشاركتهم فعلا في القتال وتزويج الحبوب بالطعمة والاسلحة جميعها والات
الحصار منها خاصة (٣) .

ثم ما كاد ينتهى الدور الذى لعبوه في فتح انطاكية وطرابلس والقدس (٤)
وبقية المدن والمرافى حتى استقروا في البلاد وساهموا في تنظيمها وادارتها بما
نالوه من امتيازات خولتهم حمة السكوت واتخاذ السنودعات والاعفاء من الضرائب (٥)
و (٦) من ١٢٦ و ١٤٤ هـ

(١) انظر ص ١٤٥ هـ - (٢) نفسه ص ١٣١ - (٣) ص ١٣٥ - (٤) ص ١٨٩ رآى

و ١٤٢ هـ - (٥) ص ١٥٨ هـ - (٦) ص ١٣٦ و ١٤٤ هـ

وراحوا عندها يفهمون بالنسبة بين الشرق والغرب متخذين تلك المرافق الشامية
مركزاً لصلقاتهم فيبحثون منها ما يتناوون فيها من غلال الشرقين الأدنى والأقصى
الرمانيون* الغرب في المطالبة وحقوق فرنسا (٧) ومن هنالك كانت تبرز تلك
السلم والضائف والذلال إلى داخل أوروبا . وشرقاً وغرباً وشمالاً . فتتج من ذلك كله
أن ازدياد حركة التجارة في الكرة (٢) عامة وفي الديار الشامية خاصة زيادة
فأنت كل ما عرف عنها في العهود السابقة (٣) ولا عجب فقد تفتحت أمامها أسوار
واقطار لم يكن للشرق القديم عهد بها .

أما في الغرب فكانت حركة واسعة النطاق (٤) إذ انبثقت في أقاليم
النيل وأسالت عندهم اللعاب بلاستيلاً على نزوات الشرق الضخمة كما فتحت أعين
دموية على كماليات في المأكول والمشرب والملبس وقبة مرافق الحياة من حربية
وفكرية واجتماعية لم يكونوا يعرفونها منها إلى القليل (٥) .

ومحمد بنا أن تشير إلى الطرق التي كانت هذه الحركة تتخذها
في الكرة والغرب حتى تنف على الدور الهام الذي كانت تلعبه بعض المدن القديمة
والحديثة في التقريب بين أسب واوربية وربط مجموعها بروابط ثقافية واجتماعية زادت
في دفع الغرب إلى الامام في سبيل التقدم والرفق (٦)

نذكر من المدن الشامية الأربعة ، إذ كانت على اتصال دائم بمدينة
حلب وهذه متصلة بالركة وغيرها من مدن الفرات التي كانت مرتبطة بالمدن القائمة
على دجلة كالوصا وبغداد فالبيصرة على شط العرب . ومن هذه كانت تخرج المركب
العرب بحدار الشرق الأقصى إلى /مدينة مدنه وممالك (٧) .

هذا وكان الاتصال مستمرا بين حلب ودمشق عن طريق حماه وحماة
فطريق الحج الشامي المتصل عن طريق مدن الأردن وفلسطين بالحجاز أو مصر
هذان طريقان للقوافل البرية ، أما المراكب والاساطيل فكانت تكة صور وبيروت بين
أهم المراسي لها في تلك الحركة التجارية الكبرى بحراً . وقد نزل لنا الرحالة
الاندلسي ابن حبير رسالة إلى ما كانت عليه تلك التجارة فقال ص ٢٠٠ = " وفي

(١) ص ٣١٢ هابيد - (٢) انظر ص ١٩١-١٩٥ رأى - (٣) انظر ص ١٨٩ رأى -

(٤) نفسه ص ١٩٣ - (٥) ايضاً ص ١٩٠ (٦) نفسه ص ١٩٢ - (٧) ص ١٩١ ، ٢٠٢

الله لهم (الاسرى المغارة) بدمثة رحلين من مسابر التجار وكرائهم واغنائهم
المنغمسين في الشراء احدهما يعرف نصرتهين قوام والثاني باي الدرباقوت
وتحارنهما كلها هذا الساحل الافرنجي ولا ذكر فيه لسراهما ولهما الامناء من
المقارنين فالقوافل صادرة واردة بينهما ومانهما في الذنى كبير وقدرهما عند
امراء المسلمين والافرنجيين خطير . . . وهو ايضا يشير الى حركة القوافل المستمرة
بين مكة ودمثة فقول ص ٢٨٠-٢٨٢ = " ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاده
الافرنج وسبهم بدخا الى بلاد المسلمين وخرجنا (ابن حبرفوق القافلة)
الى بلاد الافرنج وسبهم بدخا بلاد المسلمين . . . والاصباء والعقابر والتوابل
والخزف الصيني والساحيد والابسطه والفراء . . . ومن المرافق الثمانية كانت تنقل
السيارات والطبوب والاصياء والعقابر والتوابل والخزف والساحيد والابسطه والفراء
وغرها من محاصبا الدرة والدار الثمانية ومنحانها الصلابة الى الغرب (١) حيث
توزع عن طريق الهندية فمر برنر الى كولونيا في الداخل حيث المرافق النهرية
على الراس والموانئ على بحر الشمال (٢) وكانت "تزدحم المدن والشركات التجارية
في القرون الوسطى على طوا هذا الطريق مع لومارد باعلى امتداد نهر الراس

هذا ولم تكن تلك الحركة لتستمر بدون امتداد المنافسة بين الفاتحين
بها من جنوبيين وبيزيين وبنديين وفرنسيين من الجنوب (٣) ان كان التابق بينهم
على امد في اكتساب رضى حكومات الافرنج في مستعمراتهم وقد المعاهدات
معهم طامحا لاحتمار نقل الحبوب والسلع والبضائع ببرائهم هم دون سواهم . وهكذا
ظلت التجارة تسير حالة الحكومات الافرنجية قوة وضعفا حتى اذا ما انقضى العهد
الاول وختم مكارنة حبيب سنة ١١١٧ تاترت الحالة التجارية واخذت تعمل فيها
عوامل الضعف كما اتت فيها اسباب القوة من قبل .

اجل كانت تجارة الافرنج في عهدها الاول سنة ١٠٩٧-١١٨٧ تنقسم
باطراد حتى قد اربابها ذوي نفوذ سياسي قوي دفعهم الى التدخل في شئون

(١) ص ١٣٧ هاید - (٢) تراث الاسلام ص ١١٨ ص ١٩١ رأى - (٣) ص ١٤٢ هاید

الحكام - أولا ثم في امتيازات - ثانيا ما كان في التجارة التي التوا سبب كثرة الحروب فكان لا بد وان تنقل الحركة التجارية وتتركز في مكانة التي تزد بها عدد كبير من التجار القوي وتحدد وفود الدائيات الأوروبية فكان منها - الفرنسي والكنز والبريطاني والاسباني - وراحت جميعها تنحس السبيل التي التفتت بها مما اعاد الي التجارة بعد نهائها الدائم واتساعها ايضا فظهر عندئذ محور ثم سري وطرابلس على المسير من جديد

وما يلاحظ في العهد هذا تدمير السلطات الافرنجية من قناصل

الدائيات - ولا التجارة - وامتيازاتهم فاعادت نقلها منها - بينا في هذا وكذلك راجت تزد الرسوم الحمركية على البضائع المصدرة من بلاد "الكفرة" المسلمين ثم ما لبثت الامتيازات ان تدرتونها من جديد من الدائيات التجارية فكان في ذلك ثالث الامتيازات وكان ماله على جميع الافرنج دون او يفر التجار انفسهم غير ان مع العلاقات الاقتصادية التي تربط بين الشرق وبقية المدين الشامية كدمشق وحلب كما ان بيروت ما عداها استعاد مكانتها واتصالها بالشرق والافرنج حتى عند احدث المواجه التي كانت اساطيل الافرنج تقصدها .

غير ان هذه الحالة لم تدم طويلا ان ما كان القرن الثالث عشر بشارف

ثم انه حتى راسا المسلمين بقيادة بعض السلاطين المماليك امتثال حرم وتلاوي والامرة حلما يقسم الدوائف والنزاع بين الافرنج من تحار وضاعا وسدقات فاحمزا علمهم .

تلك كلمة محملة عن التجارة واربابها في الديار الشامية ابان عهد

المسلمين فيها من الان ماذا نشأ بعلمها من علاقات واربابها من الشرق والافرنج في تلك الاثناء .

فمن ملحقات التجارة النظام الحمركي والرسوم التي تنفها اهل الكوفة

المختلفة عند دخول القوافل المدينة والخروج منها بالسلع المختلفة والذلات والخصومات

وقد نزل لنا ابن حجر مورو حبة لما كان يحدث في تلك هذه الظروف المتطرفة بالبحر

ومعاملاته لا يأت من ارادها قال ص ٢٨٥ "ومعنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر

الذكر وهو الثامن عشر لسنين مدسة عكة . . . ودخلنا الي الديوان (دائرة حمركية)

وهو خارج معد انزوا القافلة وامام باب مصاب مفروقة فيها كتاب الديوان (الموظفون)

من التجارة محارب الانبياء المذهبة الحالي وهم يكتسبون بالعربة ويتكلمون بها ورئيسهم

صاحب الدبوان والضامن له بحرًا بالصاحد - لقب وقع عليه لمكانة من الحطة وهم معروفون به كما يحتشم متعدي عندهم من غير الخند ، وكما ما نحو " عندهم راجع إلى الدخان " . وحال هذا الدبوان سال عظام فانزا النحار رجالهم به ونزلوا في اعلاه والرجاء " من لا سلعة له " لثلا حتى على سلعة مخبوءة فيه واطلق يدله فنزا " ١٠ " ، وكما ذلك برون وتودة دون تحفة ولا حما " . واذا نالنا ما حاء في وصف الرحالة الاندلس راننا صورة متعارفة عما بحما فهو لما مركز للحجر عند الحدود . اما الرسوم المفروضة في البواخر فكانت تسمى " رسم السلسلة " وتدل ضخامتها على مبلغ تقدم التجارة ووفرة ارباحها .

اما المراكز الحربية فسمى منها = الدورم عند الحدود المصرية والحجر الحديد ، بين انطاكية وحلب وكذلك عند حصن المرقب به شاهد راي في القرن الماضي بقايا برج السبع (١) .

اما مقدار ما وصلت اليه ثروات القوم (٢) فيحسن بنا لتقديرها الاستغناء إلى احد مؤرخيهم حين يقول = " ان اكبر ثغور العملة للامارا الافرنجية انما كانت في صور وهكة وارامله وانما كانت عند كانوا يسكنون النفود كادبنار الاصل وقلندا للدنار القاصي وما لمع هذا دنبار ان حما الشعار النصراني بالاحرف العربية وكان السندقيون هم السابقين إلى ذلك في صور لذلك فقد عرف دنبارهم " بالدنار الدور " وقد كان الثوام والصرافيون يتعاملون به تسهيلا لصفقاتهم التجارية وكان منتشر النفداوا في جميع انحاء الديرة . ولما كان اول عهد الاربوس بالنفود الذهبية .

هذا وكان الاطالبيون مع مضامني الداوية والسنارية اسماء اكبر المصارف المالية في عكة وقبصارية وطرابلس . وفي القرن الثاني عشر استعمل البندكتيون " الاوراق النقدية " في المدن الساحلية من الدبار الالهية (٣) . وكانت المدن الافرنجية في هذه الدبار تشتمل على ما يسمونه " الفندق " وهو نوع من " الموصلة " كان يحتج النحار فيه للتداوا بشؤونهم التجارية والمالية .

(١) انظر ص ٢٥٩ راي المشتملات الافرنجية - (٢) ايضا ص ٢٦٣ - (٣) ايضا ص ٢٦٥

وفى ذلك العهد اقيم مثل تلك البضائع فى المدن الغربية وقد ساعد را ببقايا
احداها فى مدينة مابنر وفى مدر آخر على محور الروس وفى غيرها من المدن
حيث تعرف باسم "البورصة" (١٩١٠ رأى) .
وكذلك كانت المراكز الحركية امكنة يجتمع فيها التجار احيانا لعل
هذه الاعمال المار ذكرها .

وقد كان للتجار ا لافرنج كالسندقيين والبيزبين والجنوبيين
والمرسلين فى المدن الدامية عدا المساكن والمخازن "خانات" لانداء بطلتهم فيها .
كما انه كان للتجار العرب القادمين من الشمال المسلمة لمدة قصيرة فى المدن الافرنجية
"خانات" يقيمون فيها وهذا ما بصر به ابن حبير وهذه الخانات كانت احيى ثم "بخان
اسعد هاشم فى دمشق وخان انطون فى بيروت او خان الفرنسيين فى صيدا وخان
الخلبا فى القدس .

ويظهر ان "الصرافة" كانت من احتصاص الايطاليين واليهود
فكانوا يواصلون البيوتات التجارية والمصارف الكبرى فى جنوا والبندقية وفلورنسة وبيزا .
وكان اوراقها جميعها "مقبولة" فى الاسواق التجارية الكبرى على السواحل الدامية
واخيرا لم يبق نمونتك التجارة بعد طرد المسلمين من آسيا
با عند اكثر جمهوريات ايطاليا مع امراء المسلمين معاهدات تجارية وكانت صلات
البندقية التجارية الوثيقة بالشرق سمدعافتها حتى الحرد تقدم تلك التجارة مع الزمن
ولم يضره امرها الا بعد اكتشاف الطرق البحرية الجديدة وانتقال زمامها الى ايد
اخرى (١) .

بهذا نكتفى فى الناحية الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة
لنتقدم الان لدرس الحالة الفكرية .

الحالة الفكرية في الدبار الثمانية وما انفاد الافرنج منها

این

الحروب الملهمة

رايضا في صفحات سابقة ان قد شهدت الدبار الشامية حثبة الحروب
 الصليبية حركة علمية مباركة كانت تتحول في مدارير مدنها الكبرى كانيطاكيا وطرابلس
 والقدس ودمشق الا ان هجمات الافرنج في اواخر القرن الحادي عشر قد خمدت من
 قوتها وان لم نستطع ان نطفو حذوتها ويكفي ان نذكر ما اقترحه القوم في طرابلس
 من ^{طرابلس} ~~الحكم~~ مكتبتها الكبرى التي النيران حتى يحرق الالم في نفوسنا ونذكر ذلك الاثر
 السوي الذي تركته تلك الحروب في مستهلها على الحركة الفكرية عامة والعلمية منها خاصة
 غير ان الامور ما لبثت ان تضررت بعد ان استقر القوم في ملكتهم
 وملحقاتها ولم لهم الاتصال بالشاميين في الساحل والداخل فاخذوا عندها
 يتذوقون ما عند العرب من آيات العلم والفن والادب فتنطورت نظريتهم وهذه
 نورهم وراحوا ينقلدون ما عند الاهالي من مظاهر لا اجتماعية كما رايضا وانظمة
 ادارية وعناصر فكرية ١ وهذا ما يصوره لنا كتاب الحصر من افرنج وعرب قداما ومحدثين
 ١/ ومن ذلك ما يلو = " لقد انتشرت معارف الشرف في الغرب بصورة خاصة من طريق
 الحروب الصليبية تلك التي استمرت منذ القرن الحادي عشر حتى الرابع عشر تقريبا
 فجمع بين المتحاربين والتحارب من الافرنج ضد المسلمين - ثم رثيتم (١) ولذلك برهانا
 آخر على ما قررناه = " نحن نجد بين فرنجة فلسطين اول اطلاق دائم للعناصر الشرقية
 والارمنية في اغلب ميادين التقدم الثقافي (٢) لذلك بحسب اعتبار تاريخ الحروب الصليبية
 " فضلا في تاريخ الحضارة " في الغرب اكثر من اعتبارها حركة اريد منها توسع السلطان
 الغرب او نشر لدبائنه في الشرق (٣) وقد ظهر في المجتمع الافرنجي الشاب
 الحديد ثقافة كانت في اكثر عناصرها جديدة تقوى اية ثقافة اخرى في ذلك العهد
 وكانت نحمل بين طياتها بذور النهضة (٤) وكانت التجارة من العوامل التي جعلت بعينها
 الثقافة في الدبار الشامية تنسرب الى اوروبا بحكم الواقع واتصال الافرنج بالمسلمين (٥) وبذلك
 تكون الحروب الصليبية قد قامت مقام التعليم الحر لاروپا (٦)

(١) هـ.ل. سافاج - تراث العرب ص ١٩٩ - (٢) تراث الاسلام ص ١٠٢ - (٣) باركر فو تراث الاسلام ص ٩٨ - (٤) لامونت تراث العرب ص ١٦١ - (٥) حتى تاريخ العرب ص ٢٦٢ - (٦) روميه مقدمة لتاريخ غربي اوروبا ص ٢٠٠ - (٧) راحر في المستعمرات الفرنجية ص ١٧١

فلم يستطع الفلاس من الافرنج اذن ان يفتقروا بنحوه من الانحراف بهذا
النهار الفوق للحركة العلمية فراحوا بادى "ذى يد" يحسون من مثالها جميعا وحاجة
من الدلائل والاشياء (١) فنسج منهم - فوفقوا عدة نسج منهم - بوحنا الابلنجي وحيوار
المونريالي وطلسا. ثم ما لبثوا ان تقدموا من الحركة العلمية فراحوا ساهمون فيها
وقد اشتهر عند العرب في سورية ومصر خلال القرن الثاني عشر وقد كان للسرمان
بحكم الرابطة الدينية - اكبر الفضل في تعريف الافرنج بقلة الحركة الثقافية ولا عكس
فقد كانوا من قبل حفظتها ومذيعيها يسر الاب لاضر بعد. السرمان الذين قصدوا
الى اوربية واستقروا في بلاطات بعض الملوك كما كان البعض الاخر منهم تنساون
بين العلماء من العرب والافرنج .

وكذلك فهدى باركر تعصباً - "ان الحروب المسلمية قد اسدت
للافرنج منافه اثر بفناء اتصالهم بالفسادات التي مما اسدت لهم بانظلمهم بالمسلمين
في الشر (٢) بدون اي دليل بورد .

وما حاه في كتاب فيليب النافاري عن ابن رينو صاحب صيدا "انه
كان متعصفا في معارف زمانه " كما يذكر تليم الصور " ان جيوغرافي رئيس " هكل السبد
كان من المتعصبين من علم الرمز في الار بل كان احد مشاهيرهم الفار فيها (٣)
اما المدارير التي كانت شائعة ان ذاك فلا بأس ان نعتبرها من نوع
المدارير التي عرفها رينان بالمدارير العربية - الصائبة (٤) وليس غريبا ان نعدد بد
التدريس للفلسفة الشائعة في جامعة باريس ثم بين سنتي ١٢٢٠ و ١٢٢٥ م كما حاه
لحوردان مؤلف كتاب " مترجمو ارسطو " .

وجاه للمؤرخ العرب المعروف بالفريسي " ان العلماء والعرب من الداهيين
في القرن الثالث عشر كثيرا ما كانوا يستشارون من قبل الافرنج في اقسام تنك في الطب
والفلسفة والرياضيات (٥) .

وقد تسال عن اللغة او اللغات التي كانت شائعة ان ذاك في مملكة القدر
وملحقاتها فالاب لانس يقول بهذا الصدد - " لقد نادت اللغات من اكثر بصر

(١) راي في المستدراك الفرنسية ص ١٦٦-١٦٨ - (٢) نواب الاسلام ص ١١٠ (٣) راي ص
١٢٢ - (٤) نفسه ١٦٨ - (٥) ايضا ص ١٧٣ - (٦) ص ٢٦١ من "سورية تحف تاريخي ج ١

بحرية امتلكت علوم حربية لذات أوروبا الغربية والاقطار الجنوبية وبعدها منها (١)
اللاتينية . وكانت لغة الكنيسة والدولة امينا . (٢) الفرنسية . لغة البارونات العامة
(٣) الايطالية . لغة التجار والتجار المحترمين في المرافئ . (٤) وكان الكثيرون من
سادة الاقالات - فضلا عن المولدين - قد اتقوا اللغة العربية وذلك لانهم مع
انما اتعاهم من البلدان وللادارة والتجارة . ولعل اذا الاختلاط بين مختلف اللغات
قد احدث تبادل الكلمات بينها ان اتنا حتى اليهم نحد كثيرا من الكلمات العربية
في اللغات الاحفنية في غرب أوروبا تشهد بقيام الحروب الصليبية منها ما يتعلق
بالتجارة والملاحة ومنها ما يختص بالفنون والصناعات والعلم (١)

ومن اقبلوا على دراسة اللغة العربية والاطلاع على تاريخ العرب
من الافرنج رينو الصبدانو (٢) وبفينا بها الدين ايضا بقوله " وكان يعرف
العربية وعنده اطلاق على شيء من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له
ويفهمه وكان حسن المحاورة ومناظرا في كلامه . ومنهم ايضا الامير همفري سيد
تنبين اذ كان ترحمان ريدار الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما
قرب ارسون ثم قرب باقا سنة ١١٩٢ م وقد قام بنصر المهمة ايضا بلطون الابلنو
للقدسي لومر التاسع في ايام اسره في مصر (٤) .

وكذلك اقبل بعض الدارسين على التسليم من اللاتينية . ومنهم الحكم
نادري البطالي البغدادي النحلة فقد احكم اللغة السريانية واللاتينية بانطاكيا وشدا بها
سبعا من علم الاوائل (٥)

ومن اثار الحروب الصليبية في هذا الحقل " ان دراسة اللغات الشرقية
قد بدأت مع البعثات النصرانية الى الشرق وان المبشر راي ^{مسلكه} ~~بوتروبوليس~~ قد جعل المحنح
الديني في فيينا بفتح ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية في أوروبا سنة ١٣١١ م .
وكان للاداب الغربية تاثيرها في بعضهم حتى استوحاها بعض شعرائهم
وكتابهم (٧) ودلبناعلو ذلك ان بعض شخصيات الصليبيين كفودفرو وناكرد قد اخذت

(١) باركر نراث الاسلام ص ١١١ - ١١٢ / غروسبي (٢) تاريخ الحروب الصليبية
ومملكة القدس الافرنجية ص ٨٣٣ ج ٣ - (٣) سيرة صلاح الدين ص ٨٠ - (٤) راي
المستعمرات الافرنجية ص ١٧٢ - ١٧٣ - (٥) ابن العسري . مختصر الدول ص ٤٧٧ -
(٦) باركر نراث الاسلام ص ١٢٤ - ١٢٥ - (٧) لويون حضارة العرب ص ٣٦٧ .

موضوعات قصص للشعراء الحوالين الذين كانوا ينتقلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والأمراء وكما اخصب التوسيع في المعارف الفكر العلمى عندهم كذلك اثر في الخيال الشعري ايضا (١) فما لا شك فيه ان اسطورة "الكافر المقدسة" تتضمن عناصر ترحمة بلا ريب ، الى اصل سامي ، اذ لا بد وان يكون الصليبيون مؤملون قد سمعوا بعد قصص الف ليلة وليلة او كليليهمولومفها مبثا فان حكاية السنجاب للتشوسر *Le Chevalier au lion* من حكايات الف ليلة وليلة وكذلك فقد اثير بوكاشيو من مراجع سماعة "الحكايات الزرقية" التي توضعها كتابه *Decamerone* (٢)

وبما بلغت النظر توسعهم في الدمر بسبب الحروب الصليبية فان قصائد جديدة عديدة نظمت في تاريخ الصليبيين كقصيدة كبرواز الانكليزية التي نصف لنا الحملة الثالثة وقصيدة اغنية انطاكية (٣) *Chanson d'Antioche* (٤)

وسرعان ما استحال قضية الحروب الصليبية في الزرب من تاريخ الى اسطورة وذلك منذ مستها تلك الحروب وقد تمتل في "اغنية الضعفاء" سنة ١١٣٠ م . . . *Chanson de l'Épouse*

واذا انتقلنا من الاداب الى التاريخ رابنا ان هذه الحروب

الصليبية قد خلقت لنا من المعلومات منه طائفة كبيرة . ومن بين مؤرخيها من

الفرنسيين ذلك التورماندي الذي لم يشا ان يسم كتابه "حركة الفرنج" باسمه فوصف

لنا فيه الحملة الاولى (٥) وكذلك فوشيه ده شارتر *de Chartres* صاحب كتاب *Hierosolymite*

ويصف فيه تاريخ مملكة القدس حتى سنة ١١٥٧ م . ولضنا بناسين غليم الصري وسمنه

الطرابلسي وكلاهما ولدا وتربيا في البلاد الشامية . اما الاو فله "تاريخ فيما وراء"

البحار" *Le Livre des Mers* وهو ٢٣ مجلدا تناول فيه الحوادث حتى سنة ١١٨٣ م .

وقد اصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية اهم مرجع لقص الحروب الصليبية

ولم يهتم صاحبنا بتاريخ الافرنج بحسب بل ألف ايضا تاريخ "الامراء المسلمين منذ ظهور

النبي "

(١) الامم والبلدان في تاريخهم ١٢٧١/٢٢٨١ تاريخ الامم والبلدان

(١) باركر نوات الاسلام ص ١٠٣ (٢) حتى حاضرة العرب ص ٦٦٣ (٣) باركر نوات الاسلام ص ١٢٢

(٤) باركر نوات الاسلام ص ١٢٧ - (٥) نفسه ص ١٢٥-١٢٦

وهناك اثار فيه ما تزال محفوظة في مكتب غليم الطرابلسي السوي بـ "مكتبة
حالة العرب" سنة ١٢٧٣ . وان ما تحلى به الصوري
من سعة الاطلاع وروح النقد والوقفة في تحري الحديقة لجعله يستحق كل تقدير (١)
هذا بعض ما خلفه لنا الكتبة من الافرنج اما العرب فقد خلفوا
لنا ابطا مؤلفات لها قيمتها في دراسة هذه الحقبة من تاريخ الديار الشاميه والافرنج
فيها ، بينها (١) كتاب الاعتبار* لاسامة بن منقذ وهو يتناول تاريخ القرن الثاني
عشر كله و (٢) كتاب تاريخ الانباكة لابن الانبر . و (٣) كتاب سيرة صلاح الدين لبها*
الدين المعروف بابن شداد (٢) وغيرها .

وما لا ريب فيه ان الجغرافية كانت احدى الموضوعات التي عني
بها الصليبيون اكثر من سواها (٣) اذ كانت مؤلفات الفلكيين والجغرافيين الهامة
مع علاقات الملاحين والتجار وقد اهابت بالفرنج الى دراستها (٣) وباستطاعتنا ان نعتبر
ان الخرائط المعروفة بالسوقية والتي وضعت خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر
هي اولي منتجات القرون الوسطى في اوربية في هذا الفن وانها انت نتيجة للمعلومات
المكتسبة من الشرق خلال الحروب الصليبية (٤) .

ثم ان المخطوطات اللاتينية المرفقة ٤٩٣٩ في المكتبة الوطنية
بباريس ويرجع عهدا الى سنة ١٣١٠ م تتضمن خارطة لنصف الكرة الارضية واثنين
اخرتين للارض المقدسة مع تعيين المسافات بين كل موقع وآخر وهذه الخارطة العالمية
قد تاخرت بظهورها عن خارطة (مسكس) باحدى عشرة سنة اذ قدمها للبابا
جان الثاني عشر سنة ١٣٢١ (٥)

وهناك اطلال لبنو لبسكونتي وهو يخوى على سبع خرائط محفوظة
في متحف كورار في البندقية يرجع تاريخه الى سنة ١٣١٨ وتحتوي على مجموع البحر
المتوسط وما بعده له الدقة في التفاصيل مع صحتها ولا سيما فيما يختص فيها
بالساحل السوري - الشامي - وجنيرة قبرص وغيرها .

(١) لامفسر - سورية ص ٢٦٠ (٢) باركر تراث الاسلام ص ١٢٦ . ١٢٧ - (٣) راي ص

١٧٢ - ١٧٤ (٤) نفسه ص ١٧٧ - (٥) نفسه ص ١٧٧

وبوجود في مخطوطة اخرى محفوظة في مكتبة الفاتيكان بحث مرقوم

١٩٦٠ بعدد تاريخه الى مطلع القرن الرابع عشر كما انه يوجد عدة مصورات ايقونية من القدير ومكا وانطاكية فيها خرائط للارض المقدسة وتوجد خارطة اخرى تمثل ايطاليا وثانية تمثل مقاطعتي نابولي وصقلية وثالثة الاراضي البندقية وكلها تسترعى النظر بدقة الحسابات والسلوب العمل فيها (١) .

واخيرا بحسن ان تشير الى ما جاء بهذا الصدد على قلم هامسكز

وهو " انه اذا كانت الحروب الصليبية قد زادت في معلومات اوروبا النصرانية في الجغرافية فان ذلك قد تم عن طريق التعارب العلمية لا عن طريق الاطلاع على كتب الحذرافس من العرب التي كان العرب يحملها حتى دار الزمن (٢)

عذا ولم تكن غلبة القيم بالفنون العجيلة لتقل عنها في الاداب والادب فقد كان تأثير فنون العرب بالافرنج كذلك عليهما ان نشأ عن هؤلاء الصليبيين ضروب منتجات الشرق المعتمد من الفسطينية الى مصر فدوائهم الخشنة (٣) .

اما فيما يتعلق بالعلم الدقيقة ومقتضى العصر فان لوين يقول

انها كانت ضعيفة وذلك بفقدانهم (الافرنج) العالم (٤) الا ان راي بغير شك ذلك ان يقول " ولما كان للربعة والا لاء والتاريخ من لغات بها من الافرنج كذلك كان عدد كسرين الثلاثة ينسب قد تضافوا الى العالم الدقيقة ايضا ان انما تضافوا في سنة ١١٢٩ م بناء الى حربية في قوس يتم تحت ادارة وتنظيم أنصوري

لمحاوية الصعوبات في ذلك الحصار (٥)

واحد علم الرياضيات قد قور عند الافرنج بعمل الاندلسيين اولا

وفي الارز ثانيا اذ ان العالم الاول في الجبر وهولوناريه بيواسي كان قد طاب سورية ومصر وكان هذا العالم معاصرا لفردينا الثاني وقد قدم له كتابه في الاعداد المربعة ولا يستبعد ان يرتب القضا في ذبوه الارزالم المربعة ولم الحذب الى التجارة التي راجت بين النذور الابالية والديار الشامية (٦) .

(١) نفسه ١٧٨ - (٢) حاشية رقم (١) من ص ١٢٥ الى تراث الاسلام هامسكز .

(٣) - لوين حاضرة العرب ص ٢٦٧ - (٤) نفسه ص ٢٦٧ (٥) راي ص ١٧٣ -

(٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٣ .

ومن المتكلمين العلوم التي عرفت ان ذاك علم النبات وقد اشتهر به ابن البيطار الاندلسي في القرن الثالث عشر وكان في الشرق في سنة ١٢٧٠ م فزار انطاكية ومصر ثم استقر به المقام في دمشق لدى السلطان الملك الناصر وكان لبنان ميدان دراساته عن الحشائش فرسمها له رسام كان يرافقه وهي في مختلف حالاتها وبألوانها الطبيعية (١) وهناك نباتي آخر هو رشيد الدين القزويني ولد في صهر سنة ١١٧٧ ودرس في دمشق ثم ما لبث ان ناصر ابن البيطار في علمه وقد اتخذ نباتات وحشائش بيروت وطرالمر وانطاكية ولنا به موضوعا لدراساته (٢) . . اما فيما يختص بالتاريخ الطبيعي فقد كان جالا دونقري الوحيد من مؤلفي الافرنج الذي نال له بعد المعلومات فيه (٣) . غير ان تعصبه ضد الثوريين جعله يفتو غريبا عن الحركة العلمية المنتشرة ان ذاك . . وتذا معلوماته عن الحيوان والنبات على سعة اطلاعه من جهة ورغبته في تدوين الدقة وكذا فان في وصفه للحجارة الكريمة ما يوحى بالدقة فائقة . وسندل من كتاباته انه قد درس ودقق في كتب علم المعادن الطبية ان انه قد وفد على خصائص الحجارة الكريمة التي لفت الانتظار في الغرب حتى ابلم النهضة (٤) . . واما ما كتبه بشأن البناء الحارة فبدأ على معلومات مبهمه وخاطئة احيانا (٥) .

وكانت مدينة طرابلس إحدى المراكز المحركة للعلم الهامة ان ذاك تسم مدارم مزدهرة توافرها الثروات من حصد الانتظار المحاوره ويدرسون معها على اساندهم رقيقين لهم شهورتهم الذائعة الفلسفة والطب وقد بقا اسطفاق الارطاكى - المولى الامام الى اللاتينية كتاب المحرم في الطب ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذي عرفناه حتى الان ان الافرنج قد نقلوه (٦) . . ويظهر ان هذه المصنفات النادرة - مهنة الطب - ظلت من اختصاص البعاقمة من النصارى فكان لاطباهم مكانة مرموقة عند امراء الافرنج ورجال الدين منهم اذ كان يعهد اليهم مراقبة الصيدليات ومتاجر المطاطين - العقاقير - وكان الاطباء

(١) رأى من ١٨٥ (٢) رأى من ١٨٥ (٣) رأى من ١٨٥ (٤) رأى من ١٨٥-١٨٦

(٥) نفسه من ١٨٨ . (٦) حتى تاريخ العرب من ٦٦٢

في الديار الثمانية عهد ذلك ينتمون الى جميع الاجناس والاديان ما عدا الافرنج (١) ويكفو ان نرجع قليلا الى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ لتري الفرق التي بين طب الافرنج وطب العرب اذ ذلك . وهاك نموذجاً منه . ومن عجب طبهم ان صاحب المنبذرة كتب الي عبي بطلب منه انقاد طبيب بداو . رضى من اصحابه فارسا اليه طبيباً نصرانياً بقا له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له " ما اسرع ما داويت المرضى " قال " احضروا عندي فارسا قد طلعت في رحله دملة وامراه قد لحقها نشاف (٢) . فعملت للفارس لبخس ففتحت الدملة وصاحت . وحملت المرأة ورطبت مزاجها . فقامهم طبيب افرنجى فقال لهم " هذا ما يعرف في (كذا . عابنه) بداوسهم . وقال للفارس " ايما احب اليك تعيد برجل واحدة او نوب برجلين " قال " اعيد رجل واحدة " قال " ادعوا لى فارسا ثوباً وفاساً غامعاً " . فحضر الفارس والفاس وانا حاررنا ساقه على ثوبه خشب وقال للفارس " اسرع رحله بالفارس ضربة واحدة اقطعها " . فضربه وانا اراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية مسال من الصاق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال " هذه امراه في راسها شيطان قد عذقها . احنقوا شعرها فحلقوه . وادعوا ناك من مالهم " ثم والحرق فزاد بها السماد . فقال الشيطان قد دخل في راسها . فاخذ الميسر وادق راسها صنبا وسلمه وسطه حتى ظهر عظم الراس وجنحه باليد فماتت في وقتها . فقلت لهم " بقى كم الى حاجة فقالوا " لا " لجئت وقد عمليت من طبهم ما لم اتن امره (٣) .

وكان للطب فروع عدة تلحق به . كطب العيون والجراحة والضمير والحجامة وغيرها . وكان جميع متعلميها كالطبيب والصيدلى تحت مراقبة المعسب (٤) ومن الفروع التي اهتم لها العرب في مطلع القرن الثالث عشر " الطب البيطرى " . وتعذر علينا معرفة مقدار ما اولاه الافرنج من عنايتهم غير انه باستطاعتنا ان نحكم ان الساطرة - من حذائبيين ومدادين - كانوا مسئولين عن الحيوانات

(١) الامم مورو - ١٤٥ - ٢٤٦ - (٢) نشاف فارسية بمعنى الجبل - اسامة عن ١٢٢ حاشية رقم ٦

(٣) اسامة كتاب الاعتبار ص ١٣١ - ١٣٣ - (٤) راي المتعمرات الفرنجية ص ١٨٢ .

الموكول بهم امر تطييبها . (١)

وكذلك كانت " الصبدلة " جزءا لا يتجزأ لعلم الطب إذ كان الطب نفسه يحضر الدواء . وكانت الجوقات الطبية تدهظ وفي حال موت المريض تقدم اليه رئيس الاطباء ليرى ما اذا كان فيها تغريط او افراط من قبل المريض (٢) وما بدا على عناية القم بحقوق الناس " ان الطبيب كان مسئولاً عن حياة مريضه ورفاهه كما انه مسئول ايضاً عما قد يترتب الداء من تاتيسر ونتائج (اذا ما نتظر به قوانين المملكة اللاتينية) وكان من حق الطبيب ان يبرهن لدى المحاكم ان المريض لم ينتد في تناوله الدواء بتعليمات الطبيب وان سبب ذلك قد هلك . فاذا ثبت امانة الطبيب لموت " الفن " بتكليف بدفع تعنه واذا كان المريض افرنجياً من الاحرار كان بالامكان لشيخ الطبيب ومصادرة املكه (٣) ويظهر ان الاطباء كانوا متعهدون بشفاة الاحرار . قد اختبر ذلك بولول لدى زيارته لدمشق في سنة ١٥٤٨ اذ كانت العادة ما تزال مربعة الاحرار عند الاطباء الشاميين (٤) .

وكانت قوانين " المملكة اللاتينية " تنظم حالة الاطباء في المستعمرات الافرنجية في البلاد المقدسة . من ذلك انها لم تكن تسمح لاي طبيب وفد الى البلاد بمعالجة المعالجة فيها قبل ان يودى امتحاناً بحضور القضاة اطباء البلد في مجلس براسة الاسقف (٥) .

ويظهر ان الاطباء كانوا يتمتعون باحترام كبير إذ ان ابن العبري، يذكر ضمن بذكر منهم مختاباً ، اسقف حلب المعنوي الذي، بعد ان اعتزاً منصبه الديني وفد على طرابلس وبقي لديها حتى نوافه الله ، بعلم الطب وكان محاطاً بالاجلال والاكرام من رجال الدين وطبقة الاسراف (٦) .

اما مراكز الدراسة للطب فكانت انطاكية وطرابلس والقدر ومن اساندها المشهود لهم بطوار الباع تيودور الانطاكي طبيب فردريك الثاني الخاص واسمير النحلي

(١) راي المستعمرات الفرنجية ص ١٨٣ . (٢) ايضاً ص ١٨٢ (٣) راي ص ١٨٢ - (٤)

نفسه ص ١٨٢ (٥) ايضاً ص ١٨١ - ١٨٢ (٦) نمر المرجع المذكور ص ١٨١ .

ومعقوب النسطوري الطرابلسي . اما ما نطالعُه في مؤلفات المؤرخين من افرنج
وهرب " ان الطائيف كان في المستعمرات الافرنجية من اختصاص الوطنيين ورجال
الدين من المعاقبة السريان خاصة . اما اطباء الغرب فكانوا دائما منحلين من
زملائهم الشرقيين (١) .

ولما كانت المستشفيات والمصنوعات ولا سيما المحتص منها بمعالجة
الفقراء والتجاذيم قد انتشرت في أنحاء اوروبا ابان القرن الثاني عشر بعد انا
ان نفير ان تأسست المستشفيات على تلك الصورة المنظمة قد وجدت تشابها
لها من الشرق اسلام (٢) كما انما نستطيع ان نفهم ايضا افتتاح مدرسة الطب
في موديليه بالاغصاء التجارية التي كانت تتبادل بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر
الزهر الشرقية . هذا ما يقرره باركر (٣) .

لقد انشأ جنو الان على ذكر ما تم من انطلاقات فكرية عن طريق
الذوات والآداب والعلوم فنقل كلمة في *الانفصال* الفلسفة تشبه للحدود . يظهر ان
الافرنج لم يقبلوا على هذا النوع من الدراسة بدليل قلة ما ورد عنها في كتبهم
لذلك العهد . ودونك ما عثرنا عليه بهذا الصدد وهو كما سجدت في لا يتقيد
تليها ولا ياتي من احوالنا المذكور من سنة ١٦٦٠ من تاريخ الحرب واثان
فيليب الرابع الذي قد عثر في المخطوطة العربية لكتاب "سوانسوار"
ومال اليه النوا بان ارساها كان وضع هذا الكتاب لطيفه الاسكندر المقدوني .
وقد نقلها فيليب المذكور الى اللاتينية تحت اسم
الحكمة العملية ولم يصورها . وكان هذا الكتاب من اتم المراجع انتشارا في القرون
الوسطى . وهذا المارة اخرو الى الانتراب من الفلسفة دون الاخذ بها والتعمق
بدراستها . من ذلك ما جاء لقروميه من ص ٤٣٠-٤٤٠ الجزء الثاني قوله عن
بلدوين الاول " لما كان بولدواي في سورية كثيرا ما كان يظهر ميلا خاصا لبحث

(١) راء، ص ١٧٨-١٧٩ - (٢) جنوبي تاريخ العرب من ٦٣٣ . (٣) نزاد الاسلام

المسائل البلدية ودونكم مثلا واحدا يدل على ميله الفلسفي " فيما كان يوما
بلازم قصره في مدينة صور بسبب وكعة المت به ، استدعى اليه الاسقف - غلبوم -
وطلب اليه ان يسرد علم سمعه البراهين والحجج التي تدل على غنود النصارى .
ولما بسط الاسقف له الحجج المستنوية من " الكتاب المقدس " اعلن الملك انها
غير كافية معترضا بان " الكفرة " يرفلون بها مقدما .

هذا وانا لنقر لباركر ص ١٣٦ من تراث الاسلام قوله " وعلى

كل حال فقد اظهر العلماء استمدادهم بالاخذ عن فلاسفة العرب

الى هنا تكون قد اتينا على ذكر العلاقات الاجتماعية والفكرية

عند العرب والافرنج في سورية (الدبار الثانية) بقي علينا ان نقول كلمة عمدا
بنتم عنها من علاقات عامة في موطنها ومصادر اثنا اربعة وهو ايرانية الفرس التي
اخذت بها لذلك نقول = ان الحروب الصليبية قد تركت اثرها في نصارى غربي

ايرانية من نواح اربع وهي = (١) فقد اثر في التنسنة وبالتالي بالباوية .

(٢) كما اثر في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك . واستدلنا ان
نقدري هذا التأثير حيث نراه في سر اتمال الدولة وفي مركز الخلافة والموام

وانتشار (٣) فاننا نشهد ذلك في العلاقات الخارجية عند الدول المختلفة من

كث ٣ دولة لحدسها أولا ثم من غير الشاور العام لاجداد جميعه من دول ايرانية

(٤) لقد اثر هذه الحروب في علاقات ايرانية جميعها - رغم لسانها الباطنية -
فلنفصلا ذلك فيما يلي -

(١) لقد كانت الحروب الصليبية - رغم مكائفة الباطنية منها - من

التدمير التي هلت على تنوية الروح المعنوي واللاه كلفة السلطة المدنية بدلا من

السلطة الدينية التي سبقتها مادي ذي يد ففدا عن ذلك التلمح والروح المعنوي .

(٢) اما فيما يتعلق بالحكومات - فقد اهر بها جميعها في جديده

من التمرات التي لم يكن لهم عهد به حتي لقد قبل " ان القرائن الحديثة نشأت

من حاجات الارض المعقدة " اضرب الي هذا اثر الحروب الصليبية في انحلال الاقطاع

وفقدان امراك مركزهم الاجتماعي ثم ظهور البلديات واستقلالها وكذلك فان هذه الحروب

نوسعها التجارة قد اثر في نمو المدن عامة وموانئ " الجنوب خاصة ان في فرنسا

او هو ابطاله ولنفكر ان العظمى المولى الداخلى الذى كانت تمتاز به تحارة
البندقية فى الرين الى البحر البلطى وبحر الشمال .

(٣) لقد اوجدت الحروب الصليبية رابطة جديدة بين الدول
الاوروبية ما تزال حتى اليوم تخدم فى كثير المحاولات لاجاد كتلة ضد الغرب
(المسلمين) اثر الفكرة الصليبية باقيا .

ومن آثارها ايضا ان انتقل التوازن الدولى الى غرب اوروبا
وكان لفرنسة الفتح المملوكى وبذلك الحروب برجع الفتح الى رفع مستوى فرنسة
الى ذلك المقام هو القرون الحديثة ولا عجب فان اول نداء قد وحه من احاد
الحروب الصليبية كان من فرنسة واول من لير النداء فرسانها .

(٤) واخيرا نستطيع ان نقرر بدون تردد ان الحروب الصليبية
قد اعطت اوروبا نظرة جديدة واسعة للعالم تلك النظرة التى صاحبها نهوض
حركة الارثوذكس والاصرار الاستعمارية من الدولارات الجغرافية فالانسان الى العناية
بكا آسية وقد بدأ عصر الاستكشاف الاسيوى منذ ١٢٢٠ م وانتهى بعد ذلك بقرون
وهو يواز باهميته الاستكشاف الامريكى وكان العاملون فى هذا رجال دينيون
منحسبون وآخرون تحار طامعون على ان يدائرة الاول باث الفتح والى الثانية
فكانت حجر الزاوية فى الاستعمار الحديث .

هذا ملخص عن باركر فى نوار الاسلام من ١٣١-١٣٢

الخلاصة

عندما قررت ان يكون موضوع اطروحتي " الحروب الصليبية وما

نتج عنها من ملامات اجتماعية واقتصادية وفكرية من العرب والافرنج " سررت
في التفكير فيه ، وما كدت اخطو الخطوة الاولى عمليا حتى اخذت الهواجس
منى ودت في ناسي مسرعة من التيهب والخشبة . ذلك لان الموضوع حديث
والطامة الى تحدي الهدف منه . فلو اننا ^{ان} شطاب مسيودا متواءمة واتحدا متتالية
هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهناك المعلومات عنه متوفرة وعلى هناك من
الحقائق ما يجوز اتخاذها لبنات لتشييد بناء .

ومرة هذا او ذاك عندي الى الخطوة التي اعتدنا ان ننظرها الى

هذه الحفنة من التاريخ نحيلنا ما اعلى هوامشها من ادعاءات وابطال
وما قد نشعر عنها من اهلاك وتفتيل لموال قريين من الزمن فتبدو لنا الامور
قائمة والحياء مسودة ففسر ان التاريخ يمر بحوادث متناثرة بل ان له لغابات
الحد وامر يجدر بنا ان نتوجه اليها وان نفقد اليقظة بواطنها حتى نتعلم
الدقائق واضحة وتبدو النتائج ناصعة في مجرى التطور في المجتمع والاقتصاد
والثقافة وهذا ما لم ان احسب ان السبيل اليه معبد .

ولكن ما ان دخلت الخطوة الثانية حتى وجدتني ازداد للموضوع
تعديفا وللدقائق تفهما وللمظاهر التطور في حياة الافرنج نبيها ، فادركت عندها
ان ما قد يبدو شرا فيه خير كثير وان محركات التطور لا تقتصر على الظاهر
الامور ولا تعبها بالتوافه فيها بل انها لتخطط لنفسها طريقا تسير فيه حتى
تجد اعزها قد لا تراها نحن البشر الا فيما بعد . وعندها تشكفي امامنا
عوامل حجة تعمل للصالح العام دون ما نظرة حيدة الى هذا او ذاك
وما تلبس الامعاء ان شئنا ، افكار ان نتحدث عن الحياة بمجموعها ان نتطرق
فتنقلب الى ما فبسه الحق والخير والحماة لشي الانسان .

لقد قتلت الحروب الصليبية بيما رمت الباسية اليه وفيما امل الملك
والاسراء فيه ولكنها اتت بما لم يات على فكر احد . ثم ترفى فيها ، لاول وهلة ،
من سرور ومكابد ودماسير وكيف تتحلى الناس اسيرا فتتبدى الحقائق واضحة

فيما اراده التطور ان يكون من تبدل او تقدم ورفق .

فكم من شعوب وقبائل في اوروبا كانت ترمف في قبود انقطاع
بحول بينها وبين الحرية الاجتماعية . وكم بد ام كانت تعفو لسلطنة
دينية يضيق صدرها عن الاتساع للافكار الجديدة فتزهدا فهذا على
قبودها وتحول بينها وبين التطور الفكري فتبقي " رهين المحسنين " الانقطاع
والكبسة " كحنى اذا ما شئت تلك القوى الرجعية النمط في الشره رغب
في التسلط على اقطاره ، اقالمه وارادت التفتيم حرافق الحياة فيه ، اهابت
بتلك القبائل والشعوب والام الى الميرنحت رابضها . وما ان وطئت
اقدام القوم تلك البروج واعتكت جموعها بشعوبها حتى وجدوا انفسهم وجها
لوجه امام ثقافة بهرت منهم العيون وادمدت منهم العقول فهزت مذاهبهم
المشاعر وحملت منهم النفوس .

وقد يكون الموضوع بعد ذاته يكررا بالانفاة البناء ، أسسا
الذين وقد استفدوا كل جهد في الانباب على مراجعه وتبين حقيقة
اثره فعبدوا لنا الطريق بما اعدوه من المؤلفات اعتمدوا فيها على
الاراجم الاصلية من شرقية وغربية ودللوا لنا الصواب فيما جمعوه ونقحوه من
تلك المخلقات . فلا يسمع الواحد منا ازا ما يتلق عليه في هذا الحقل
من المادريت ونصف ولا حبس القوم وعنايتهم لانشائها ، التلبي ولاعاضها
الحبل والامال اقول لا يسمع الواحد منا ازا لك ولا ان يكون لهم
من الشائرين فهنا حقة من الرجالين ، وهناك ثقة من الكنية والمؤلفين
تجاد تدار فيثورة ما خلفوا لنا وتنبه . أناخذ ما عند الالمان ^{او} ما
احسن ما عملوا في سبيل الشرق ودرامشه درسا عبقا ننظما ام نكتفي بمسا
خلفه التوسيم وما اكثره واغزره وابست جهود الانايز لنقل كثيرا من
جهود هؤلاء واولئك ثم اغتد اليها جميعا ما راج الاعيركون والمتأركون
يزيدون على تلك الترة الضخمة .

غير ان وقوفك على هذه المراجع المختلفة المتعددة يسهل
امام سلويتين مختلفتين فان بين رأيين احدهما مثله الكنة الالمان
واشباعهم وهو يرى في الشرق عالما خيرا وفي " شعوبه اما رانية حاه
الغرب اليه يهبط من مناهله العذبة في ارنو فعاد وقد تبدل ^{حيدر} هذا

بعضهم ^{أشهر} ~~بعضهم~~ وحياته قائمة بأخرى مشروطة فكانت تلك النهضة الجبارة
في مطلع القرون الحديثة . أما الرأي ^{الآخر} ~~الآخر~~ ويمثله الفرنسيون ومن لف لفهم
فهو في الآخر غلوا ومبالغات وبأي أن يُقر للشرق بكل الحق وللعرب
بجميع الفضل فتطهر عندئذ لأن تبذل الجهود الجبارة للتوفيق بين
الفكرين والعلوم منهما بما يضيء السبيل وضع الحق في نصابه .

ولا بد هنا من الاقرار بجهلي للآلمانية التي لو كانت احسنها
اذن لوفقت الى الاضطلاع على ما يبدو لي فيما وبغدا ولكن
وما لاحظته ان ما بين الاوربيين من الشرقيين منهم
والذين من نزاع وتنافس اليم اما يرجع في الاصل الى تفسيين مختلفين
ولا يعود كما قد يتوهم البعض الى الحوار نفسه او الى القوة الصاعدة
ما نشأ عنها من تطور وتنافس . وتحاسد بل يعود الى نشأتهم الاولى
ولعل الحروب الصليبية كانت اول مظهر له .

تلك ملاحظات نبذت لي احب ان اسجلها للتاريخ
وكخلاصة استنتاجها بعد طيل الجهود في علي هذا ^{البحث} / ٥٧ / فمسي ان
يكون فيها بعض النير من يتصدى للموضوع من بعدي .
وقد يدعي ان انير اخيرا الى ان قبل هذه الدراسات
انما ترك في النفس اثرها فتدرك ما كان المشرق عامة والشرق من اهلها
خامة من فعل في تطور الغرب والفربيين وما باستطاعتنا ان نقدم غدا بعد
ان غابت اليم بخائر النقطة . وقد آتت النضة عندهم ^{نا} واضحة واضحة
فمسي ان يكون الاس دافرا لليم والبق دليلا على
ما سيكون الغد .

مصادر الكتاب

١ - العربية

- (١) أبو الفدا (إسماعيل صاحب حماء)
- (٢) الأثير (الطلب بنو الدين بن)
- (٣) أحمد حسن (محدث)
- (٤) الأدرسي (الشريف)
- (٥) الأرطاني (نجيب)
- (٦) باركر (أرنست)
- (٧) بطوطه (أحمد)
- (٨) بقاء الدين (المعروف بأبي شداد)
- (٩) البلاذري
- (١٠) بجلي (أحمد)
- (١١) جبير (محمدي)
- (١٢) حنفي (نيلوب)
- (١٣) زهدان (جرجي)
- (١٤) سرور (محمد جمال)
- (١٥) شهاب الدين (النفدي)
- (١٦) شوحو (لويس)
- (١٧) صالح بن يحيى
- (١٨) طرزي (نيلوب)
- (١٩) الحمري (أحمد)
- (٢٠) طيني (عبدالله)
- المختصر في أخبار البشر ١٢٩٥ هـ بحره بحر
- تاريخه الكامل ١٢٠١ هـ بحر
- إسماعيل بن منذر صلحه من تاريخ الحروب الصليبية ١٩٤٦ بحر
- زهرة المشتاق ٠٠٠٠ ١٥٩٢ هـ برومية
- الشرع الدولي في الاسلام ١٢٤٩ هـ - ١٩٣٠ م بدمشق
- الحروب الصليبية في نواحي الاسلام ١٩٢٩ م بحر
- رحلته ١٢٨٧ هـ بحر
- سيرة صلاح الدين الأيوبي ١٢١٧ بحر
- نوح البلدان ١٢١٩ هـ ١٩٠١ بحر
- حياة صلاح الدين الأيوبي بحر
- رحلته بحر
- (١) نعمة الشرق للعرب - في الكتاب الذهبي ليويل المتنطف الخميني ١٩٢٦ بحر
- (٢) كتاب الاعتبار ١٩٣٠ برنستون
- تاريخ المدن الاسلامي بحر
- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ١٩٢٨ بحر
- كتاب الرومانيين في أخبار الدولتين ١٢٨٧ بحر
- مصر تاريخها وأقاربها ١٩٢٥ م بيروت
- تاريخ بيروت ١٨٩٨ م بيروت
- عصر السريان الذهبي ١٩٤٦ بيروت
- مختصر تاريخ الدول ١٨٩٠ بيروت
- المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها ١٢٠٠ هـ ١٩٢٢ م بحر

- تاريخ البيمارستانات في الاسلام ١٢٥٧ هـ ١٩٢٩
بدمشق .
- مقدمة العرب في العلم والفلسفة بدمشق
- كتاب معالم الفرية في احكام الحسية ١٩٢٧ بكمبرج
- ذيل للتاريخ دمشق ١٩٠٨ بيروت
- (١) خطط الشام ١٢٤٢ هـ ١٢٤٧ هـ دمشق
- (٢) الاسلام والحضارة العربية ١٩٢٤ - ١٩٢٦ ببحر
- تسريح الامصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ١٩١٣ بيروت
- حضارة العرب - غلة زمينر ١٢٦٤ هـ ببحر
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري غلة ابو زيد
١٢٥٩ هـ - ١٩٤٠ م ببحر
- احسن التفاسيم في معرفة الاناليم ١٨٧٧ م لندن
- كتاب الخط السلوك لمعرفة الملوك ١٩٢٤ ببحر
- كتاب الاعتبار - حرره حتى ١٩٢٠ برستون
- مترجمه - غلة يحيى الخشاب ١٢٦٤ هـ ١٩٤٥ م
ببحر .
- حماية الارباب في سون الادب ببحر
- طرح الكروب في اخبار بني ايوب (مخطوطه بمكتبة
الجامعة المصرية)

(٢١) عيسى بك (احمد)

(٢٢) فريخ (عمر)

(٢٣) الفرني (محمد)

(٢٤) اللانسي

(٢٥) كره علي (محمد)

(٢٦) لانس (عمر)

(٢٧) لويون (غسان)

(٢٨) متر (آدم)

(٢٩) المندي

(٣٠) الفرني (علي الدين احمد بي علي)

(٣١) صند (اسامة بن)

(٣٢) ناصر خسرو (علي)

(٣٣) الموي

(٣٤) واصل (ابن)

ج - الوجيز

1) The anonyme author

) Barker Ernest

3) Bercovic, K.

4) Blackmar, Franker

5) Blochet

6) Sohn, H.G.

Besta Francorm

The Crusades Oxford 1936

The Crusades, N.Y. Cosmopolitain
book corporation 1929.

History of Humor Society, Boston

Relations diplomatiques des
Hohenstaufen avec les sultans d'E-
gypte 1902.

Chronicles of the Crusades, London
1943

7) Bréhier, Louis

8) Bongars

9) Bridrey, E.

10) Byrne, D.

11) Byrne; E.H.

12) Caffarus

13) Cahun; L.

14) Cambridge Medaeval hist.

15) Chalaudon

16) Cheikho, L.

17) Conder, G.R.

18) Coulson, Georges

19) Coy, Sir Georges W.

20) Dekisle, L.

21) Derembourg

22) De Vogue

23) Dodu, G.

24) Douglass, Amanda N.

25) Encyclopedea of Islam.

26) Eulart, G.

27)

27) Faris, N.A.

1) L'Eglise et l'Orient au Moyen Age.
2) Histoire de la 1ere Croisade 1924

Gestader per Francès

La Condition juridique des Croisés et
le privilège de la Croix Paris 1900

Crusades, London 1928

Genoese Colonies in Syria 1882

~~XXXXXXXXXXXX~~
Annales Genesues

Introduction à l'histoire de l'Asie
Vol.IV.

Jean II, Comène. Manuel Comène 1912.

~~XXXXXXXXXX~~ Un dernier écho des Croisa-
des (MFOB)

The Latin Kingdom of Jerusalem ~~XXXX~~
1099-1211, London 1897.

Crusades, Commerce et Aventures, London
1930.

The Crusades, London 1884

Opérations financières des Templiers
Paris 1889.

Osamaibn Mounquith 1889.

Les Eglises de Terre Sainte. Paris 1860

Hist. des Inst. monarchiques dans le
royaume latin de Jerusalem.

The heroes of the Crusades, Boston 1891

a) Les monuments des Croisés dans le
royaume de Jerusalem. - Architectur
religieuse et civile Paris 1928-30.
b) La Cathédrale St-Jean de Beyrou
dans le bulletin soc. des antiqua'
de France, 1904.

The Arab Heritage Princeton, 1944

xxix

- 1) Collier de Mortreux
- 2) Frouzet, L.
- 3) Gruhn,
- 4) Hamp, Carl
- 5) Hattis, L.
- 6) Heyd, L.
- 7) Henn-am Rhyn
- 8) Hitti, Phil.K.
- 9) Hist. de France
- 10) Jewdal, R.B.
- 11) Joinville ^{Sine} ~~(date)~~
- 12) Kugler
- 13) King
- 14) Koller
- 15) Lanens, L.
- 16)
- 17) Lane Pool, Stanley
- 18) Le Strange, G.
- 19) Marago Bernarhus
- 20) Martin, S.J.

xxxxix

- 1) Histoire Hierosolymitane
- 2) Hist. des Croisades et du Ro. L. 11
e Jerusalem Paris - 1934.
- 3) Der Kreuzzuge Richards I Berlin 1890
- 4) Les croisades et l'histoire des
Abendlands Von 900 bis 1180.
- 5) Les Croisades depuis le temps des
Croisades, Paris 1930.
- 6) Hist. du Commerce d' Levant au Moyen
Age Leipzig 1885.
- 7) Allgemeine Kullurgeschichte
- 8) Hist. of the Arabs, London 1937.
- 9) Le Collect. de l'Hist. des Croisades
a) Hist. occidentaux.
b) Hist. arabes.
c) Hist. grecs
d) Hist. arméniens.
- 10) Bohemond, Prince of Antioch.
- 11) Memoires of the Crusades Trans. by Sir
Franck Argialls.
- 12) Geschichte der Kreuzzuge
- 13) The Knights Hospitallers in the Holy
Land.
- 14) Studien zur Geschichte des zweiten
Kreuzzugs, Stuttgart 1866
- 15) a) La prise précise Historique, Pey-
routh 1924.
b) La description du Liban d'après
Idrisi.
- 16) a) The edin and the Fall of the
dom of Jerusalem London 1906/
b) A hist. of Egypt in the M. Age
- 17) Palestine under Muslims.
- 18) Annales Pisani.
- 19) The trials of the Templars, London

47) Mayer, L.A.

48) Michaud

49) Michel le Syrien

50) Mir Mir A.

51) Muller, W.

52) Morgate, K.

53) Oman, Sir Charles G.

54) Orsini, F.

55) Prutz

56) Raoul of Caen

57) Raymond of A. 1140

58) Rey, F.

59)

60) Rishhueber

61) Robinson, J. Harvey.

62) Roehrichtes, E.

63) Ruville, A.

64) Schaefer

65) Schurmeier

66) Société de l'Orient

67) Stevenson, G.

Larace. Herarldry Oxford.

a) Hist. des Croisades 3 vol. 18.

b) Bib. coll. Étude des Croisades
Chroniques de la Croisade, éditée et tra-
per l'abbé Chebot 1800.

The Mameluks or Slave Masters of E-
gypt.

The Latin Orient London 192.

Richard the Lion Heart, London 1924.

Hist. of the Art of War in the
Middle Ages 1898.

Rebnet et Charlemagne 2 ed. Paris 1932

Kulturgeschichte der Kreuzzuge

Gesta Tanenidi

Hist. Francorum qui ceperunt Ieru-
salem.

a) Colonies françaises en Syrie aux XII
et XIII siècles Paris 1883.

b) Etudes sur les monuments de l'ar-
chitecture des Croisés en Syrie et en
Chypre.

Les traditions françaises au Liban.

Int. to the Hist. of Europe 190. 190

a) Geschichte der ersten Kreuzzuge
1801

Die Kreuzzuge 1920.

Handels-geschichte der romanischen
volker des Mittelmeergebiets.

a) Maritimaque de l'Orient Latin
Paris 1878.

b) Renaud de Châtillon prisonnier d'An-
tioche, seigneur de la terre d'O-
Jourdain Paris 1923.

Archives de l'Orient Latin.

The Crusades in the East Cambri
1907.

67) Sybel;H.W.

Über den Zweitein Kreuzzuge in
"Kleine Schriften Bd.I. München 18

68) Teil

Geschichte der Califen 4.und. 5.Bd

69) Wells,H.G.

The outline of history London 1921.

70) Woodhouse,F.C.

The military religious orders London
1879.

71) Von Lybel

Geschichte der Ersten Kreuzzuge.

العلاقات الاجتماعية والثقافية

بين العرب والفرنج

خلال الحروب الصليبية

بحسن بنا قبل ان ننصدى الى الموضوع الاساسى وهى العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج ان نلقى نظرة عبرى على تلك الحروب التى استمرت قرنين كاملين من الزمن لتبين اسبابها وظروفها ومصر نتائجها الباشرة من تآهى سهر ملك واقام حكومات حتى تكون على بينة من امر ما صنفت عليه بعدد من النتائج فى حقل الاجتماع والثقافة .

يتوهم البعض ان تلك الحروب انما حدثت بفعل الدافع الدينى فقط وانه لولا البابوية لما كان قتال ولما تصادم الشرق والغرب آنذاك . والحقيقة انها لم تكن سوى نتيجة لحركات سبقها ورد فعل للموجة العربية الاسلامية التى بدأت فى منتصف القرن السابع الميلادى تطرق ابواب اورب من الشرق تارة ومن الغرب اخرى حتى نجحت بعض النجاح من الجبهة الغربية وفشلت كل الفشل من الجبهة الشرقية .

ثم ما فتئت بين مد وجزر حتى كانت الفرصة فى القرن الحادى عشر للميلاد سانحة امام البابا ليجمع قوى اورب البعثوة ويعد الكزة على الشرق لمستفيد ماكان العرب قد سبقوا واستولوا عليه وييسط سلطانهم على بلاد الشرق لهم اليه كنهته لاسيما وقد استطاع من قبل ان يجعل الغرب بمالكه وشعوبه ان تمنو جميعها الى سلطان .

هذا فضلا عما كان فى استطاع ان ذاك من شفاه وهنا اهابا بجمع الفلاحين الى ان يستجيبوا دعوة البابا ويحققوا رغبة ساداتهم الامراء فى الفزو والفتح . وان نفس ظن نفس التجار وما كان لهم فى ذلك من اثر ورغبة ان كان الكثير بينهم من اهل ايطاليا وجنوب فرنسا قد تعرف الى الشرق وما فيه من تجارات رابحة واسواق لها رائجة وثروات لمه متسقة كان لهم فيها مطمع . ولذاكر انه كان فى جانب هذا وذاك ظهور النورمان (الشماليين) والبروتسيين من اهل جنوبي فرنسا بحال تميزهم بحب الاقتحام والفتح ومناجزة العرب فى سبيل الاستيلاء على البلاد وطردهم منها .

عندها تصافرت تلك الاسباب مع ما كان فى الشرقيين العربى والاسلامى من تداع فى اركان الملك وتفتك فى اسباب الوحدة وسعف يوهن عند السلطان فكان لا بد ازا هذا وذاك من قيام

مثل تلك الحروب سواء ادعت اليها البابوية أم الملوك الزمانيون والآخر الإقطاعيون أو التجار الطامعون .
لما أن دوت كلمات أوربان الثاني في ناعه كلرمون سنة ١٠٩٥ م حتى انتشرت وعلقت في نفوس
القوم فعلها فاستجاب الناس اليها وراحوا ينضون تحت راية أمراء تحرك فيهم حب القتال والنزال
لفادومهم إلى الشرق من جهة آسيا الصغرى . لما أن تلقاهم الكسيوس فصر الرعب حتى ظهرت بوادر
الخلاف والتفرقة

ثم كانت حارا بينهم وبين السلاجقة في الأناضول ومن هناك انفضوا على الشام حيث كانت
حكومات عديدة متنازعة متناصرة فاستطاعوا بعننا غير كبير أن يفتحوا طريقهم خلال أنطاكية إلى
طرابلس فبعد أن تم إلى حيفا فالقدس حيث التفوا حامية للفاطمين لم تصد في وجههم إلا قليلا
فغدروا أفرادها والناس بالخلب من المواعيد فاستسلموا لهم وكان ما كان من أعمالهم السيئ في
رقاب العشرات من الآلاف بوحشة سبق لهم أن باعروها في المعزة وأنطاكية من قبل .

على هذه الصورة استطاع الفرنج خلال بضع سنين أن يؤسسوا ملكة لهم في القدس وأن
يلحقوا بها كونتية طرابلس وإمارة أنطاكية ومقاطعة الرها . فكانت هذه نتائج الحملة الصليبية
التي العباشرة . إلا أنهم ما كادوا يتبادلون الهجمات والكراوات مع المسلمين حتى كان عاد الدين
زنكي قد صوب لهم ضربة قاضية من الرها سنة ١١٤٤ م وجعلهم يخلون المقاطعة كلها دون
أن يلبوا على شيء ويؤمنون أن إمامهم في الديار الشامية قد لا تطول كثيرا .

فكان على إثر ذلك أن قامت دعوة سان بونار واستجاب لها رجال الحملة الثانية بقيادة
إمبراطور وملك ولكنها هي أيضا تكسرت على صخور المرة عند النهر من دمشق وكانت نصيبا منسيا
بفضل لعبة سياسة قام حين الدين أنسر بمثل فيها دوره ببيروا لا تفل طراقة عن حذى
زنكي في القتال .

بعد أن هذا لم يفت في عهد الفريبيين بل قاموا بلبون دعوة صليبية ثالثة فكان على راس
جهوشها رشار وفيليب أوفست وفردريك بربروسا لكن هذا لم يكتب له سوى الموت العاجل في
آسيا الصغرى ولحمته سور التعثر والثلاثى في السهول الساحلية من الديار الشامية .
وكان قد نبغ في الديار الشامية نبيل ذلك الشهيد محمود زنكى ثم تولى على يديه وهدى
شبركوه العظيم صلاح الدين بطل حطين . وما كادت نعل الحملة الثالثة ببعض جهوشها سوسوس
الخلاف ينخر في جملتها — حتى كانت الظروف المواتية قد هيأت لصلاح الدين أن يؤسس ملكا
ويجمع كافة المسلمين في مصر واليمن والشام وراح بعد العدة وينتظر الفرصة لينظر على فرسته التي
جعلها بين فكي الكفاشة وكان قد أبى أحد أمراء الفرنج ارتباط الكرك إلا أن يفتح باب الشر بينه

وبين صلاح الدين وذلك بتعدياته التي لا حصر لها مع قيام الهدنة بينهم وبين المماليك السلطان ولما لم يعد السلطان يستطيع صبرا جمع رجاله وانقض على جيوش الفرنج في سهل حطين سنة ١١٨٧ م حيث التقى عليهم درسا بليغا في وجوب المحافظة على اليهود فكانت ضربة موجعة حقا اذ انزلت في جيوشهم وقرى الداوية السبئية منهم ما جعلهم صرعى الى زمن ولما استفاقوا لم يستطيعوا معها كبير شيء .

ولم تكن ضربات زكي و انسر صلاح الدين لتعمل وحدها في اهلاكهم بل كان هناك ايضا ما بينهم من خلاف ونزاع وتدهور في الاخلاق . كل ذلك كان يزيد في طينهم بلة حتى هوت ملكهم وملحقاتها عند اقدام بيبرس وفلاوون والشرف خليل سنة ١٢٩٢ م .

هذا ما كان للحروب الصليبية من نتائج باشرة بين المتحاربين خلال قرنين من الزمن فلنسر الآن ما نتج عنها بينهم من علاقات اجتماعية وصلات ثقافية وهي في الحقيقة اهم واجدر بالدراسة والتفهم . ان ما كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية كخرب للمدن في الشام ومصر ونقص في الانفس بين المسلمين والتمارى من اهل الغرب لا يقاس بالفوائد الجمة التي اصابها اوروبا الغربية في حقل الاجتماع والثقافة بل وفي الاقتصاد ايضا .

اما في المجتمع فقد تبدلوا بحياتهم التمسك الخشنة حياة نعيم وترف ان في بيوتهم وقصورهم او في ملابسهم وما كلهم . هذا فضلا عن خشونة في اخلاقهم خلصوها وتحلوا بدماثة اقتبسوها من اهل البلاد التي يجوب بفضل المباشرة . فما ان انقض على اقامتهم في البلاد ما يقرب من ربع قرن من الزمن حتى شعروا وكا لهم اصبحوا شرقيين بلديين وقد نسوا مواطنهم الاولي وعلقوا بحب مواطنهم الجديدة فقلدوا اهلها بكل شيء حتى في لغاتهم واعيادهم وحفلاتهم ومبارياتهم الرياضية وخاصة الصيد منها . وان نفس شيئا فللنا بناسين الحمامات الماء ونمضها عليهم فقد اقبلوا عليها اقبالا عظيما حقا حتى تجاوز بعضهم - كالراهبات - حد انظمة حياتهم وقوانينها (هذا ما نقله راي ص ٦٢ من كتابه " المستعمرات الفرنسية " من جاك دي فنتري) .

هذا وان المرأة الفرنسية بهيئتها بعيدة عن احسن ما كان يوسمها ان تكسبه من الاخلاق والعادات ظلت بلغشتها ومجونها سببا من اسباب الفشل عندهم في مشروعاتهم . اذا كانت النبيلة منهم لا يهيمها على الاغلب التحقيق رغائبها الجنسية ونزواتها النفسية ولو كان في ذلك خراب القوم والملك ولم تكن المرأة المتوسطة من بينهم خيرا من زميلتها النبيلة اذا انغمست هي ايضا في حماة من الفحش والمجون ما جاء وبالا على اخلاق الرجال وبالتالي دمارا للملك وملحقاتها .

بهذا يحدثنا سان برنارد انظر ص ٢٥ - ٢٦ من حياة صلاح الدين لمؤلفه احمد بيلو وانظر
غروسيه ج ٢ ص ٢٢٦ .

اما من حيث الغروسيه فبالرغم مما يدعيه بعض الغربيين كغروسيه فانه لم يظهر منها في
الديار الشاميه في حياة اكثر كبرائهم الا الناحيه الجسمانيه وذلك في القوه وتحمل مشاق القتال
اما من حيث الناحيه الخلفيه التي تتمثل في العزوه وكبر النفس والعطف على الضعيف فقد اقتبسوا
من ذلك جله من الفرسان العرب كما برز ذلك في كتاباتهم الادبيه فيما بعد .
ولو اتينا الآن الى الحكومه وما افاد القوم منها لرأينا انهم قد اصابوا في هذا الحقل ايضا
خيروا كثيرا . اما في الاقطاع فقد تعلموا ان يقصروه على الارض واما الانسان فيبقى مالكا لحريته فلا
يسام في سبيل ذلك سوى العذاب ولا يحرم من حسن المعامله .

هذا فضلا عما دونوه فيما بعد من القوانين واذا بعثت الشريعه الرومانيه عندهم فانما حصل
ذلك بعد رجوعهم من الشرق . وما اقتبسوا الفرنج من العرب منصب " المحتسب " للنظر في امور
الرعيه والكف عن احوالهم ومصلحتهم .

هذا في الاقطاع والاداره اما في القضاء فقد اخذوا منه التشريع التجاري بفرعيه البري والبحري
كما اقتبسوا ايضا اصول المحاكمات القانونيه .

وكذلك فقد افاد الفرنج كثيرا من طرق الحروب واساليبها الفنيه ومن الاسلحه والآلات الحصار
وما شاكل فراحوا اولا يجتهدون من اهل البلاد غرقا من الخياله الخفيه وما لبثوا ان اتخذوا ايضا
الدروع الزردية ومن الخوذ الشاميه يتقون بها ضربات السيوف ملقين جانبيا بدروعهم وخوذهم الخشنه
الثقله . ولم يتورعوا عن تقليد العرب في استعمال المنجنجه ووزع الانعام المتفجوره وصنع مركبات
البرود والمواد المتفجعه واعداد النفط المتقد في الماء . ليس هذا فقط بل اقتبسوا ايضا شيئا كثيرا
من فن الهندسه العربيه كما حسنوا كثيرا من وسائل الدفاع . ثم ما لبث بعض النبلاء من بينهم
ان اخذوا انفسهم بالعلوم الدقيقه والفنون الآليه حتى انفقوها .

وما اقتبسوا اهل غربي اوروبا خلال الحروب الصليبيه من العرب النار كوسيله للمخابره السريه
المستعمله ليلا وحمام البطايق نهارا . انظر صالح بن يحيى ص ٦١ وكذلك فلانهم فقد قلدوا اهل
البلاد الشاميه في اتخاذ الرنوك والشعارات واستعمال علامات خاصه لتمييز الانساب .

هذا وكان لاخلاق الشرقيين فضلا عن كل ما ذكر اثرها البين في المتبلدين من الاخرنج
فنشأت صداقات بينهم وبين الشرقيين من عرب وترك وكراد جعلتهم يتشبهون بهم في كثير من
العادات الحميده والاخلاق الفاضله كالاستراش بالجميل والتسامح الديني والدفاع عن الصديق وحفظ
الجار ورعايه الطفل وحمايه الضعيف .

ولعله من الخير ان نذكر ما قام بين العرب والفرنج من تفاهم ثقافى كان له اثره البين في تقدم القيم في هذه الناحية ايضا .

ولو رحنا نعدد ما افاده القيم في ناحية الاقتصاديات لكان لنا متسع للقول وسجال فسيح للاعادة . ومن ذلك ما كان يتعلق بالزراعة فما كاد الفرنج يتعرفون الى السكر وحلاته حتى بادروا الى نقل زراعته نصبه الى بلادهم . وكذلك فقد نقلوا ايضا اللبون والبطيخ والشمش والخبخ والاجاص وقد بقى المشمش لمدة طويلة يعرف عندهم باسم " تمر دمشق " .

ومن جملة ما نقلوه من الديار الشاميه " التمر الهندى " وان كان من محاصيل الهند هو والاورى والطبوب والبهارات ونخص بالذكر منها القرفة . واما القطنى فقد نقلوا منها الذرة البيضاء الشاميه . واستطاعتنا ان نقرر انهم نقلوا زراعة السمسم والخروب والارز والقمح وما عطينا الا ان نذكر اسما . تلك المزروعات بلفاتهم ونقابليها بما هي في اللغات الشرقية وخاصة العربية منها فتعلم صدق ما نقول . وما له علاقة بالزراعة ايضا التوامير والدواب الهوائية التى لم تظهر في نورمانديا من فرنسا الا في سنة ١١٨٠ م .

وفي هذا كفاية فلنتنقل الى الصناعة التى يظهر انها انتقلت الى اوروبا اوروبية باكثرية فروعها كالخزف والزجاج والحلى والنسيج على انواعه والقيشاني هذا عدا عن صناعة الجعة والسكر التى بسببها احتفظوا بالاسم العربى للحصيرة (*M asria*)

اما الصابون فقد تم استعماله في القرن الثالث عشر واصبحت صناعته في المستعمرات الفرنجية على شئ كبير من الاهمية ومنها يجب ان يكون قد انتقل الى غربى اوروبا .

ولعل مقتبسات القيم في التجارة قد فافت مكتسباتهم من الزراعة والصناعة ولا عجب فان التجار من الإيطاليين والفرنسيين الجنوبيين كانوا اول المشتركين في تلك الحروب رغبة الكسب والا ثرا . ولا غرابة ان يكونوا قد اهابوا بالفرنسيين الى توسيع نطاق ترفهم وتعيمهم بما جلبوه اليهم من منتجات الشرقيين الزراعية والصناعية فتمت بذلك مدن كبيرة وفتحت طرق جديدة ما قرب الشقة بين آسيا واوروبا وورث بين شعوبها روابط اقتصادية زادت في دفع القيم الى الامام في سبيل التقدم والرفى . اصف الى ذلك الشركات التجارية الكبرى والنظام الجمركى روسيه وغيرها من الضرائب التى فرضت ايام الحروب الصليبية . وما قللوا العرب به ضرب العملة وسك النقود وتأسيس المصارف واصول ادارتها والبورصة واعداد الإثنية الخاصة بها .

وما كاد القيم يتعرفون الى علوم العرب وفنونهم حتى سارعوا الى اخذ ببعضها فتعددت
عندهم اللغات ولا عجب اذا علمنا ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت في اوروبا مع البعثات
التبشيرية التي ارسلت الى الشرق وقتذاك .

هذا وقد كان للآداب الشرقية عازق والغريبة فيها خاصة تأثيرها على بعضهم حتى
استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم فنقلوا بعض عناصرها الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة الى
اسطورة " الكاس المقدسة " وغيرها من الروايات الخيالية الخالدة .

وكم من قصيدة جديدة نظمت في اثناء تلك الحروب كقصيدة الشاعر الانكليزي

Ambroise

وقصيدة انطاكية (Chanson d'Antioche) .

وكذلك فقد زادت ثروة القيم في التاريخ والجغرافية كما ازدادت عنايتهم بالفنون الجميلة
كالموسيقى والزخرفة والحفر والعلوم الدقيقة كالرياضيات والطب والتاريخ الطبيعي .
ولعل في هذا القدر ما يرينا ما كان للعرب من اثر في اعداد الفرنج الى نهضتهم
 وخروجهم من ظلمات القرون الوسطى الى انوار العصر الحديث .

زكى النفاش